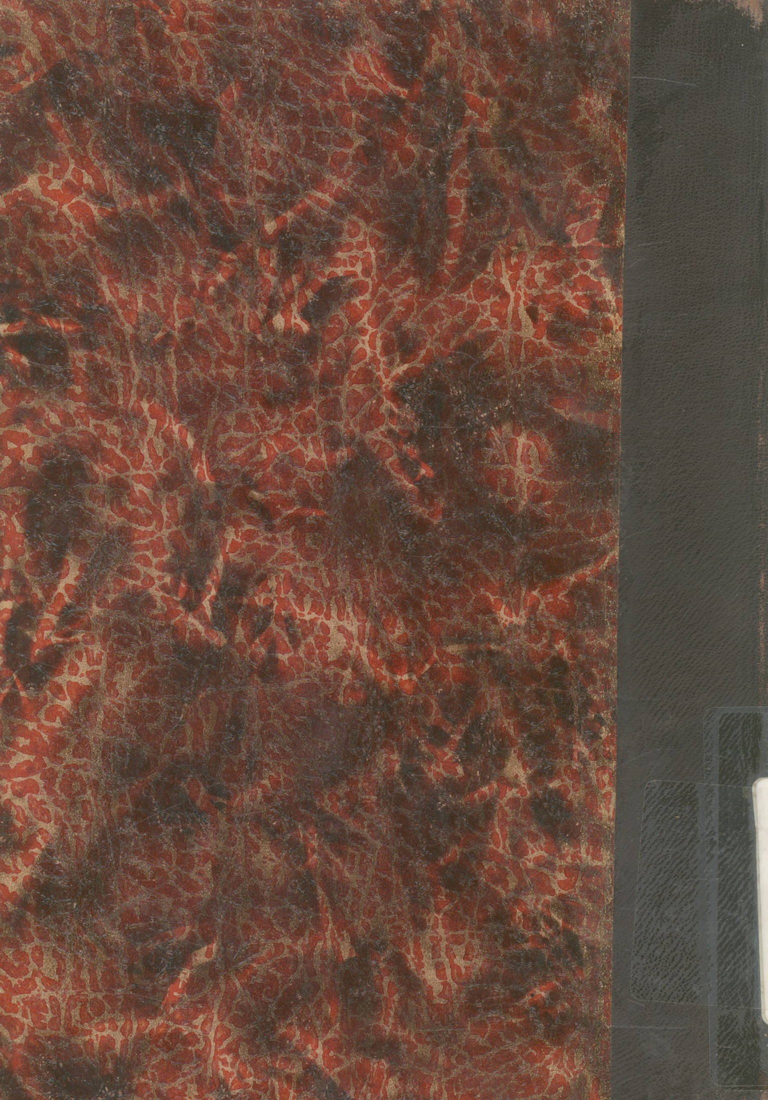
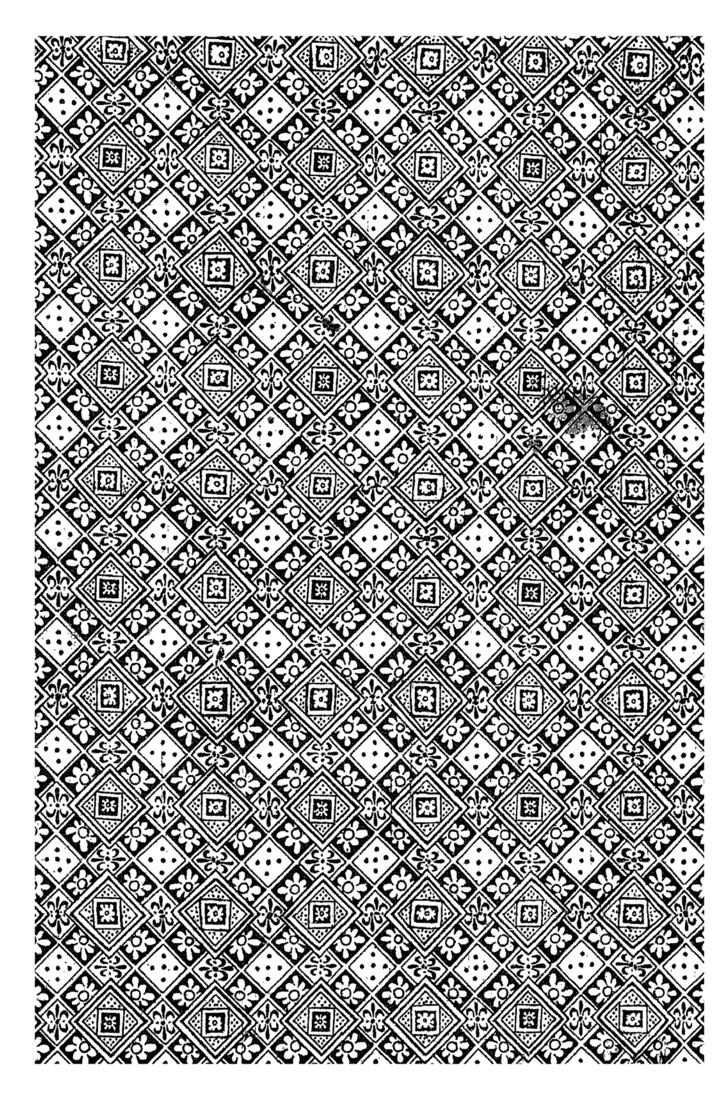
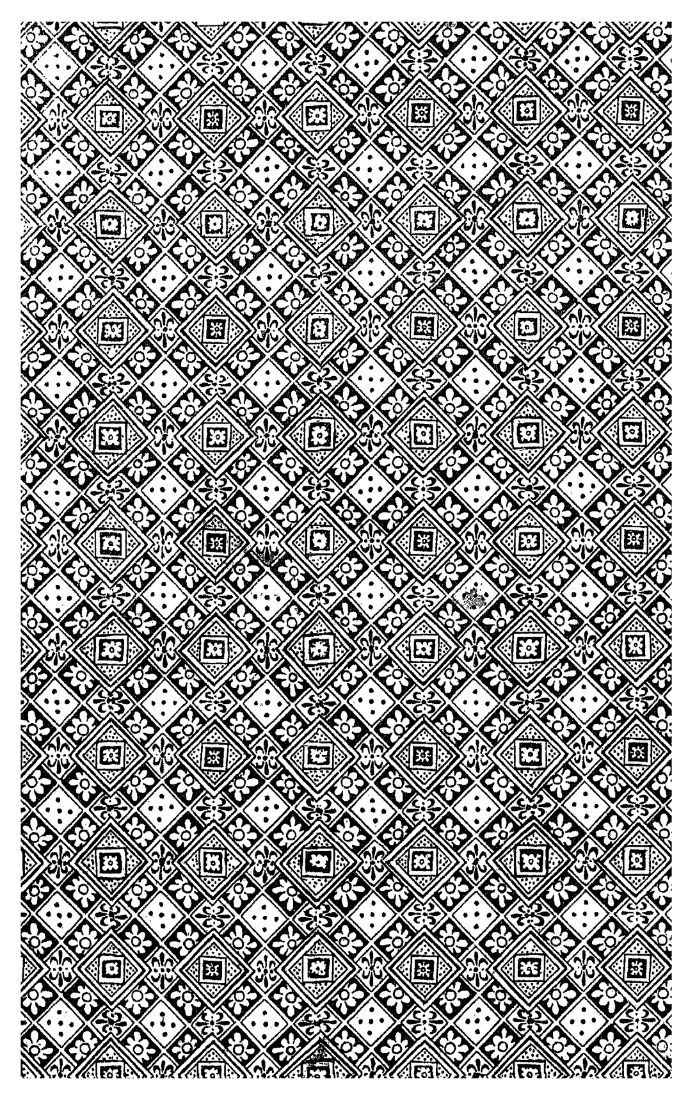






تاريخ العرب

في الجاهلية وصدر الإسلام

(١) دول العرب في الجاهلية

(٢) السيرة النبوية

(٣) الخلفاء الراشدون

تأليف

عبد المتعال الصعيدي

المدرس بكلية اللغة العربية

١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م

مطبعة العلوم بشارع الخليج بجنينة لاظ .



والحمد لله وبه نستعين ، ونصلى على نبيه العربى محمد ﷺ (وبعد) فهذا كتاب وضعته فى تاريخ العرب فى الجاهلية وصدر الأسـلام ، وعنيت فيه بتمحيص مسائله ، ورد شبهات الشعوبية قديماً وحديثاً فيه ، وتطبيق بحوثه على نصوص الدين الحنيف ، والله أسأل العون على إتمامه آمين ؟

مباحث الكتاب

(١) الجنس السامى : موطنه ، فروعه العامة ، خصائصه وخصائص مدنيته فى العصور القديمة :

(٢) بلاد العرب : خصائصها الطبيعية .

(٣) العرب : القبائل العربية وأنسابها .

(٤) الحالة السياسية للعرب قبل الاسلام : أشهر أيام العرب ، دولة المناذرة بالحيرة . دولة الغساسنة بالشام ، دولة كندة بنجد ، دولة حمير باليمن ، إمارة قريش بمكة .

(٥) أحوال العرب ومبلغ استعدادهم لقبول الوحدة العامة .

(سيرة سيدنا محمد ﷺ)

(١) نسبة عليه الصلاة والسلام . نشأته ، نبوته ، مناهضة قريش له ، قبول بعض اليثربيين دعوته ، الهجرة.

(٢) شرع القتال ، أشهر الغزوات ، فتح مكة ، دخول سائر العرب فى الاسلام ، حجة الوداع ، مرضه عليه الصلاة والسلام ، وفاته .

نظرة فى الانتقال الذى أحدثه الاسلام فى حياة العرب عامة .

(عصر الخلفاء الراشدين)

(١) ظهور الخلافة ، إلمامة بسيرة كل خليفة من الخلفاء الأربعة .

(٢) الفتوح الكبرى وأثرها فى حياة العرب .

(٣) الفتن ، مقتل عثمان بن عفان ، الحرب بين على ومعاوية ، مقتل على ابن أبى طالب .

(٤) نظرة فى حالة الدولة زمن الخلفاء الراشدين

الجنس السامى

(١) تمهيد : من الأمور التى تشغل الأذهان الآن انتساب البشر إلى أصل واحد أوعدة أصول مختلفة ، والخلاف فى ذلك قديم ذكره فى تاريخه ابن خلدون ، وقد كانت الأرض مسكونة قبل آدم عليه السلام بطوائف من الخلق منهم الجم ومنهم الطم ، وجاء فى التوراة (أنه لما كثر الناس على الأرض رأى أبناء الله بنات الناس حسناء فاتخذوا منهن نساء) فأخذ من هذا بعض مفسريها أن أبناء الله هم ذرية آدم وأن بنات الناس من نسل البشر الذين كانوا قبله ، ويؤخذ منها أيضا ان قابيل بعد طرد الله له لقتله أخاه عرف امرأة له من غير أخواته ثم قال للرب (إنك قد طردتنى اليوم عن وجه الارض ومن وجهك اختفى وأكون تائهاً وهاربا فى الأرض فيكون كل من وجدنى يقتلنى) وفى هذا دليل أيضاً على ذلك . وقد كثر القائلون بتعدد الأصل البشرى فى هذا العصر بعد كشف امريكا وهم يحتجون على ذلك .

«١» بانفصال قارة امريكا عن غيرها من القارات القديمة انفصالا لايمكن معه ان يكون سكانها من أهل تلك القارات .

«٢» بأن الاختلاف الكبير بين طوائف البشر فى ألوانها ولغاتها وغير ذلك لايكفى فيه أربعة الآلاف من السنين المحددة لظهور آدم على الارض .

وقد رد عليهم هذان الدليلان :

«١» بأن أمريكا لا يصعب الوصول اليها من آسيا عند بوغار (بهرنج) وهو يكون غالبا مملوءا بالجليد ، وقد ظهر فى الكتب الصينية ما يدل على أن الصينيين كانوا يعرفون أمريكا فذكرت فيها بلاد تدعى فوسانك وهى فى شرق الصين على مسافة قدرت فى تلك الكتب بنحو القدر الموجود الآن بين

أمريكا والصين ، ويؤيد هذا وجود تماثيل بها تحاكى رهبانا بوذيين وغير هذا مما يثبت وجود صلة قديمة بينها وبين أهل الصين، وقد ثبت أن بعضا من أهل نرويج وصلوا اليها فى القرن العاشر الميلادى قبل خريستوف كولمبس وينسب مثل ذلك إلى عرب الأندلس ، وها هى ذى اليوم يكاد الاوربيون يملؤنها بعد كشفهاسنة١٤٩٢م

«٢» بأن ظهور آدم على الارض أقدم بكثير من تلك السنين التى قدرها اليهود له ، ولم يوافق الاسلام على ما يذكره النسابون فى تسلسل القبائل وغيرها إلى آدم عليه السلام وغيره من الآباء الأولين ، وقد سئـل مالك رحمه الله عن الرجل يرفع نسبه الى آدم فكره ذلك وقال من أين يعلم ذلك ؟ فقيل له فالى إسماعيل فأنكر ذلك وقال من يخبره به ؟ وقد أيد العلم الحديث ماذهب اليه الاسلام وأثبت قدم الأرض وأن ظهور الأنسان عليها يقدر بمالا يحصى من آلاف السنين ، وأما السبب فى اختلاف ألوان البشر ونحوها فيهم فيرجع إلى اختلاف الأقاليم فى الحر والبرد والمأكل والمشرب وغير ذلك ومما يقطع القول فى هذا الخلاف ويثبت بطريق جازم وحدة الأصل البشرى أنه إذا تزاوج فردان ليسا من صنف واحد فان كان نتاجهما عقيما دل على أنهما من جنسين وان لم يكن عقيما دل على أنهما من جنس واحد ولا شك أن أصناف البشر توجد فيها الحالة الثانية بل إن قوة النسل تزداد فيهم بقدر ما تتباعد الأصناف المتزاوجة بينهم .

(٢) أصل الجنس السامي : ينسب الجنس السامى إلى سام بن نوح عليه السلام وهو الأب الثانى للجنس البشرى وقد كان له ثلاثة أولاد (سام ويافث وحام) تفرعت منهم (١) سائر الأجناس البشرية ، فتفرع من سام

---

(١) بعض العلماء الآن لا يرضى بهذا التقسيم المبنى على ماورد فى التوراة ويقسم الجنس البشرى الى الابيض والاصفر والاسود والأحمر وأغلب من يذهب إلى هذا ممن يقول بتعدد الأصل البشرى

الاجناس السامية من العرب وغيرهم ، وتفرع من يافث الاجناس الآرية من الهنود وغيرهم ؛ وتفرع من حام الأجناس الحامية من البربر وغيرهم . وهذا هو الشائع الى الآن بين الناس وربما يؤيده ظاهره القرآن الكريم إذ قال فى نوح عليه السلام وبنيه (ونجيناه وأهله من الكرب العظيم وجعلنا ذريته هم الباقين) ولكن الله تعالى حكى فى آية أخرى أن نوحا حمل معه فى السفينة غير أهله ممن آمن به (حتى إذ اجاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل) وقد اختلفوا فى عددهم فقيل إنهم كانوا اثنين وسبعين نفرا رجلا وامرأة ؛ وقيل إنهم كانوا ثمانين،وقيل غير ذلك ،ولم يخبر الله أنه أهلكهم بل أخبر أنه سيبارك فيمن كان معه فى السفينة فقال بعد ذلك (قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك . الآية) وهذه البركة جزاء الايمان فيجب أن تعم من معه ولا تخص أبناءه وحدهم وأما قوله (وجعلنا ذريته هم الباقين) فالحصر فيه إضافى بالنسبة إلى من غرق بالطوفان ممن لم يؤمن به من قومه .

وهذا كله على أن الطوفان كان عاما وقد اختلف العلماء قديما وحديثا فى أنه كان عاما أوخاصا ، وقد استدل من ذهب إلى أنه كان عاما بأن خبره موجود عند كل البشر ماعدا السود ، وبأنه يوجد فى بقاع كثيرة أنواع من الحيوان مطمورة لم تكن تعيش فيها ويوجد كثير من الصخور متفرقة

على التلال والجبال تخالف نوع الصخور التى تتألف منها وكثيرا ما يوجد حيوان مطمور مع آخر لم يكن يعيش معه وهذا وذاك يدلان على وجود طوفان عام جدث بقوة تياره كل ذلك . واستدل من ذهب إلى أنه لم يكن عاما بأنه لايوجد ماء فى البحار والأنهار يكفى لغمر اليابسة ، وبأنه لو غطاها الماء لزاد قطرها الاستوائى نحو اثنى عشر ميلا كما يزيد ثقلها وهذا يؤدى الى خلل فى النظام الشمسى ، وبأنه كان يجب أن تسير السفينة بفعل الشمس والريح فى جهة جنوبيـة فغربية وألا تعود إلى آسيـا وجبـال أرمينيـة التى استقرت عليها إلا بعد أن تدور حول الأرض كلها وهذا لا يكفى له الوقت المحدد للطوفان فى التوراة ، وبأن السفينة لا يمكن أن تسع جميع أنواع الحيوان . وقد سئل المرحوم الشيخ محمد عبده فى ذلك فأجاب بأن القرآن الكريم لايوجد فيه نص قاطع فى عموم الطوفان أو خصوصه وما ورد من الأحاديث فى ذلك على تسليم صحته فهو من أحاديث الآحاد لا يفيد اليقين ولا يمنع العلم من أن يحكم بما يشاء فى ذلك .

(٣) موطنه : لم يصل العلماء إلى رأى قاطع فى الوطن الأول للساميين وهم مختلفون فى ذلك على مذاهب أشهرها .

(١) مذهب العبريين من اليهود والعلماء الذين يتابعونهم فيه، وهم يرون أن العراق كان الوطن الأول للساميين ، وإنما ذهبوا إلى ذلك لأن جدهم ابرهيم عليه السلام أتى الشام من العراق ولـكنهم إذا سئلوا عن الأمة التى كان منها وهى الـكلدانية : هل كانت أصيلة بالعراق ؟ لم يوجد عندهم جواب مقنع ، وكثير من علمائهم يذهبون الى أن الشام سميت باسم سام بن نوح عليه السلام .

(٢) مذهب القائلين بأن أصل الساميين من بلاد الحبشة وأنهم جاءوا إلى جنوب الجزيرة من باب المندب قبل زمن التاريخ ثم صعدوا إلى الجهات الشمالية

(٣) مذهب القائلين بأن جزيرة العرب هى مهد الساميين وأنهم انتشروا منها بمهاجرات متتابعة الى العراق والشام وغيرها شمالا، والى الحبشة غربا بطريق باب المندب ، وهذا المذهب هو الشائع الآن بين العلماء ويوجد من الأدلة اللغوية والتاريخية وغيرها مايؤيده ، فاللغة العربية أقرب أخواتها الى اللغة السامية الاصلية ويوجد فى العبرية والآرامية آثار الحياة البدوية وهى الحياة العربية

(٤) فروعه العامة :

(١) الكلدان : وقد هاجروا من جزيرة العرب الى العراق حوالى ٣٦٠٠ ق م وينسبون الى أبيهم كلدة وهو شيخ عربى يعده المؤرخون مؤسس دولة الكلدان، وقد تأسست فى العراق بعدهم دول كثيرة للأشوريين وغيرهم ، ومن الكلدان الآراميون وهم السريان ، والعبريون وهم أبناء ابرهيم عليه السلام من اليهود وغيرهم .

(٢) الفينيقيون : وهم الكنعانيون من الاموريين وغيرهم ، وقد هاجروا الى بلادهم بالشام من حضرموت على ساحل الخليج الفارسى نحو سنة ٢٦٠٠ ق م ومما يؤيد نسبتهم هذه أنه وجد فى الكتابات الحميرية اسم معبودتهم (عشتروت) وأن أسماء مدنهم بالشام من صور وغيرها منقولة من أسماء مدن حضرموتية قديمة ، ولايزال فى الخليج الفارسى إلى يومنا هذا ثغر اسمه جبيل على اسم الثغر الفينيقى فى الشام ، ولكن التوراة تقول إن حاما هو أبو كنعان فيكون الكنعانيون عندها حاميين لاساميين

(٣) الحبشة : وهم يعدون أيضا من الساميين وقد هاجروا إلى الحبشة من بلاد العرب ، ويؤيد هذا قرب لغتهم من العربية وانها كانت بحيث يفهمها عرب قريش الذين كانوا يقصدون بلادهم للتجارة وغيرها ، والأقدمون يعدون الحبشة من أولاد حام

(٤) العرب وكل طبقاتهم من الساميين ، ويرى بعض الباحثين أن القحطانيين ليسوا من أصل سامى ويستدل على هذا بالعداء الذى بينهم وبين العدنانيين ، وبمشابهات بينهم وبين الحبشة وأمم أفريقية . ولا يخفى أن هذا العداء كان موجوداً بين القبائل العدنانية أيضاً بل ذكر بعض المؤلفين أن شأن النفسية السامية أنها تتباغض وتتحاسد وقد تبغض الأقارب أكثر مما تبغض الأباعد ، على أن المذهب الراجح فى الحبشة الآن أنهم من أصل سامى .

(٥) خصائصه وخصائص مدنيته فى العصور القديمة : ذكر علماء التاريخ أن الامم السامية تمتاز عن غيرها من الأمم بهذه الأمور

(١) أن أغلب مظاهر هذه الأمم تكاد تكون صحراوية ، فعواطفها وخيالها وأفكارها تشعر بروح الصحراء التى نشأت لأول أمرها فيها ، حتى إن الاسرائيليين بعد تمدينهم فى فاسطين كانوا لا يستنكرون من الأديب أن يستعمل التشبيهات الصحراوية والخيال البدوى .

«٢» ان عقيلتهم روحانية سماوية ، ويستثنى من ذلك الفينيقيون ،فكان الكلدانيون مثلا يبحثون عن آلهتهم فى السماء بين الكواكب والنجوم،ويميلون فى إعتقاداتهم الى الامور المعنوية الروحانية ، ويعملون لترقية الروح وتهذيبها بنشر الدعوة إلى الاعتقاد بوجود الجنة والنار وخلود الروح . ويخالف

الفينيقيون إخوتهم الساميين فى هذه الروحانية فكانوا يعتقدون أن آلهتهم تسكن الارض على قمم الجبال ورؤوس الاشجار وأعماق الآبار وتهتم بالفلاحة وحراثة الارض وما الى ذلك ، فاتجهت ميولهم نحو الزراعة والصناعة والتجارة وكانت حضارتهم أكثر نتاجا من الحضارة الكلدانية وان كانت مادية أرضية، والحضارة الكاملة هى التى تعطى الروح حقها والمادة حقها وهى الحضارة التى جاء بها الدين الاسلامى الحنيف ، وقد تكون مخالفة الفينيقيين فى ذلك لغيرهم من الساميين مما يقوى القول بانهم ليسوا من أصل سامى وهو مذهب الاقدمين فيهم

«٣» أن علمهم لم يجاوز مرتبة المعارف التجريبية والتطبيق العملى فى الحساب وغيره حتى علم الفلك الذى نبغ فيه الكلدانيون وكذا الفلسفة فلا نجد لهم فيها الا تلك الوصايا والحكم المشهورة فى صيغها المختلفة، وأما البحث النظري فهو من مبتكرات العقلية اليونانية الآرية

ويوجد علماء مثل رينان الفرنسى وغيره يتعصبون على الامم السامية ويذكرون أن من صفاتها الضعف والفشل فى كل شىء ويجعلون اعتقادها فى التوحيد دليلا على أن خيالها ضئيل ذو صبغة واحدة بخلاف الامم الوثنية فان خيالها واسع قوى ، كما يذهبون الى أن فى طبيعة الامم السامية ميلا الى الغلو فى التعصب الدينى وقوة غير محدودة فى الحقد والبغضاء وحبا شديدا فى تقليد الآباء والجمود على آثارهم وغير ذلك مما لا يجد الانسان عناء فى رده من التاريخ وغيره، فان الامم السامية كان لها ماض امجد من ماضى غيرها وإن هذه الصفات تصاب بها كل الأمم خصوصا فى عصور ضعفها بل إن بعضا من العلماء لا يرى فرقا بين حضارة هذه الأمم وحضارة الأمم الآرية

لاختلاط حضارتيهما فى سائر العصور واجتماعها فى بقع شتى من الارض والى هذا الرأى أميل لبنائه على الانصاف وبعده عن التعصب

بلاد العرب وخصائصها الطبيعية

(١) حدودها : بلاد العرب هى شبه الجزيرة الذى يحده من الشرق بحر عمان وخليج فارس ونهر الفرات ، ومن الجنوب المحيط الهادى ، ومن الغرب البحر الاحمر (بحر القازم) ومن الشمال عند من يدخل فيه بادية الشام وشبه جزيرة سينا — خط يمتد من نواحى العريش مسايرا حدود فلسطين الجنوبية ومنعطفا الى الشمال مع حدود الشام الشرقية حتى يقارب تدمر ثم ييمم الشرق الى حافة وادي الفرات ثم يسير الى الجنوب الشرقى حتى مصب شط العرب . ويقع شبه الجزيرة بين الدرجتين ٣٢ ، ٦٠ طولا الى الشرق وبين الدرجتين ١٢ ، ٣٤ عرضا الى الشمال .

(٢) طبيعة أرضها : شبه جزيرة العرب هضب يبلغ نهاية ارتفاعه فى الجنوب والغرب وينحدر الى الشمال والشرق حتى وادى الفرات وساحل الخليج الفارسى وأكثر نواحيه قحل قليل المياه والامطار لقلة جباله وانخفاضها . وتنقسم بلاد العرب من جهة طبيعتها الى ثلاثة اقسام :

«١» الصحراء الشمالية : وهى مابين شاطىء مدين وراس الخليج الفارسى وما يتصل بذلك الى الشمال ، وهى صحراء صخرية فى القسم الشمالى منها رملية فى القسم الجنوبى ، وتنبت فى الفصول الممطرة مراعى عظيمة واغلب سكانها بداة رعاة ، وفى القسم الشمالى أودية تسير من الغرب الى الفرات اعظمها وادى حوران ، وفيه أيضا وادى السرحان وهو يسيل من جبال حوران الى الجنوب الشرقى حتى ينتهى الى قرية الجوف

«٢» الوسط : ويشتمل على الحجاز ونجد والاحساء . فالحجاز هو الجبال

الممتدة بين نجد وتهامة من خليج العقبة إلى عسير وقد يقال على تهامة أيضا ؛ وتقسمه جبال تهامة قسمين . ساحل ضيق هو تهامة ، وهضب أوسع منه يمتد الى نجد، ويمتاز الحجاز بطبيعته هذه ما عدا الطائف فانها أشبه بأرض اليمن ويمتد فيه من تبوك الى أقصى الشمال ارض غليظة قاحلة تجرى فيها أودية بعد المطر تسمى حسمى وقد وردت فى شعر كثير

سيأتى أمير المؤمنين ودونه جماهير حسمى قورها وحزونها
تجاوب أصدائى بكل قصيدة من الشعر مهداة لمن لا يهينها

ويمتد شرقيه سلسلة من الارض البركانية وأكثرها بين المدينة والشام وتسيل من حرارها أودية كثيرة الى الشرق والغرب وأعظمها وادى إضم وهو يسيل من الجنوب الشرقى لحرة خيبر ويصب فى البحر الاحمر، ومن أعظم مدن الحجاز مكة والمدينة والطائف وتبوك والحجر وتيماء ودومة الجندل وتسمى الآن الجوف، ومن أعظم مرافئه جدة وينبع

ونجد هى الاقليم الوسط وفى شماليه أرض شمر ومن جبالها أجا وسلمى وهما جبلا طىء ، والقسم الشرقى يسمى الوشوم ، والاقليم العظيم الذى يمتد غربى الوشوم يسمى القصيم ، ومن أحسن أودية نجد وادى الرمة وهو يسيل من حرة خيبر ويخترق نجدا كلها حتى يقارب البصرة وتصب فيه أودية كثيرة لا يجرى ماؤه إلا قليلا ، ولكنه يفيض فى الرمال وينبجس فى جهات كثيرة تحيط بها القرى والمزارع ، ومن قرى نجد حائل والرياض وعنيزة ، والقسم الشرقى الجنوبى من نجد يسمى اليمامة وهى أرض مخصبة كثيرة النخل معروفة من القدم بزرع القمح .

والاحساء أو الحسا يمتد من الفرات إلى عمان ، وأرضه واطئة حارة، وهى فى شمال القطيف صحراء سكانها بداة ؛ وفى القطيف وما يليه أرض تنبجس فيها

المياه وتنبت الزرع والكلأ ؛ ومن مدنه الكويت والحسا والقطيف ؛ ويوجد بشمالها ساحل يعرف باسم القطيف وكان يسمى الخط واليه تنسب الرماح الخطية المشهورة

«٣» القسم الجنوبى : ويشتمل على اليمن وحضر موت ومهرة وعمان والصحراء الكبيرة ؛ فاليمن يمتد من الحجاز الى الجنوب حتى المحيط الهندي ؛ وهو من حيث طبيعته ثلاثة أقسام : ساحل ضيق هو تهامة اليمن؛ وأرضه ذات خصب وفيها أشجار ومراعي كثيرة ؛ ومن مدنها الحديدة ومخا . ويلى ذلك القسم الجبلى ؛ وفيه أودية دائمة الجريان ولأهله عناية بزرعه وتصريف مياهه واقامة السدود عليها من قديم الزمان،ويلى هذا القسم هضب يهبط إلى الشمال الشرقى حتى يصل الى سهول نجد ، ومن مدن اليمن صنعاء وهى اليوم عاصمتها .

وحضر موت فى شرق اليمن على ساحل المحيط ؛ وهى أرض جبلية ذات أودية كثيرة أكبرها وادي القصر ويجرى فيه الماء طول السنة وعليه تقوم أكبر مدن حضرموت من شيبام وغيرها .

ومهرة أو الشحر فى شرق حضر موت ؛ والشحر معناه الساحل فى لغة الجنوب القديمة ؛ والى مهرة تنسب الابل المهرية ؛ وتنبت فيها أشجار (اللبان) فى الجبال الموازية للساحل

وعمان فى منتهى الجزيرة من الجنوب الشرقى؛ وهى جبلية ذات خصب يوجد فيها ينابيع كثيرة يحسن أهلها الانتفاع بها ؛ ومن أشهر مدنها مسقط وهى عاصمتها ؛ وصحار وكانت تسمي عمان وهى عاصمتها القديمة

والصحراء الكبيرة تمتد شرق اليمن وشمالى حضر موت وغربى عمان

الى نجد ؛ وهى صحراء واسعة تفصل بين العمران فى جنوبى الجزيرة وجهاتها الاخرى وأرضها مجهولة غير معروفة وينبت بها المطر مراعى كثيرة يقصدها الأعراب بابلهم وشائهم ؛ وتسمى الصحراء فى علم الجغرافيا الآن الربع الخالى .

(٣) جوها : بلاد العرب من أشد البلاد حرارة لطبيعة أرضها وموقعها من خط الاستواء وتكثر الحرارة فى جهاتها الواطئة على سواحلها فتكثر فيها الرطوبة والحرارة طول السنة ، ويشتد البرد ويعتدل الصيف فى اليمن وعمان حيث ترتفع جبالها وهضابها ، ويشتد فى وسط البلاد الحر نهارا وتبرد الليالى فى الصيف ، وتهب الرياح فى الجهات الشمالية غالبا من الغرب ، وفى السواحل الجنوبية من الشرق ،وفى اليمن من الشمال الغربى والجنوب الشرقى ، وتسمى ريح الشرق الصبا ، وريح الغرب الدبور ، وريح الشمال باسمه ؛ وريح الجنوب باسمه ؛ والتى بين مهبين النكباء .

(٤) حيوانها : يكثر فى بلاد العرب من الحيوان الأليف الجمل والحصان وهو أجمل نوعه وكذا الضأن والمعز ؛ ويوجد الحمار فى اليمن والحجاز والأحساء ويأنف البدو من ركوبه ، ويوجد فيها من الحيوان الوحشى الأسد والفهد والنمر والغزال ؛ ومنه نوع كبير يسمونه بقر الوحش وهو فى حجم الحمار أبيض ذو قرون مستقيمة ،ويوجد فيها من الطيور النعام والحمام والقطا وغير ذلك ،ويوجد فيها من الحشرات الثعبان والعقرب والجراد وهو كثير يأكله أهلها .

(٥) نباتها : يكثر زرع الشعير فى جهات كثيرة من بلاد العرب ، وتزرع الذرة فى بعض الجهات ؛ ويزرع القمح فى اليمن واليمامة ،ويزرع الارز فى

الاحساء وعمان ؛ وينبت القت فى البادية ودقيقه أجود من الشعير ؛ ويوجد الكرم فى جهات كثيرة ؛ وأكثر منه فيهاالتمر ويقتات به فى أنحاء كثيرة، وزروعها على العموم لاتفى بحاجات أهلها ؛ ويوجد فيها من الأشجار الدوم والحناء والطلح والنبق والسمر وغير ذلك

العرب وقبائلها وانسابها

(١) العرب : لفظ العرب فيما يقال أصل معناه (غرب) بالغين المعجمة لأن الساميين فى أعالى الجزيرة من الكلدان وغيرهم كانوا يسمون من أقام منهم فى البادية آراميين (بدويين) وبعضهم كان يسميهم (عمورى) ثم سموهم عريبى أو عربا ومعناه فى السامية القديمة أهل الغرب لأنهم كانوا فى غرب الفرات ؛ وقيل أن كلمة عرب تدل فى اللغة العبرية القديمة على أهل العربة أى الصحراء فكانت تطلق على أهل البادية وحدهم وكذلك وجدت فى آثار الآشوريين والتوراة ثم اتسعت حتى عمت سكان الجزيرة جميعا .

(٢) قبائلها : تنقسم أمة العرب الى ثلاث طبقات (البائدة والعاربة والمستعربة) وكانت مساكن العرب البائدة والعاربة فى الجنوب وهو يشتمل على أكثر الامكنة خصبا فى الجزيرة فكان لاهله فيه دول قديمة وحضارة راقية ؛ أما العرب المستعربة فكانت مساكنهم بالشمال وهو أقل خصوبة من الجنوب فغلب فى أهله التبدى والبعد عن الحضارة إلا فى مواضع قليلة منه .

« ١ » العرب البائدة . وتطلق على عدة أقوام منهم عاد (١) وثمود (٢)

---

(١) ذكرها اليونان باسم آدراميت (٢) ذكرها اليونان باسم ثموديني

وطسم وجديس(١) وأميم وجرهم الأولى وحضر موت والعمالقة وغيرهم ؛ وكان للعمالقة حكم فى العراق والشام ومصر وقد عثر حديثا على آثار دولة من أولئك العرب بالعراق هى دولة حمورابى « عمورابى » وكثير من أسماء ملوكها عربى اللفظ والمعنى مثل ساموأبى (أبى سام) وشمسو إيلونا(الشمس الهنا) وينازع بعضهم فى عربية هذه الدولة ويجعلها من الدول العراقية الكلدانية

وكانت عاد تسكن الأحقاف ، وكانت ثمود تسكن معها فى الجنوب ثم أخرجها منه القحطانيون إلى الحجر ووادى القرى (٢) بين الحجاز والشام وكانت طسم وجديس تسكنان اليمامة

وقد بادت هذه الطبقة ولم يبق من آثارها وأخبارها إلا القليل فى القرآن الكريم وغيره ، وقد قال الله فى عاد وثمود منها (وأنه أهلك عادا الأولى ، وثمود فما أبقى) ولا يراد من هذا ذهاب قبائلهم كلها وأنه لم يبق بعد ذلك بعض منهم اندمج فيمن أتى بعده من العرب أو بقى محافظا على آثاره ومميزاته، ومما يؤيد ذلك ماورد فى بعض الاحاديث أن ثقيفا من بقايا ثمود ، ويقال أيضا إن من بقاياهم الأنباط الذين كانت لهم دولة عاصمتها بطرة بالشام فى القرن الثانى أو الثالث قبل الميلاد ، وكذا التدمريون الذين كانت لهم دولة بالشام عاصمتها تدمر ، وقد أدخلها الرومان فى حمايتهم سنة ١٣٠ م ومن ملوكهم زنوبيا التى يقال إنها الزباء صاحبة جذيمة الأبرش ، ومما يؤيد عربيتهم قرب لغتهم من العربية حتى إن بعض أسماء ملوكهم عربية مثل العزى وأسد وأوس ، وقيل إنهم ليسوا من العرب وإنما هم من بقايا الأمة الكلدانية

---

(١) ذكرها اليونان باسم جوليست بإبدال اللام من الدال لسهولة ذلك عندهم (٢) ويظهر أن صالحا أرسل إليها بعد انتقالها إليهما

«١» العرب العاربة : وهم من ولد قحطان بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام ، وقحطان فيما يقال هو يقطان المذكور فى التوراة ، وكان القحطانيون يسكنون جميعا باليمن وكانت لهم فيه دول كبيرة ، فلما كانت حادثة سيل العرم هاجر كثير منهم إلى الشمال واختلطوا بالعرب المستعربة وعاش أكثرهم معهم عيشة بداوة وأنشأ بعضهم دولا متحضرة فى العراق والشام وغيرهما مثل دولتى المناذرة والغساسنة ، وكان لهذه الهجرة وتلك الدول أثرها فى نهوض عرب الشمال وظهور أمرهم قبل الاسلام على عرب الجنوب ، وكان أكثر القبائل التى هاجرت إلى الشمال من كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وقليل منها كان من أخيه حمير ، وقد بقى أكثر الحميريين باليمن فى ظل دولتهم ولم يهاجروا إلى الشمال كغيرهم

ويرى بعض مؤرخى عصرنا(١) أن كل عرب الشمال من العرب المستعربة العدنانية حتى هذه القبائل التى يقال إنها يمنية لأن لغة الجميع كانت اللغة العدنانية الشمالية . ولا يخفى أن هذه القبائل كانت قلة بين قبائل العرب المستعربة فلم تجد مع طول الزمن إلا أن تترك لغتها وتتكلم بلغة الكثرة التى هاجرت إليها

«٢» العرب المستعربة : وهم العرب العدنانيون أبناء اسماعيل بن ابرهيم عليهما السلام ، ويحاول بعض أعداء الاسلام أن يطعن فى هذا النسب ويجعله من اختلاق اليهود الذين هاجروا إلى بلاد العرب ليتقربوا بذلك إليهم ويجعلوهم أبناء عمهم كما حاولوا مثل ذلك مع الروم قبلهم ، ولو كان هذا النسب من اختلاق اليهود لهذا الغرض كما يقول من يزعم ذلك لكان الأجدر أن يختلقوه

(١) تاريخ العرب قبل الأسلام ص ١٨٢

لسكان يثرب من الأوس والخزرج ولغيرهم ممن كانت إقامتهم بينهم ومعظمهم من القبائل اليمنية ، على أن هذا النسب يوجد فى كتب اليهود المقدسة كما يوجد فى القرآن الكريم فليس هو من اختلاقهم وإنما هو أمر ثابت عندهم ، وقد ورد فى التوراة أن هاجر لما خرجت بابنها اسماعيل ذهبت به إلى برية بئرسبع وسكنت معه برية فاران وتطاق فاران على جبال مكة أو جبال الحجاز كما ذكر هذا ياقوت وغيره من علماء تقويم البلدان ، وذكرت أيضا أن أولاد اسماعيل آباء القبائل التى أقامت مابين حويلة إلى شور وحويلة هى خولان الواقعة فى شمال اليمن وشور كانت عند برزخ السويس وما بينهما هو الحجاز وغيره من مساكن أولئك العرب ، ويؤيد ذلك النسب أيضا ما وجد من التشابه بين العدنانية والعبرية لغة اسماعيل الأصلية حتى قيل إن العدنانية أقرب إليها من أختها الحميرية .

وقد ذكر مؤرخو العرب أن هاجر أقامت هى وابنها بمكة مع قبيلة جرهم العربية فتعلم العربية منهم وكانت لغته عبرية فجاءت لغته عربية جديدة فيها من آثار العربية القديمة والعبرية لغة أبيه ، وكان أبناؤه يسكنون الحجاز ثم انتشروا منه فى شمال الجزيرة من نجد وتهامة الى مشارف الشام والعراق ، وكانوا يعيشون قبائل رحلا ، وكانت دول العرب فى اليمن والعراق والشام تستخدمهم فى نقل التجارة على القوافل .

والقبائل العربية التى بقيت الى الاسلام ترجع فى أنسابها الى الطبقتين الأخيرتين (العاربة والمستعربة) والعاربة منها قبائل حميرية ومنها قبائل كهلانية . والمستعربة منها قبائل قرشية ومنها قبائل غير قرشية

(٣) أنسابها: ينسب الى حمير من القبائل قضاعة(١) بن مالك بن حمير. ومن قضاعة بلى وجهينة وكلب وعذرة وبهراء ونهد وجرم ، وينسب الى كهلان همدان وكندة وأشعر والأزد وأنمار وجذام ولخم وعاملة ومذحج ومراد وطيء ، وقد تفرع من كندة السكاسك والسكون ، ومن الأزد غسان والأوس والخزرج ، ومن أنمار خثعم وبجيلة، ومن مذحج بلحارث بن كعب وخولان وجنب والنخع وعنس وسعد العشيرة ، ومن طيء لام وجديلة ونبهان وهناء وبولان وسدوس وجرم وثعل

وتنسب القبائل المستعربة الى أربعة أصول (مضر وربيعة ، وإياد وأنمار) وهم أولاد نزار بن معد بن عدنان ، وقد تفرع من مضر قبائل قيس عيلان بن الياس بن مضر ومنها باهلة وهوازن ومازن وسليم وغطفان وعدوان ، وقبائل طابخة بن إلياس ومنها مزينة وتميم وضبة ، وقبائل كنانة بن خزيمة بن مدركة ابن الياس ومنها عمرو وعامر وعبد مناة وغيرها ، وقبائل قريش وهو فهر بن كنانة ومنها محارب والحارث وغيرهما من قبائل عديدة تتكاثر وتتزايد حول عامود النسب النبوى . وقد تفرع من ربيعة أسد وضبيعة وغير ذلك من قبائلها ، وكان أشهرها بكر وتغلب ابنا وائل بن جديلة بن أسد بن ربيعة

وكانت العرب تعنى بحفظ أنساب قبائلها فى جاهليتها واسلامها ، وكانت تعد ذلك علما من أهم علومها ، وبعض علماء أوربا ينكر صحتها ، ويزعم أنها وضعت بعد الاسلام من ابن الكلبي واضرابه ، ويرى أن الأسرة العربية القديمة لم يكن فيها أب معلوم وانما كانت تسودها أم كثيرة الرجال ولم يظهر

---

(١) بعض النسابين يعد قضاعة فى القبائل العدنانية ويجعل قضاعة من فروع نزار مع مضر وربيعة وإياد وأنمار

حق الأبوة عند العرب الا قبل الاسلام بقليل من الزمن ، وذلك هو ما يسمى الآن الطوتمية (الأمومة) والطوتم من لغات هنود أمريكا ويراد به كائنات حيوانية أو نباتية تحترمها بعض القبائل المتوحشة ويعتقد كل فردمنها أنه ينتسب اليها ولا أبوة عندهم لغيرها ومرجع نسبهم الىالأم ، ومن أدلتهم على أمومة العرب :

« ١ » ما ذكره استرابون فى القرن الأول قبل الميلاد عن العرب (والزواج عندهم مشترك بين الاخوة فللاخوة جميعاً امرأة واحدة والذى يدخل منهم اليها يترك عصاه بالباب وأما الليل فهو خاص بأكبرهم وقد يأتون أمهاتهم والزناة يعاقبون بالقتل وهم الذين يتزوجون من غير قبيلتهم)

«٢» الانتساب بينهم الى الأمهات كقولهم بنو خندف وبنو ظاعنة وكلاهما إسم امرأة نسبت القبيلة كلها اليها

«٣» تأنيث أسماء القبائل كقولهم جاءت مضر وذهبت قيس ولا يقولون جاء مضر ولا ذهب قيس

« ٤ » اشتقاق لفظ الأمة من الأم وهو دليل على أن الأصل فى النسب الأم ولا سيما أن الأم فى العبرية تدل على القبيلة أو الجماعة

وقد ردت هذه الأدلة بأن هذا النكاح الذى ذكره أسترابون كان قليلا فى العرب وقد شاهد استرابون حادثة منه فظن أن هذا شأن النكاح عند العرب كما يفعل مثله كثير ممن كتب عن العرب فى هذه العصور الحديثة ، وبأن انتساب بعض القبائل العربية الى الأمهات لا يذكر بجانب من انتسب منهم الى الآباء وقد نسب كثير فى الاسلام الى أمهاتهم مثل محمد بن الحنفية والأمين بن زبيدة ، وبأن تأنيث القبائل لدفع الاشتباه بين قيس مثلا اسم

رجل واسم قبيلة ولا يدل على شيء من تلك الأمومة ، وبأن اشتقاق لفظ الامة من الأم بمعنى الأصل على سبيل المجاز كما يقال أم القرى وأم الكتاب ونحو ذلك فأم كل شيء أصله وعماده وكل شيء انضمت اليه أشياء فهو أم لها والأصل فى ذلك اتباع الأطفال أمهم لأنها هى التى تقوم بتربيتهم فى طفولتهم . وهذا إلى أن العرب من الأمم السامية ومن أهم ما تمتاز به هذه الأمم عنايتها بأنسابها واشتراكها فى الانتساب إلى الآباء كما هو ثابت فى التوراة وغيرها والرجل رأس الأسرة عندها وهو سيدها ولفظ البعل فى العربية يطلق على الزوج والسيد معاً .

ولا ننكر أن الأنساب العربية قد يدخلها الخطأ ولكن الذى ننكره أن تكون كلها مختلقة ، وقد أيدت النصوص اليونانية ما ذكره مؤرخو العرب عن قبائلها البائدة فيكون ما ذكروه عن قبائلها الباقية فى إجماله أولى بالصدق والقبول منها ، ولم يكن النقل وحده سند مؤرخى العرب فيما رووه لنا من أخبارهم وأنسابهم بل كان هناك آثار قديمة على الحجارة بالخط المسند فى اليمن وغيره وكان هذا الخط يقرؤه علماء العرب إلى القرن الثالث الهجرى وقد ذكر بن الكلبي أنه كان يستخرج أخبار العرب وأنسابهم وأنساب آل نصر بن ربيعة من كتبهم بالحيرة

الحالة السياسيه للعرب قبل الاسلام

تختلف الحالة السياسية للعرب قبل الاسلام باختلاف بلادهم فى المناخ والخصب وما إلى ذلك ، فكان لهم فى اليمن والعراق والشام ونجد ومكة دول متحضرة وإمارات لها ملوك ورؤساء يخضع أهلها لهم ، مثل دولة المناذرة بالعراق ، ودولة الغساسنة بالشام ، ودولة كندة بنجد ، ودولة حمير باليمن ، وإمارة قريش بمكة ، وبعض هذه البلاد كان له من خصبه ما ساعد على وجود الدولة فيه مثل الشام والعراق واليمن ، وبعضها كان له من موقعه التجارى ومركزه الدينى مثل مكة ما ساعد على وجود ذلك فيه أيضاً

وكان حكم المناذرة حكماً ملكياً مطلقاً لا يتقيد الحاكم فيه بشىء ، وكذلك حكم الغساسنة ، وحكم دولة كندة ، وحكم دولة حمير ، أما إمارة قريش فكانت ولايتها موزعة بينها هذا التوزيع : السقاية لبنى هاشم ، والراية لبنى أمية ، والرفادة لبنى نوفل ، ورياسة الكعبة لبنى عبد الدار ، والمشورة لبنى أسد ، والأشناق لبنى تيم ، والقبة والأعنة وقيادة الفرسان لبنى مخزوم ، والسفارة لبنى عدى ، والأيسار لبنى جمح ، والأموال المحجرة لبنى سهم

وكانت مملكة حمير مستقلة باليمن إلى أن استولت عليها الحبشة قبيل الاسلام ثم حاولت غزو مكة فكادت تستولى عليها لولا أن ردت عنها بآية سماوية وقد استعاد اليمن منها سيف بن ذى يزن الحميرى باعانة الفرس له ؛ فلما مات ضمت الفرس اليمن اليها إلى أن أخذه الاسلام منها

وكان ملك المناذرة بالعراق تابعاً للأكاسرة فكانوا يولون ملوكهم ويعزلون من يشاءون منهم ، وكانوا ربما يعزلون الملك منهم ويولون غيره من غير بيته كما عزل قباذ المنذر بن ماء السماء وولى مكانه الحارث بن عمرو الكندى

وكما عزل كسرى برويز النعمان بن المنذر وولى مكانه إياس بن قبيصة الطائى ، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن المناذرة لم يكونوا خاضعين للفرس ولم يكونوا يؤدون الخراج اليهم وإنما كانوا حلفاء لهم يستعينون بهم فى حروبهم

وكان ملك الغساسنة بالشام تابعاً للروم وكان نفوذهم فيه أشــد من نفوذ الفرس فى ملك المناذرة وكان الغساسنة أطوع للحضارة الرومية من المناذرة للحضارة الفارسية ، فكانت كل الدول العربية قبيل الاسلام قد اضمحل أمرها وتوغل النفوذ الأجنبي فى أجزائها وكان النفوذ الفارسى يضغط على العرب من الشرق والنفوذ الرومى يضغط عليهم من الغرب حتى أصبحت الأمة العربية وهى توشك أن تقع فريسة لحكم أجنبى ينتهى به أمرها ويقضي على ما كانت تمتاز به من لغة ودين ومعارف وعادات لولا أن تداركها الله بالاســلام فرفع من أمرها ونجاها من تلك النــكبة التى كادت تحل بها

وكان شأن العرب السياسى فى البادية أكثر فسادا منه فى الحضر وكان لـكل قبيلة من قبائلهم فى البادية رئيس أو شيخ يحكمها على حسب العرف وهو يقوم عنــدهم مقام القانون الذى يرجع اليه أهل الحضر ، ولم يكن لهم وحدة تجمعهم بل كانوا متقاطعين متفرقين يغزو بعضهم بعضا ويستحل دمه وماله وعرضه ، وربما كان يقع حلف بين عدة قبائل فتصبح تحت لواء واحد يذعنون لصاحبه وينقادون له كما انقادت قبائل بكر وتغلب لـكليب بن ربيعة وكان مستبدا بهم طاغيا عليهم فقتله جساس بن مرة فى ناقة خالته البسوس بنت منقذ التميمية وقد رآها تردمع إبله فأخذته الأنفة ورماها بسهم فى ضرعها فقتلها فانفصلت بذلك عرى الوحدة بين هاتين القبيلتين وقامت بينهما حرب البسوس أربعين سنة وكانت للعرب من هذه المنازعات الدائمة أيام

وحروب مشهورة سيأتي ذكرها

وكانت كل قبيلة تطيع رئيسها فى كل مايأمرها به ولا تراجعه فيه ، فلا يوردون إلا عن أمره ولا يصدرون الا عن رأيه فاذا حاربوا معه اختص لنفسه من الغنيمة بهذه الامور . الصفى وهو ما يصطفيه لنفسه قبل القسمة، والمرباع وهو ربع الغنيمة ،والنشيطة وهو ماأصاب فى طريقه إلى الغزو قبل أن يصل إلى من يريد غزوهم، والفضول وهو ما لا يصح قسمته على عدد الغزاة من بواقى القسمة كالبعير والفرس ، فكان يأخذ كل هذا لنفسه ولما قد يطرأ للقبيلة أو يتحمل من النفقات ، ولا ينظر بعد ذلك إلى مافى أيديهم بل يعف عنهم ويواسيهم فى الضراء ويفضل عليهم ، وكان للعرب مع هؤلاء الرؤساء حكام يقضون بينهم فى منافراتهم ومواريثهم ومياههم ودمائهم ومن هؤلاء الحكام الأفعى الجرهمى وأكثم بن صيفى والكاهن الخزاعى وكانت أحكام الكهان ونحوهم تبنى على الحدس والتخمين أو التجربة والعادة على اختلاف أمرهم فى ذلك

أشهر أيام العرب

(١) يوم خزازى : وهو اليوم الذى ثارت فيه القبائل العدنانية من ربيعة على حكامها من اليمن ، وكانت السيادة لأهل الجنوب من الحميريين والتبابعة فكانت العرب العدنانية ترى الاذعان لدولة حمير فرضا عليهم وكان حكمها فيهم حكما إقطاعيا فيأتى الرجل من حمير ومعه الكاتب وطنفسة يقعد عليها فيأخذ ماشاء من أموال نزار ولم تكن نزار قد كثرت بعد فلما كثرت قبائلها وضعف أمر هذه الدولة فى آخر أمرها لم تصبر على مظالمها وثارت عليها فاجتمعت قبائل ربيعة من بكر وتغلب تحت قيادة بطلهم كليب بن ربيعة وكان زهير بن جناب الكلبي واليا لحمير عليهم فجرت بينه وبينهم أيام وحروب كثيرة انتهت بفوزهم عليه وتخلصهم من سيادة دولة حمير عليهم فولوا عليهم كليب ابن ربيعة وأعطوه قسم الملك وتاجه

وكان يوم خزازى أول يوم امتنعوا فيه على الحميريين وهو جبل قريب من إمرة على يسار الطريق خلفه صحراء منبج ؛ فأوقدوا نارا عليه ثلاث ليال ودخنوا ثلاثة أيام ثم اشتبكوا مع أهل اليمن ففضوا جموعهم وانتصروا عليهم ، وبذلك يفتخر عمرو بن كلثوم فى معلقته :

ونحن غداة أوقد فى خزاز رفدنا فوق رفد الرافدينا
فكنا الأيمنين إذا التقينا وكان الأيسرين بنو أبينا
فصالوا صولة فيمن يليهم وصلنا صولة فيمن يلينا
فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا .

(٢) حرب البسوس . وكانت بين بكر وتغلب ، وكان سببها أن كليبا بعد أن جعله قومه ملكا عليهم دخله زهو شديد فتجبر وبغى حتى كان يحمى مواقع

السحاب فلا يرعى حماه وضربت العرب بعزته المثل فقالوا «أعز من كليب» واتفق أن مرت إبل له إلى موردها بناقة البسوس بنت منقذ التميمة فنازعت عقالها حتى قطعته ووردت معها الماء فرآها كليب فرمى ضرعها بسهم فراحت ترغو إلى صاحبتها فخرجت إلى جساس بن مرة وكانت خالته فأحمسته بكلامها حتى خرج الى كليب وهو غار فقتله، ووقعت الحرب بسبب ذلك بين تغلب قوم كليب، وبكر قوم جساس، ومكثت بينهم أربعين سنة، وقد نهض للاخذ بثأر كليب أخوه عدى بن ربيعة الملقب بالمهلهل فأسرف فى طلب ثأر أخيه إسرافه قبل ذلك فى لهوه حتى كان يلقب زير نساء، وكان الحارث بن عباد البكرى قد انقبض عن هذه الحرب وأعظم قتل كليب فلما رأى سوء أثرها فى الحيين أرسل ابنه بجيرا إلى المهلهل ليقتله بأخيه ويصلح بين الحيين، أو يطلقه ويصلح ذات البين، فقتله عدى وقال له: بؤ بشسع نعل كليب، فقال له الغلام: إن رضيت تغلب رضيت، فغضب الحارث حين بلغه أن عديا قتل ابنه بشسع نعل أخيه ونهض لحرب تغلب مع قومه حتى أوقع بها فى يوم قضة وهو يوم تحلاق اللمم الذى تغنت به شعراء بكر وقد أسر فيه الحارث مهلهلا وكان لا يعرفه ثم أطلقه بعد أن جز ناصيته

(٣) حرب داحس والغبراء: وكانت بين عبس وذبيان، وكان داحس والغبراء فرسين لقيس بن زهير سيد بنى عبس فراهنه عليهما حذيفة بن بدر سيد فزارة بفرسيه الخطار والحنفاء فأعدوا معدات السباق وأضمر حذيفة الغدر فأقام رجلا فى الطريق وأمره أن يلقى داحسا فى وادى ذات الاصاد فاذا وجده سابقا رمى به فى أسفل الوادى ففعل ما أمره به وقامت الحرب بسبب ذلك بين عبس وذبيان سنين طويلة ومن أشهر أيامها يوم جفر الهباءة، والجفر البئر

الواسعة وفيه قتل قيس حذيفة وحمل ابني بدر فعظم قتلهما على النـاس بل عظم على قاتلهما قيس بن زهـير فقال يرثي حملا ومن قتل معه في ذلك اليوم :

تعلم أن خير الناس ميت على جفر الهباءة لايريم
ولولا ظلمه مازلت أبـكي عليه الدهر ماطلع النجوم
ولـكن الفتى حمل بن بدر بغى والبغي مرتعه وخيم
أظن الحلم دل على قومي وقد يستجهل الرجل الحليم

(٤) يوم ذي قار : وهوماءقريب من البصرة ويمتاز هذا اليوم على غيره من أيامهم بأن حروبها كانت داخليةسيئة الأثرفيهم أما يوم ذي قار فـكانت الحرب فيه بينهم وبين الفرس وقد انتصروا فيه عليهم فعظم بذلك شأنه بينهم وكان بعد مبعث النبي ﷺ فأخبر به أصحابه في بعض أحاديثه (إن هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبي نصروا) وكان سببه أن كسرى استقدم اليه النعمان بن المنذر بالمدائن ثم غدر به وقتله وكتب إلى إياس بن قبيصة يأمره أن يضم ما كان له من ودائع عند بني شيبان فأبوا ذلك وناصرتهم قبائل بكر فقامت هذه الحرب بينهم وبين الفرس ومن ناصرهم من بعض العرب

(٥) حروب الفجار : وهو أربعة أيام : الفجار الأول بين كنانة وهوازن، والفجار الثاني بين قريش وهوازن ، والفجار الثالث بين كنانة وهوازن، والفجار الرابع وهو بين قريش وكنانة كلها وهوازن، وكان أهم الاربعة وسببه أن النعمان بن المنذر كان يبعث كل عام إلى سوق عكاظ لطيمة في جوار رجل من أشراف العرب فجهز في عام تلك اللطيمة ثم طلب من يجيرها فقال البراض بن قيس الـكناني أنا أجيرها على بني كنانة ، فقال النعمان ماأريد إلا رجلا يجيرها

على أهل نجد وتهامة ، فقال عروة الرحال بن عتبة بن جعفر بن كلاب سيد هوازن . أنا أجيرها لك على أهل الشيح والقيصوم فى أهل نجد وتهامة ، فدفعها النعمان إليه ولم يدفعها إلى البراض فخرج بها عروة وتبعه البراض حتى عدا عليه فى الطريق فقتله فقامت هوازن تطالب به سيدا من قريش ولم يرضها البراض فيه لأنه لم يكن من ذوى الشرف فى قومه وكانت أيام هذا الفجار خمسة فى أربع سنين وقد شهدها النبي ﷺ وهو ابن أربع عشرة سنة وإنما سميت الفجار لأنها وقعت فى الأشهر الحرم وكانوا يتناهون فيها عن الثأر والحرب

(٦) حرب الأوس والخزرج : وهى حروب كثيرة نشأت بين هذين الحيين بعد ظهور شأنهم على اليهود بيثرب وأقدم هذه الحروب حرب سمير وآخرها يوم بعاث وكان قبل الهجرة بخمس سنين وقد انضم فيه بنو قريظة وبنو النضير من اليهود الى الأوس وانضم بنو قينقاع منهم الى الخزرج وقامت الحرب فيه بين الفريقين ورئيس الأوس حضير الكتائب الأشهلى ورئيس الخزرج عمرو بن النعمان البياضى فانهزم الخزرج وظفر الأوس بهم وأصاب رئيسهم حضير الكتائب جراحات شديدة مات متأثرا بها بعد ذلك اليوم فقال خفاف بن ندبة يرثيه : —

أتانى حديث فكذبته ... وقيل خليلك فى المرمس
فياعين بكى حضير الندى ... حضير الكتائب والمجلس
ويوم شديد أوار الحديـــد ... تقطع منه عرا الأنفس
فأودى بنفسك يوم الوغى ... ونقى ثيابك لم يدنس

﴿ دولة المناذرة بالحيرة ﴾

(١) الحيرة : كانت الحيرة عاصمة المناذرة وهى على ثلاثة أميال من الكوفة فى موضع النجف على ضفة الفرات الغربية ، ولفظها سريانى معناه الحصن أو المعقل حوله الخندق ، وقيل معناه مضرب الخيم لأنها فى الأصل كانت مضارب خيام ، وكان أهلها ينقسمون الى ثلاثة أقسام : أولها التنوخيون من بقايا العرب الذين كانوا مع مالك بن فهم وجذيمة الأبرش ، وثانيها العباد وهم نصارى الحيرة وكانوا من قبائل شتى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية النسطورية وكان لهم شأن فى تاريخ العراق قبل الاسلام وبعده وكانت بيعتهم فى الحيرة من أكبر البيع وقد تولاها عدة أساقفة منهم وزاد شأنها ارتفاعا بعد تنصر المناذرة ، وثالثها الأحلاف وكانوا شعوبا مختلفة من الفرس والروم وغيرهم

وكانت الحيرة مدينة عظيمة وأما لقرى مخصبة تتواتر من العراق إلى الشام وقد اشتهرت بجودة هوائها حتى قالوا (يوم وليلة فى الحيرة خير من دواء سنة) وقال عاصم بن عمرو

صبحنا الحيرة الروحاء خيلا ورجلا فوق أثباج الركاب
حضرنا فى نواحيها قصورا مشرفة كأضراس الكلاب

وكان قصر الخورنق على نحو ميل منها الى الشرق وكان قصر السدير فى البادية مما يلى الشام

(٢) أصل المناذرة : المناذرة أو آل نصر أو آل لخم على مايذكره مؤرخو العرب من العرب القحطانيين الذين هاجروا من اليمن بعد حادثة سيل العرم

وكانت الحيرة قد بقيت خرابا بعد موت بختنصر وانضمام العرب الذين أسكنهم فيها إلى أهل الأنبار ثم أقبل عليها قوم من تهامة مع مالك بن فهم القضاعى فى جماعة من الأزد وجماعة من أولاد معد وبطون من لخم فتحالفوا على التنوخ وهو المقام وتعاقدوا على التوازر والتناصر وضمهم بذلك اسم تنوخ وملك عليهم مالك بن فهم وهو من قضاعة وملك بعده جذيمة الأبرش صاحب الزباء وقصتهما معروفة ، وكان له ابن أخت من لخم يسمى عمرو بن عدى فلماقتلت الزباء جذيمة قام عمرو بالملك بعده واحتال حتى أخذ بثأر خاله على يد وزيره قصير وابتدأ به فى الحيرة عهد المناذرة آل نصر من لخم

ويذهب بعض مؤرخى عصرنا الى أن المناذرة ليسوا من القحطانيين أهل الجنوب وانما هم من عرب الشمال العدنانيين لموافقة لغتهم لهم وقد عرفت أن هذا لا يقدح فى نسبهم القحطانى ، وأغرب من هذا ما يرجحه بعض علماء الأدب (١) من أنهم كانوا هم والغسانيين نبطا لا يمنيين ولا عربا خلصا وأنه كان لهم شعر وآداب باللغة النبطية ، فليت شعرى أين شعرهم هذا النبطى ؟ وأين آدابهم النبطية ؟ وقد كان شعراؤهم من العرب ومن قاب البادية مثل النابغة وقد وصل الينا شعر عدى بن زيد من أهل الحيرة فى لغة عربية مبينة، ولا ننكر أن لغة أهل الحيرة كانت متأثرة بالشعوب المختلفة التى أقامت بها وأن هذا كان سببا فى اهمال علماء الأدب الرواية عن أكثر شعرائها ، ولكن هذا لا يخرجها عن العربية إلى النبطية ، ولو كان المناذرة والغسانيون من النبط مادان لهم العرب ولا اعترفوا بسيادتهم عليهم وقد كانوا يتبرءون من النبط قبل الاسلام وبعده ويحتقرونهم ولا يختلطون بهم

(١) هو الأستاذ أحمد أمين فى كتابه (فجر الاسلام)

(٣) أشهر ملوكها : كان تاريخ المناذرة مثبتا فى كتبأنسابهم وأشعارهم وفيها أنسابهم وأخبارهم ومبالغ أعمار من ولى منهم للأكاسرة وقد عول مؤرخو العرب على هذا فى تدوين أخبار هذه الدولة وان بالغوا فى مدة حكم بعض ملوكهم كعمرو بن عدى فقد جعلوا مدة حكمه ١١٨ سنة وقد أوصلوا بهذا مدة حكمهم الى ٦٢٣ سنة والحقيقة أنها كانت نحو ٣٦٤ سنة ما بين أوائل القرن الثالث الميلادى الى الفتح الاسلامى حكم فيها منهم ٢٢ ملكا . ومن أشهر ملوكهم :

«١» النعمان بن امرىء القيس : وهو الملقب بالسائح وقد حكم ٢٨ سنة (٤٠٣ — ٤٣١ م) وكان ملكا شديدا مهيبا ذا نفوذ واسع وغزوات كثيرة وقد جعل له ملك فارس كتيبتين : يقال لأحدهما دوسر وهى من العرب ، وللثانية الشهباء وهى من الفرس ، وبلغ من نفوذه أنه لما اضطرب أمر الفرس بعد موت يزدجرد الأول تعصب لبهرام جور بن يزدجرد حتى تسنى له الملك ومن آثاره الخورنق والسدير وغيرهما من القصور ويقال أنه تنصر فى آخر حياته وتنسك وترك الملك وساح فى الأرض كما يشير الى ذلك عدى بن زيد فيما يخاطب به النعمان بن المنذر

وتدبر رب الخورنق إذ أشـ   ـرف يوما وللهدى تفكير
سره حاله وكثرة ماء   لك والبحر معرضا والسدير
فارعوى قلبه وقال وما غبـ   ـطة حى إلى الممات يصير

«٢» المنذر الثالث : وهو المنذر بن امرىء القيس وأمه ماء السماء ماوية بنت عوف وقد حكم ٣٢ سنة « ٥١٤ — ٥٤٦م » وهو أشهر ملوك المناذرة وقد عاصر من الأكاسرة قباذ وأنوشروان ، ومن القياصرة يوستيانوس ،

ومن الغساسنة الحارث بن جبلة ، وكانوا كلهم من كبار الملوك وكان قد ظهر في عهد قباذ مذهب مزدك الاشتراكي فاعتنقه قباذ وكان أعيان الفرس في أيامه قد جمعوا أموالا كثيرة فأراد قباذ أن يشاركهم فيها ويستبيح بهذا المذهب أموالهم ونساءهم فتعصب له ودعا اليه رجال دولته فأبى المنذر هذه البدعة وأبى أن ينقاد فيها لقباذ فعزله عن الحيرة وولى عليها الحارث بن عمرو ملك كندة فاختبأ المنذر إلى أن تولى أنوشروان وكان على غير رأي أبيه في المزدكية فأبطلها وأعاد المنذر إلى الحيرة ، وقد حارب المنذر الروم مع كسرى مرتين وكان كل مرة يعود منصورا بغنائم وأموال عظيمة ، والمنذر فيما يقال صاحب الغريين (١) ويومي البؤس والنعيم وذلك أنه كان له نديمان من بني أسد فشرب ليلة معهما فراجعاه الكلام فأغضباه فأمر بهما فقتلا فلما أصبح وصحا سأل عنهما فأخبر بأمرهما فندم وأمر ببناء الغريين عليهما وجعل لنفسه في كل سنة هذين اليومين فكان يضع فيهما سريره بين الغريين فأول من يطلع عليه في يوم نعيمه يعطيه مائة من الابل وأول من يطلع عليه في يوم بؤسه يأمر بذبحه ويطلي الغريين بدمه وما زال على ذلك إلى أن طلع عليه في يوم بؤسه من يعز عليه قتله فهدم الغريين وأبطل اليومين معاً ؛ وقد قتل في يوم عين أباغ وهو يوم كان بينه وبين الحارث بن جبلة

«٣» عمرو بن هند : وهو عمرو بن المنذر بن امرىء القيس وأمه هند بنت الحارث عمة امرىء القيس الشاعر وكانت نصرانية فنشأ نصرانياً مثلها وقد حكم ١٥ سنة « ٥٦٣ — ٥٧٨م » وكان شديد السلطان عظيم الهيبة قد جعل الدهر يومين (يوما للصيد ويوما للشرب) فاذا جلس يشرب في يوم شربه

(١) بناءان كانا بالقرب من الحيرة .

أخذ الناس بالوقوف على بابه حتى يرتفع مجلس شرابه وفى ذلك يقول طرفة يهجوه:

فليت لنا مكان الملك عمرو رغوثا (١) حول حجرتنا تخور
قسمت الدهر فى زمن رخى كذاك الدهر يعدل أو يجور
لنا يوم وللكروان(٢) يوم تطير البائسات ولا نطير
فأما يومهن فيوم سوء تطاردهن بالخسف الصقور
وأما يومنا فنظل ركباً وقوفا لانحل ولا نسير

وقد أخذ الأدب العربى ينهض من عهد هذا الملك فكثر وفود الشعراء عليه ومدحهم له وكان يقربهم منه ويجزل عطاءهم ومما يذكر من مآثره إصلاحه بين بكر وتغلب فى حرب البسوس التى كادت تبيدهما وقد انتهى أمره بقتل عمرو بن كلثوم له حينما أراد أن يخدم أمه ليلى أمه هندا

« ٤ » النعمان بن المنذر : وكان معاصر الهرمز الرابع وكسرى أبرويز وقد حكم من (٥٨٥ — ٦١٣ م) وبلغت دولة المناذرة فى عهده غاية رفعتها وزها الأدب العربى فى عصره وكثر عدد قصاده من الشعراء ومنهم النابغة الذبيانى شاعر دولته وكان عدى بن زيد الشاعر هو الذى تولى تربيته فكان لهذا أثره فى عظمته وميله إلى الشعر والأدب وقد احتال له عدى عند كسرى بعد موت أبيه المنذر حتى ولاه الملك من بين إخوته فكان النعمان يكرمه ويحفظ له هذا الجميل الى أن أغراه عليه بعض أصحابه فسجنه فلما بلغ كسرى سجنه بعث الى النعمان يأمره باطلاقه فقتله فى السجن قبل أن يصل اليه رسوله فكان هذا سبباً فى قتل كسرى له وخروج ملك الحيرة من المناذرة الى اياس ابن قبيصة الطائى فأحد قواد الفرس فالمنذر بن النعمان الذى كانت العرب تسميه

(١) الرغوث كل مرضعة (٢) الحجل أو الكركى

المغرور وقد أسر فى حرب الردة فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه .

دولة الغساسنه بالشام

١) نشأتهم : الغساسنة أوآل جفنة نسبة الى أول ملوكهم جفنة بن عمرو مزيقياء قوم من أزد اليمن هاجروا منها بعد حادثة سيل العرم فنزلوا بتهامة على ماء يقال له غسان فنسبوا اليه ثم انتقلوا منه الى مشارف الشام وكان فيها ملك للضجاعمة من قضاعة فأقاموا بجوارهم على اتاوة يدفعونها لهم ثم غلبوهم على تلك البلاد وأقاموا لهم فيها امارة صغيرة ابتدأت فى أواسط القرن الثانى أو الثالث الميلادى وما زالت كذلك حتى احتاج الروم اليها فى محاربة الفرس فاستخدموا أمراءها فى ذلك ومنحوهم لقب (ملك) فعلا شأن دولتهم بمحالفة الروم وارتفع أمرها ودان لهم كثير من العرب وتصدهم الشعراء للمدح والعطاء وممن قصدهم النابغة الذبيانى وحسان بن ثابت ولكن أثرهم فى الأدب العربى كان دون أثر المناذرة لأن هؤلاء كانوا أقرب إلى بداوة العرب ودينهم من الغساسنه وكانوا نصارى مثل الروم حلفائهم وكانت عاصمتهم بصرى فى حوران وفيها كان دير بحيري الراهب وتعرف أنقاضها الآن بأسكى شام وقد شاد الغسانيون كثيرا من القصور والأديار وأنشئوا المدن والقرى وبنوا القناطر وأصلحوا الصهاريج ومما ينسب بناؤه إليهم من المواضع أو البلاد (قسطل) بالبلقاء وفيه يقول كثير :

سقى الله حياً بالموقر دارهم ... إلى قسطل البلقاء ذات المحارب

ومن قصورهم صرح الغدير والقصر الأبيض والقلعة الزرقاء وغير ذلك من آثارهم

وأما عدد ملوكهم فقد أوصله حمزة الاصفهانى إلى ٣٢ ملكا حكموا نحو

٦٠٠ سنة وقد وافقه أبو الفداء فى عدد الملوك دون مدة حكمهم فجعلها ٤٠٠ سنة وهو الأقرب إلى التحقيق لأن ابتداء إمارتهم لا يصل إلى هذا الحد البعيد وذهب الأستاذ (نولدكى) الألمانى إلى أن عدد ملوكهم لا يتجاوز عشرة ملوك وإلى أن حكمهم لم يبدأ إلا فى أواخر القرن الخامس الميلادى وهو فى ذلك متأثر بما كتبه مؤرخو الروم عنهم وهم لم يعرفوا شيئاً من أمرهم إلا حين اتصالهم بدولتهم ومنحها لقب الملك لهم ومؤرخو العرب أدرى بأمرهم قبل ذلك منهم

٢) أشهر ملوكهم :

« ١ » الحارث الأكبر : وهو الحارث بن جبلة أو ابن أبى شمر وقد حكم من (٥٢٩ — ٥٦٩ م) فى عهد جستنيان قيصر الروم وقد جعل هذا القيصر الحارث زعيما على جميع القبائل العربية بالشام ومنحه لقب (بطريق) وكان أعظم لقب عندهم بعد لقب الامبراطور واستعان به فى حرب كسرى أنوشروان حينما أغار على بلاد الروم وكانت هذه الحرب سببا لحروب طويلة بين المناذرة والغساسنة ومن أيامهم فى تلك الحروب يوم عين أباغ الذى قتل فيه الحارث المنذرين ماء السماء واستولى على قنسرين

وقد زار الحارث القسطنطينية فى آخر أمره ليعرض على قيصرها تولية ابنه المنذر من بعده فراع أهلها منظره وكان قد سبقته إليهم أحاديث قوته وشجاعته حتى كان أهلها يخوفون أبناءهم به وقد بلغت دولة الغساسنة فى عهده غاية عظمتها ولم يجتمع على باب ملك فى عصره من الشعراء مثل ما اجتمع على بابه وهو الذى وصل امرأ القيس الشاعر إلى قيصر القسطنطينية ليستنجد به على المناذرة وبنى أسد قتله أبيه

«٢» المنذر بن الحارث : وقد خلف أباه على الملك عند مؤرخى الروم

ومؤرخو العرب لا يعرفون ابناً للحارث اسمه المنذر وإنما هو عندهم ابن ابنه جبلة وقد سلك مسلك أبيه فى مساعدة الروم ومحاربة المناذرة ثم عدى على الروم وارتابوا به فى آخر أمره فاحتالوا عليه حتى أخذوه إلى القسطنطينية وقطعوا الوظائف التى كانت تعطى للغساسنة فثار بنوه لأجله وأغاروا على بلاد الروم وعمت الفوضى بادية الشام وضعف أمر الغساسنة من ذلك الحين فلما فتح الفرس الشام قضوا على ما كان بقى لهم فيها ولما نهض هرقل لاسترجاعه من الفرس ظهر من الغسانيين جبلة بن الأيهم وهو آخر ملوكهم وقد أسلم فى خلافة عمر رضى الله عنه ثم عاد إلى النصرانية ولحق بالقسطنطينية

دولة كندة بنجد

١) نشأتهم : كندة بطن من كهلان كانت تسكن البحرين والمشقر (١) ثم أخرجت منهما إلى حضرموت فى بلد يعرف باسمها كندة فأقامت فيها ماشاء الله ثم نزحت إلى مهرة وكانت تابعة للحميريين فأقامت فيها على رفاق معهم وكانوا يستخدمون كبارها فى بعض مصالحهم ويدخلونهم فى حاشيتهم أو بطانتهم فلما كان عهد حسان بن تبع ملك حمير كان حجر بن عمرو سيد كندة أخاه لأمه فولاه قبائل معدكلها وكانت بنبذ ربادية العرب فقدم حجر إلى نجد ونزل بطن عاقل وكان اللخميون قد ملكوا كثيرا من تلك البلاد فاستخلصها منهم واجتمعت كلمة تلك القبائل عليه وهناك أقوال غير ذلك فى نشأتهم

٢) أشهر ملوكهم :

«١» الحارث بن عمرو : وكان مثل جده حجر منشىء دولة كندة فى بعد همته وقوة ملكه واتساع مطامعه وكان الأحباش قد فتحوا اليمن وأذهبوا

(١) حصن بالبحرين

دولة حمير وكانت دولة كندة تنتمى إليها فتوجه الحارث نحو المناذرة وكان يحسدهم على قربهم من الأكاسرة فلما تغير قباذ على المنذر بن ماء السماء بسبب المزدكية وافق الحارث قباذ عليها فعزل المنذر عن الحيرة وولاه عليها فعظم شأنه ووفد عليه رؤساء بنى معد يهنئونه ويتقربون إليه بالطاعة وطلبوا منه أن يولى عليهم من أبنائه من يحكمهم ففرق فيهم أربعة من أولاده : حجرا على بنى أسد وغطفان وكنانة ، وشرحبيل على بكر كلها ، ومعديكرب على قيس عيلان ، وسلمة على تغلب والنمر بن قاسط . ولم يطل سلطان الحارث على الحيرة فما هو إلا أن مات قباذ وتولى أنوشروان حتى عزله عنها وأعاد المنذر إليها وفر الحارث إلى بنى كلب فقتل هناك فى بلادهم

«٢» حجر بن الحارث : وكان ملك بنى أسد وله عليهم إتاوة يتقاضاها منهم كل سنة فأرسل إليهم سنة وهو بتهامة من يجبيها منهم فأبوا ذلك وطردوا رسله وضربوهم فسار إليهم وأعمل السيف فيهم وجعل يقتلهم بالعصا حتى سموا عبيد العصا ثم أخذ رؤساءهم وصيرهم إلى تهامة وآلى ألا يساكنوه فى بلد أبدا فخرجوا فلما ساروا ثلاثا استعطفه عليهم عبيد بن الأبرص بقصيدة يقول فيها ،

إما تركت تركت عفوا أو قتلت فلا ملامه

أنت المليك عليهم وهم العبيد إلى القيامه

فعطف عليهم واستردهم ولكنهم لم يخلصوا له فقتلوه وقام ابنه امرؤ القيس الشاعر بطلب ثأره فجرت بينه وبينهم حروب كثيرة وضعف أمر كندة بعد ذلك وبقيت منها بقايا إلى ظهور الاسلام فذهبت جميعها

دولة حمير باليمن

١) نشأتها : تاريخ دولة حمير باليمن مضطرب الرواية لا يكاد يتفق مؤرخ مع آخر فيه وقد قال ابن خلدون في كلامه عليه (وفى أنساب التبابعة تخليط واختلاف لا يصح منها ومن أخبارها إلا القليل) ومع هذا كان من مؤرخى العرب من كتب فيه عن خبرة كالهمدانى صاحب كتاب الاكليل . وكان يقرأ المسند ويفهمه ويأخذ منه أخبار تلك الدولة مما بقي منه فى آثارها. وتنسب هذه الدولة إلى حمير بن سبأ ويسمى عصرها العصر السبئى وكانت اليمن محكومة قبلهم بدولة معين التى كشفت أطلالها فى هذا العصر وعرف منها كثير من أخبار تلك الدولة التى ورد ذكرها فى كتب اليونان ولم يذكر العرب شيئاً عنها ولعلها عندهم من العرب البائدة وقد عاش السبئيون بجوار المعينيين حيناً من الدهر وهم من قبيل الاذواء أصحاب القصور والمحافد إلى أن ظهر فيهم سبأ صاحب قصر صرواح شرقى صنعاء وكان قويا طامعا فقضى على دولة المعينيين وجعل من اليمن مملكة واحدة عاصمتها صرواح ثم مأرب «سبأ» وغيرها

وينقسم العصر السبئى إلى قسمين: العصر السبئى الأول(٨٥٠—١١٥ق م) والعصر الحميرى (١١٥ — ٥٢٥ ب م) والحميريون فرع من السبئيين وحمير عند مؤرخى العرب من أبناء سبأ ويمتاز العصر الأول عن الثانى بأن دولة اليمن فى الأول لم تكن دولة فتح وكان حاكمها يسمى « مكرب سبأ »ثم سمى ملك سبأ أما العصر الثانى فكان عصر فتح وقوة وعظمة لليمن وكان الملك فيه يسمى «ملك سبأ وريدان »وكان ريدان محفدا من محافدهم الكبرى سمى بعد ذلك ظفار فلما ضمت حضرموت وغيرها إلى دولة اليمن قالوا « ملك سبأ وريدان وحضرموت وغيرها»

ومؤرخو العرب يقسمون الدولة السبئية أو الحميرية إلى طبقتين : طبقة

الملوك وطبقة التبابعة ولا يكاد هـذا يختلف فى شىء عن التقسيم السابق وهم يقولون إن الملك لم يزل فى ولد حمير لا يعد رماسكهم اليمن حتى مضت قرون وصار الملك إلى الحارث الرائش فملك مع اليمن الشحر وحضرموت وكانت دولة حمير قبله شطرين أحدهما فى سبأ والآخر فى حضرموت فجعلهما مملكة واحدة وسمى بذلك تبعا وهو أول التبابعة ولم يكن الملك منهم يسمى تبعاً حتى يملك اليمن والشحر وحضرموت فاذا لم يملكها كلها سمى ملكا فقط

وقد انقضى عهد سبأ بسيل العرم الذى ذكر فى القرآن الكريم وكانت دولة سبأ دولة تجارية خلفت دولة معين فى نقل التجارة بين الهند والحبشة ومصر والشام والعراق حتى أصبحت فى القرون الأولى قبل الميلاد واسطة الاتصال بين تلك الأمم فزهت بلادهم واتسعت ثروتهم واحتفروا الأنهار وبنوا السدود وشادوا القصور واغترسوا الحدائق وغير ذلك مما نوه القرآن الكريم ببعضه (لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . الآيات) ثم تحول طريق التجارة فى القرن الأول الميلادى فيما يظن إلى البحر فأخذت فى الضعف كما حصل مثل ذلك فى مصر على عهد المماليك حينما تحول عنها طريق الهند وكشفت (رأس الرجا الصالح) فعجزت سبأ عن حفظ سدودها وكان أعظمها سد مأرب فتصدع بنيانه وحدث من انفجار مائه ذهاب تلك الدولة وقيام دولة التبابعة أصحاب ريدان وهى قريبة من البحر فى جهة الجنوب فنابوا أهل سبأ على مدينتهم أو اتحدوا معهم فى مملكة واحدة كان يقيم ملوكها طورا فى مأرب وطورا فى ريدان ثم اقتصروا على الاقامة فى ريدان وحدها ولا يزال نحو ثلث السد قائما وقد عثر فى أنقاضه على نقوش كتابية عرف منها اسم بانيه وأهمها نقشان نص أحدهما (إن يثعمر بيين بن سمهعلى ينوف مكرب سبا خرق جبل بلق و بنى مصرف رحب

لتسهيل الرى » ونص ثانيهما « إن سمعهلى ينوف بن ذمر على مكرب سبا اخترق باق وبنى رحب لتسهيل الرى » فيكون أول من أسس هذا السد هو سمعهلى وابنه يثعمر وقد ماـكا فى القرن الثامن قبل الميلاد ولـكنهما لم يتمكنا من إتمامه فأتمه من أتى من الملوك بعدهما وبنى كل ملك منه جزء انقش اسمه عليه وأما تهدمه فقد حدث حوالى تاريخ الميلاد وقيام الدولة الحميرية الثانية وقد رمم بعد ذلك وكان يتهدم ثم يرمم إلى أن رممه أبرهة الحبشى حين تهدم جزء منه فى عهده ونقش ذلك عليه وكان آخر تهدمه قبيل ظهور الإسلام فى آخر عهد تلك الدولة واضطراب أمر اليمن فأهملوه ولم يرمموه

٢) نظام حكمها : كانت اليمن تقسم إلى محافد وكل محفد يقسم إلى قصور والقصر كالحصن أو القلعة يحيط به سور ويقيم فيه شيخ أو أمير يحف به الأعوان والحاشية والخدم ويشبه هذا نظام الاقطاع فى الحكومات وكان صاحب كل محفد أو قصر يعرف بلفظ « ذو » مضافا إلى محفده أو قصره وربما كانت تجتمع عدة محافد يتولى شؤونها أمير واحد يعطى اسم « قيل » ويسمى مجموع المحافد مع ما يلحقها من القرى والمزارع باسم «مخلاف(١) » وينسب المخلاف إلى أكبر محافده أو إلى المحفد الذى يقيم القيل فيه وقد يتحول القصر أو المحفد بعد ذلك إلى مدينة كبيرة . وكانت دولة حمير فى أول أمرها محفدا من تلك المحافد ثم تغلبت على غيرها من المحافد وبقى لـكل محفد فيها نظامه واستقلاله الداخلى وكان الأقيال عند ضعف الدولة يتغازون ويتنازعون ويغير بعضهم على بعض وربما كانت عند قوتها تقضى على سلطانهم وتستقل وحدها بالحكم

٣) أشهر ملوكها : اختلف مؤرخو العرب فى عدد هؤلاء الملوك وترتيبهم ومقدار مدة حكمهم اختلافا كثيرا وقد ذكر حمزة الاصفهانى ٢٦ ملكا فى ألفين وعشرين سنة وذكر ابن خلدون أكثر من ثلاثة آلاف سنة وبعضهم يذكر

(١) كورة

بعض ملوك الطبقة الثانية فى الأولى ومنهم من يذكر بعض ملوك الطبقة الأولى فى الثانية إلى مبالغات كثيرة فى مدة حكم بعضهم حتى قالوا عن (أسعد أبو كرب) إنه عاش ٣٢٠ سنة وكذا بالغوا فى فتوحاتهم حتى جعلوها تصل شرقا إلى بلاد الترك والصين وغرباً إلى شمال أفريقية وشمالا إلى بلاد الروم والقسطنطينية مع أن هذه الفتوحات العظيمة لا يذكرها غيرهم من مؤرخى الأمم الأخرى خصوصاً الأمم التى قيل أنهم فتحوا بلادها ولم يعثر إلى الآن على نصوص حميرية تؤيد تلك الفتوح ولعل هذه المبالغات فى أمر هذه الدولة لم تنشأ إلا بعد الاسلام حينما ظهر أمر العدنانيين واشتدت العصبية بينهم وبين قبائل اليمن وقامت المفاخرات بينهم فذهبت بأهل اليمن هذه المذاهب البعيدة فى ملوكهم وأخذها عنهم بعض المؤرخين بلا تمحيص وقد ذكرنا فيما سبق أن ابن خلدون قال انه لا يصح منها إلا القليل ولا تخلو أمة من مؤرخين لا يعنون بتمحيص الأخبار. ومن أشهر ملوك هذه الدولة.

«١» الحارث الرائش : وهو أول الملوك التبابعة وقد اجتمع له ملك اليمن كله ويقال إنه بلغ فى غزواته بلاد الهند والترك

«٢» أفريقس بن أبرهة : وهو الرابع من التبابعة ويقال إنه غزا بلاد المغرب وأنشأ بها مدينة أفريقية (تونس)

«٣» بلقيس بنت هدهاد : وهى السابع من التبابعة وكانت فى عصر سليمان عليه السلام وقد قص القرآن الكريم ما جرى لها معه

«٤» شمر يرعش : وهو التاسع من التبابعة ويقال إنه ذو القرنين المذكور فى القرآن الكريم

«٥» تبع بن حسان : وهو التاسع عشر من التبابعة وقد غزا يثرب وأخذ معه حبرين من اليهود إلى اليمن ثم مال إلى اليهودية فدان بها وأدخلها فى اليمن

وهو الذى عقد الحلف بين اليمن وربيعة

«٦» ذو نواس : وهو السادس والعشرون من التبابعة وقد تعصب لليهودية وفرضها على أهل اليمن فأبى عليه ذلك نصارى نجران فشق لهم أخاديد فى الأرض فأحرقهم فيها ويقال إن قوله تعالى فى سورة البروج (قتل أصحاب الأخدود . الآيات) نزل فى ذلك فيكون دليلا على أن القرآن الكريم لايقر مثل هذه الاضطهادات الدينية فاستغاث نصارى نجران بملك الحبشة وكان نصرانياً فكتب إلى قيصر الروم فأعانه على غزو اليمن فغزاها وحارب ذا نواس حتى ألجأه إلى البحر فغرق فيه ودخلت اليمن بذلك فى حوزة الحبشة وتولاها أبرهة الحبشى فمكث فيها إلى أن غزا مكة وأراد هدم الكعبة فجرى له فيها ماقصه الله تعالى فى سورة الفيل ثم ظهر بعد ذلك سيف بن ذى يزن الحميرى فذهب الى كسرى أنوشروان فاستنجد به على الحبشة فأنجده بجيش سار به حتى أخرج الحبشة من بلاد آبائه واستولى عليها بعد أن مكثت فى يد الحبشة نحو سبعين سنة وكان يؤدى خراجا لكسرى كل عام وقد ضم الفرس اليمن بعده اليهم وتولاها ولاتهم إلى أن أخذها الاسلام منهم

امارة قريش بمكة

١) مكة : أرجح الأقوال فى اسم مكة أنه أشورى أو بابلى لأن «مكا» فى البابلية « البيت » وهو اسم الكعبة عند العرب ولعلها سميت بذلك من عهد العمالقة سكانها الأقدمين وكانوا قد هاجروا إليها من بين النهرين فسموها بذلك لامتيازها بالبناء الحجرى عما يحيط بها من البادية ثم خلفت العمالقة عليها جرهم الثانية من العرب العاربة

وتمتاز مكة بوجود الكعبة المشرفة بها وهى قديمة العهد بها ولعلها أقدم

من عهد اسماعيل وأبيه ابرهيم ولعل بناءها لها لم يكن أول بناء فيها وكانت العرب من قديم الزمان وبعض أمم أخرى تشترك فى احترام الكعبة وتقديسها وقد ذكر ذلك ديودورس الصقلى فى القرن الأول قبل الميلاد فى كلامه عن النبطيين فقال (ووراء أرض الأنباط بلاد بنى زومين وفيها هيكل يحترمه العرب كافة احتراما كثيرا) ويريد ببنى زومين جرهم أو غيرها من قبائل العرب التى تولت أمر الكعبة وقد يكونون قوما لم يذكرهم مؤرخو العرب

وكانت مكة مجتمعاً عظيما للحج والتجارة وقد اشتغل أهلها بنقل التجارة بين الشام واليمن فأثروا وعظم شأنهم وكان بها من الأسواق سوق عكاظ وسوق ذى المجاز وسوق مجنة يقصدها العرب كل سنة للتجارة والمفاخرة وإنشاد الشعر وكانت سوق عكاظ فى النصف من ذى القعدة وسوق ذى المجاز بعد عكاظ من أول ذى الحجة إلى الثامن منه وسوق مجنة فى أواخر ذى القعدة

١) إمارتها : كانت إمارة قريش بمكة فى أصلها إمارة دينية أكثر منها مدنية فاذا أراد الباحث أن يعرف السبب فى أن هذه الامارة لم يكن لها ملوك مثل ما كان لدولة حمير باليمن ودولة المناذرة بالعراق ودولة الغساسنة بالشام ودولتى الفرس والروم فالسبب فى ذلك أن هذه الامارة لم تكن دولة بالمعنى الذى يفهم من هذه الكلمة وإنما كانت رياسة دينية فى شكلها الظاهر عليها فكانت فى حاجة إلى رؤساء دينيين لا إلى ملوك سياسيين وكانت تعيش فى أمن بجانب حرمها الآمن « أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم » فلم تكن بسبب هذا أيضا فى حاجة إلى ملك يحمى ذمارها ويذود عنها وتمنحه فى ذلك طاعتها

وكانت ولاية البيت فى أول أمره بين بنى إسماعيل وأخوالهم من جرهم ثم استأثرت جرهم بها وبغت فى الحرم وأكلت هدى الكعبة وكانت قبيلة خزاعة اليمنية قد هاجرت إلى مكة فى حادثة سيل العرم فاتفقت مع كنانة على إخراج

جرهم من مكة فأخرجوها منها إلى اليمن وتولت خزاعة أمر البيت وهى التى ابتدعت فيه عبادة الأصنام ونشرت فيه وثنيتها اليمنية ويؤيد هذا أن معظم أسماء تلك الأصنام يمنى الأصل فهبل مثلا كان عند اليمن إله قوس قزح وهو عندهم حامى الابل فسمى من ذلك عند أهل الشمال هبل واللات كانت عندهم أم القمر أو زوجه وكان المعينيون يسمونها أثيرت وسماها السبئيون حرمتو وكانت تسمى أحيانا إلات رلات وهكذا. ويقال إن عمرو بن لحى الخزاعى هو أول من سن هــذه البدعة السيئة واستمرت خزاعة على البيت نحو ثلثمائة سنة وكان آخرهم حايل بن حبشية وكان له بنت تسمى حبى فزوجها قصى بن كلاب ابن مرة وأوصى له فى بعض الروايات بولاية البيت وقال له أنت أحق بها من خزاعة فأبت عليه ذلك خزاعة فمشى إليها برجالات قريش وبعض قبائل العرب وقامت حرب بين الفريقين انتهت بولاية البيت لقصى فى أوائل القرن الخامس الميلادى وابتدأت بذلك إمارة قريش بمكة والذى أراه أنها كانت رئاسات مختلفة كرئاسة سائر القبائل العربية فلم تصل إلى ملك ولا إمارة ولم يكن رئيسها من ملوك العرب ولا أمرائهم

قصي بن كلاب

كان قصى يسمى زيدا فلما مات أبوه وهو صغير تزوجت أمه فى بنى عذرة من قضاعة واحتملته معها فسمى قصياً لبعــده عن دار قومه فلما عاد فى كبره الى مكة وأخذ البيت من خزاعة وجمع قريشا حوله سمى مجمعا وكانت قريش قبله متفرقة ذليلة فعزت به وارتفع شأنها وتيمنت به فمنحته طاعتها وصارت لا تفعل شيئاً الا بمشورته فاتخذ دار الندوة ازاء الكعبة وجعل بابها الى المسجد فكانت مجتمع الملأ من قريش فى مهماتهم ودار مشورتهم وصارت قريش

فرقتين : قريش البطاح وهى التى نزلت أبطح مكة . وقريش الظواهر وهى التى نزلت حول مكة. وكان يقال للأولين الضب للزومهم الحرم فقسم قصى الأبطح بين قريش فبنوا المساكن واتخذوا الدور وشرع فى بناء البيت من جديد فبناه وسقفه بخشب الدوم وجريد النخل ثم تصدى لأطعام الحاج وسقايته لأنهم أضياف الله وزوار بيته وفرض على قريش خراجاً يؤدونه اليه فكانت له بهذا الرفادة والسقاية وضم اليهما فى يده الحجابة والندوة واللواء والقيادة وحاز شرف قريش كله . وقد تنازعت بعد ذلك هذه المناصب وجاء الاسلام وهى موزعة بينها التوزيع السابق. ومكث قصى كذلك الى أن مات فدفنوه بالحجون وكانوا يزورون قبره ويعظمونه

هاشم بن عبد مناف

لما مات قصى أوصى لابنه عبد الدار بمناصبه السابقة وكان أكبر أولاده ولكنه كان ضعيفاً وكان أخوه عبد مناف قد ساد عليه فى حياة أبيه فأوصى له أبوه بذلك ليجبر به نقصه فأقرت قريش له بذلك ولبنيه من بعده الى أن ظهر بنو عبد مناف على بنى عبد الدار ونازعوهم هذه المناصب فافترقت قريش بينهم وأجمعوا على الحرب وعقد كل فريق حلفا على الآخر وأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيبا لأحلافهم فى المسجد فغمسوا فيها أيديهم ثم تحالفوا ومسوا بأيديهم الكعبة فسمى حلفهم حلف المطيبين ثم سعوا فيما بينهم للصلح فاصطلحوا على أن يعطى بنو عبد الدار لبنى عبد مناف السقاية والرفادة فأخذها هاشم بن عبد مناف وكان اسمه عمرا وانما سمى هاشما لأنه كان يهشم الخبز ويصب عليه المرق واللحم فى سنة شديدة مرت على قريش. وقد عظم شأن هاشم وارتفع قدره وحسده على ذلك أمية ابن أخيه عبد شمس فتنافرا الى

الكاهن الخزاعى فقضى لهاشم على أمية واستمرت بذلك المنافسة بين بنى هاشم وبنى أمية الى الاسلام

وكان هاشم فيما يقال أول من سن لقريش رحلة الشتاء إلى الشام ورحلة الصيف إلى الحبشة وقيل إن رحلة الشتاء كانت إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام وهما الرحلتان المذكورتان فى القرآن الكريم فاتسعت بهما معايش قريش وكثرت أموالهم ويرى ابن خلدون أن هاتين الرحلتين من عوائد العرب فى كل جيل فهما عنده أقدم من عهد هاشم ولكن رحلتا قريش كانتا أعظم شأنا من غيرها وكان العرب لا يتعرضون لهما تعظيما لقريش والحرم الذى تنتسب له

عبد المطلب بن هاشم

مات هاشم بن عبد مناف فترك ابنه عبد المطلب صغيرا وكان يسمى شيبة فرباه أخوه المطلب فقيل له عبد المطلب وكان المطلب بن هاشم قد قام بأمر الرفادة والسقاية بعد أبيه فلما مات قام بهما أخوه عبد المطلب فأحسن القيام بهما وأعاد حفر بئر زمزم فعثر فيها على غزالين من الذهب وأسيافا وأدراعا فجعل من الأسياف بابا للكعبة وحلاه بالغزالين

وفى عهده حدثت واقعة الفيل وكان سببها أن أبرهة الحبشى بنى بيتا باليمن سماه القليس ليصرف به العرب عن الكعبة ويمهد بذلك لنشر نفوذ الحبشة فى كل بلاد العرب التى أصبحت مطمع جيرانها لتفرقها وتخاذلها فغضب لذلك رجل من فقيم فذهب إلى القليس ونجسه بالأقذار فغضب لذلك ابرهة وعزم على هدم الكعبة فسار اليها بجيش عظيم وركب أمامه على فيل تتبعه عدة أفيال على عادة الأحباش فدنا من مكة والعرب تفر أمامه لا تمنع شيئاً عن بيتها فبعث رجالا انتهبوا أموال أهل مكة وفى ذلك مائتا بعير لعبد المطلب فخرجت

قريش من مكة وتحرزت فى الجبال وأنقذ الله بيته بآية سماوية ذكرها فى سورة الفيل من القرآن الكريم وقال بعض أهل السير إنهم أصيبوا بالحصبة والجدرى وإنهما لم يريا فى بلاد العرب الا بعد تلك الواقعة

وقد فرحت قريش بهذا النصر الالهى وباهت به جميع العرب وحملها ذلك على المغالاة فى أمور مناسكها فغيرت فيها ما كان معروفا قبلها من ملة أبيهم ابرهيم وتركت الوقوف بعرفة والافاضة منها لأنها من الحل وقالوا نحن أهل الحرم فلا نعظم غيره ومنعوا أهل الحل أن يأكلوا من الطعام الذى يأتون به وأن يطوفوا الا فى ثياب يأخذونها من أهل الحرم فان لم يجدوا طافوا عراة إلى غير ذلك من بدعهم التى أبطلها الاسلام وأعاد هذه النسك إلى ما كانت عليه فى ملة ابرهيم عليه السلام

أحوال العرب

ومبلغ استعدادهم لقبول الوحدة العامة

قد يكون العرب فى جاهليتهم قد وصلوا قبيل الاسلام إلى حالة تهيئهم لقبول الوحدة العامة التى دعاهم إليها فيمن دعاهم من أمم العالم وقد يكونون لم يصلوا إلى تلك الحالة فهذا أمر لا يترتب عليه إلا سهولة قبولهم لتلك الدعوة أو صعوبته ولا يترتب عليه شىء فى أصل تلك الدعوة وأنها كانت دينية من عند الله أو طبيعية مترتبة على استعداد العرب لها وملاءمة الزمان والبيئة لظهورها وإن كان بعض مؤرخى هـذا العصر من غير المسلمين يحاول أن يصور ظهور تلك الدعوة هذا التصوير ويجعلها دعوى سياسية مدنية لها أسبابها ومقدماتها

ونتائجها مثل كل دعوة سياسية مدنية

فالدعوة الدينية أيضا قد يكون لها أسبابها ومقدماتها مثل الدعوة السياسية والله سبحانه وتعالى إذا أراد شيئاً من ذلك قد يهيء له أسبابه ومقدماته التى تؤدى إلى نجاحه وقد يفاجيء الناس به ويتولى إنجاحه بدون أسباب ومقدمات يهيئها له وقد يرسل الرسول إلى قومه فيقتلونه أو يهلكهم الله بآيات عذابه وله فى ذلك حكم يظهر بعضها لنا ويخفى بعضها علينا

فاذا عرفنا ذلك أمكننا أن ندرس أحوال العرب قبيل الاسلام من كل نواحيها المختلفة غير متأثرين بشيء ربما يحيد بنا عن الوصول إلى الحقيقة فى فى مبلغ استعداد العرب لقبول تلك الوحدة أو عدم استعدادهم لها

١) الحالة السياسية : كانت دول العرب قبيل الاسلام قد وصلت كل دولة منها إلى آخر أمرها فاستولت الفرس على العراق واليمن والشام وأزالت الدول العربية التى كانت متحكمة فيها وخضع العرب للحكم الفارسى ورضوا عن طيب خاطر به ولم يثوروا عليه وكانت المساعدة التى قدمها كسرى لسيف بن ذى يزن فى إخراج الحبشة من اليمن فى رفع شأن الفرس بينهم وإعطائهم اسم الأحرار وتسمية من سكن منهم اليمن الأبناء وهم أبناء أولئك الأحرار ولم يكونوا يدرون أن كسرى لم يقدم ذلك مساعدة خالصة لليمن وإنما أراد أن يمهد بذلك لضمها إلى ملكه وقد ضمها بعد موت سيف له وكانت الحبشة قد قست فى حكمها على العرب وحاولت أن تهدم الكعبة وهى رمز مجدهم وعظمتهم فلما أخرجهم الفرس من جزيرتهم حمدوا لها ذلك وصاروا يتعصبون لها ولا يأنفون من حكمها . وقد بلغ من ميلهم إليها أن قريشا وهم زعماء وثنية العرب أقاموا معالم الأفراح فى مكة حينما انتصر الفرس على الروم فى الشام وأخذوه منهم

وكان عليهم أن يقيموا معالم الاحزان لانه لم يكن قد بقى أمام تلك الدولة الطامعة فى بلاد العرب إلا مكة وحجازها ونجده وتهامته وبغلبة الروم يزول أكبر منافس لها فى امتلاك تلك البلاد ومناهض لمطامعها فيها

وبلغ من ذلك أيضاً أن كسرى عزل النعمان بن المنذرعن الحيرة حينما رأى دولة المناذرة قد استعادت قوتها فى عهده ونشرت شيئا من نفوذها بين العرب وخشى أن يحول ذلك بينه وبين مطامعه فيهم فولى مكانه إياس بن قبيصة الطائى ليمهد بذلك إلى القضاء على ملك العرب فى العراق وتعيين حاكم فارسى له فلم يتحرك لذلك أحد فى الجزيرة وأخذ النعمان يعرض نفسه على قبائلها فلم تقبله واحدة منها ولم يجد إلا بنى شيبان يودعهم ماله وعياله ثم يذهب إلى كسري بعد أن لم يجد من طلبه بدا فيقتله وقد طلب بعد ذلك ودائعه من بنى شيبان فأبوا أن يسلموها له فأرسل إليهم إياس بن قبيصة فى جيش من الفرس والعرب فاجتمعت عليه قبائل بكر كلها وهزموه فى يوم ذى قار بعد ظهور الاسلام بنحو ثلاث سنين وهى واقعة محلية لم تشتبك فيها الامة الفارسية مع الامة العربية بل كان بعض العرب يحارب بنى شيبان مع الفرس ولم تكن لغرض سياسى يراد منه إعادة ملك العرب فى العراق أو نحوه وإنما كانت للأنفه من تسليم ودائع النعمان وخوف العار بين العرب من ذلك وبعض المؤرخين يعطى هذه الموقعة أكثر من قدرها ويجعلها مبدأ نهوض عام بينهم واستعداد لقبول تلك الوحدة السابقة على أنها مع هذا كانت بعد ظهور الاسلام وكلامنا فى مبلغ استعداد العرب لقبول الوحدة قبيل ظهوره

ولا شك أنه يمكننا بعد ذلك أن نحكم بأن العرب من الناحية السياسية

ما كانوا يتطلعون إلى ملك سياسى عام تجمعهم وحدته وإنما كانوا قد وقعوا فى ملك أجنبي رضوا به ومن لم يقع منهم فيه كان يتعصب له ولا يأنف أن يقع فيه أما قبائل البادية فكانت متعادية لاتترك الحروب فيما بينها ولا تفكر فى وحدة تجمعها .

(٢) الحالة الدينية : وهذه الناحية أيضاً إذا نظرنا اليها نجدها لاتدل على شىء من قبول العرب لتلك الوحدة فبينما نجد أمة الروم قد اجتمعت على نصرانيتها وأمة الفرس قد اجتمعت على مجوسيتها نجد أمة العرب قد اجتمعت فيها كل الملل القديمة ففرقت أمرها ومزقت وحدتها وكنت تجد فيها اليهودية فى يثرب واليمن ، والنصرانية فى العراق والشام ونجران ، والمزدكية فى كندة ، وبعضهم كانوا صابئة ، وبعضهم كانوا مجوسا ، وبعضهم كانوا ماديين لا يؤمنون بالله ولا بعث ولا حساب

نعم ان الوثنية كانت دين كثرتهم ولكنها لم تأخذ شكلا واحدا يجتمعون عليه مثل المجوسية فى بلاد الفرس مثلا بل كانت وثنيتهم ذات أشكال متعددة فمنهم من كان يعبد الملائكة ومنهم من كان يعبد الكواكب ومنهم من كان يعبد الاصنام الى غير ذلك من أشكالها وهذا الى ما سبق من قريش بعد حادثة الفيل من تفريقها فى تلك الوثنية بينها وبين غيرها من القبائل العربية وتمييزها نفسها على غيرها فيها

وقد ظهر فى العرب نفر قبيل الاسلام دعوهم إلى ملة أبيهم ابرهيم من الايمان بالله وترك عبادة الاصنام وسموا من أجل هذا بالحنفاء مثل قس ابن ساعدة الايادى وأكثم بن صيفى التميمى ولكن أصواتهم كانت ضعيفة لم يسمع لها أحد ولم تهيء شيئاً لقبول تلك الوحدة ولم تجب لها قبيلة فى أية ناحية من بلاد العرب

ولا يفوتنا أن نفرق بين دعوة هؤلاء الحنفاء ودعوة محمد صلى الله عليه وسلم فدعوتهم كانت الى أمر أو أمرين من أصول الايمان عرفوها بعد ظهور اليهودية والنصرانية فى بلاد العرب ولكنها لم تكن دعوة يهودية ولا نصرانية وانما كانت دعوة إصلاحية فقط فى الوثنية العربية ، ولليهودية والنصرانية عقائدهما المتشعبة التى لم ينقل عن واحد من الحنفاء أنه دعا اليها . أما دعوة محمد صلى الله عليه وسلم فكانت الى دين جديد مستقل عام ذى أصول وفروع لا تعرف إلا بالوحى والتبليغ عن الله عز وجل

(٣) الحالة الاقتصادية : كانت الحالة الاقتصادية فى بلاد العرب قبل الاسلام سيئة فى الجملة إذا استثنينا قريشاً ورحلتيها التجاريتين لأن العرب لم تكن تتعرض لها لمكان قريش من الكعبة المشرفة أما غير قريش فكانت بضائعه معرضة للغزو والنهب حتى إن كسرى نفسه ما كان يأمن على لطائمه إلى أسواق العرب إلا اذا أجازها له أحد عظمائهم فكسدت الأسواق التجارية فى بلادهم بسبب قلة الأمن فيها وانتشر الفقر فى بلادهم حتى وصل بهم الى قتل أولادهم خشية منه وكل أمة تصل الى هذه الحالة تنتشر بينها المطامع والأحقاد ولا يفكر واحد منها أن يأتلف مع آخر وانما يفكر فيما فى يده ليسلبه منه ويسد به رمقه .

(٤) الحالة العلمية : قد تفكر الأمة فى الوحدة العامة اذا وصلت الى حالة علمية تمكنها من التفكير فيما يعود عليها من تلك الوحدة والأمة العربية فى جاهليتها كانت أمة تسود فيها الأمية الى درجة جعلت أمم عصرهم يلقبونهم لأميين (هو الذى بعث فى الأميين رسولا) فكان للخرافات سوق رائجة فيهم وكان أرباب الخرافات هم زعماؤهم وقادتهم وحكماؤهم من الكهان والعرافين

وزاجرى الطير وغيرهم وغيرهم ممن لايحصى عددهم ، واذا كان زعماؤهم وحكماؤهم بهذا الشكل فهم أبعد من أن يفكروا فى تلك الوحدة أو يعرفوا ماوراءها من الخير للأمة . ولا ننكر أنه ظهر فيهم أناس أنكروا تلك الخرافات ولم يذعنوا لها مثل المرقش الأكبر ولبيد بن ربيعة الذى يقول :

لعمرك ماتدرى الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

ولكن ذلك كان نفرا قليلا ضاع صوته فى وسط تلك الجهالة

(٥) الحالة الأدبية : وقد تكون الحالة الأدبية من أحسن حالات العرب فى ذلك الوقت ولكن الأدب لم يرق فيه إلا من حيث ألفاظه ومعانيه وبلاغة أساليبه . أما أغراضه فكانت فى جملتها تساعد على تفريق تلك الأمة وإضعافها بالحروب التى كان يثيرها بينها وبتكريهها فى جمع المال الذى هو قوام سعادة الأمم وتحسين إتلافه لها وانفاقه بدون تعقل لارضاء مطامع أصحابه من الشعراء الذين جعلوا الشعر العربى قبيل الاسلام وسيلة لجمع المال ومالوا به عما يجب له حتى يكون رسول إصلاح بين الأمم وداعية نهوض لهم

والآن يحق أن نحكم مطمئنين بأن العرب قبيل الاسلام لم يكونوا مستعدين لهذه الوحدة العامة التى دعاهم الاسلام اليها وبأن ذلك التآلف الذى تم لهم به لم يكن عن استعداد له بل كان بتوفيق الله تعالى معجزة لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم فهو الذى ألف بين قلوبهم وامتن فى القرآن الكريم بذلك عليهم (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا)

سيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

قبـــل البعثة

(١) اختياره من العرب : كانت الأمم المعاصرة للعرب قبـل الاسلام تمتاز عليهم بما ذكره كسرى للنعمان بن المنـذر حين افتخر أمامه بالعرب على جميع الامم ، ففضل كسرى الروم عليهم فى اجتماع ألفتها وعظم سلطانها وكثرة مدائنها وفضل الهند عليهم بحكمتهاوصناعتها وفضل الصين عليهم بكثرة صناعات أيديها وهمتها فى آلة الحرب وصناعة الحديد . وقد أراد الله تعالى باختيار نبيه محمد صلى الله عليه وسلم من هذه الامة الأمية اعلاء شأن معجزته القرآنيـة ونفى أية شبهة للناس فيها فجعله أمياً ومن أمة أمية وأرسله بذلك الدين القيم ونزل عليه من الشرائع والعلوم فى قرآنه الكريم ما لا يمكن أن يكون من أمى مثله فى أمة أمية مثل أمته وإلى هذا يشير قوله تعـالى (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين)

فهذا من جهة ومن جهة أخرى فان هذه الامم وان امتازت عن العرب بمدنيتها إلا أن مدنيتها كانت قد وصلت الى طور شيخوختها فى ذلك الوقت ولم يبق لها منها إلا ترف أفسد نفوسها وأضعفها وجعلها تخضع لملوكها خضوعا أعمى وهى مع هذا ترى لنفسها عظمة كاذبة ومجدا موهوما وتذهب فى ذلك مذهبا بعيدا تجهل فيه نفسها جهلا مركباً فلو أرسل فيها مع ذلك نبى منها

لفعلت معه ما فعل فرعون مع موسى وما فعلت عاد مع هود وما فعلت ثمود مع صالح ولفعل الله معها مافعل مع هذه الأمم فأهلكها بآية من آيات عذابه وما كان الله يريد للنبوة التى يريد أن يختم بها نبواته هذا المصير بل كان يريدها نبوة رحمة وتعمير لا نبوة انذار وتدمير

أما العرب فكانت أمة بكرا وكانت نفوس أفرادها أقوى من نفوس أفراد تلك الأمم وان كانت جماعتها أضعف منها بسبب تفرقها وتعاديها فكانت أقوى من هذه الأمم للنهوض بهذا الدين الجديد ولم يكن لها ملوك تخضع لهم هذا الخضوع الأعمى الذى كان يذهب بهم إلى مقاومة هذا الدين إلى الحد الذى يهلكهم الله به ولا ننكر أن العرب قاومت دينها مقاومة شديدة ولكنها خضعت فى النهاية له ولو كان فيها ملك مثل كسرى أو قيصر لذهبت فى مقاومة هذا الدين مذهبا أودى بها ومحا من الوجود آيتها

ولم تكن الأمة العربية فى أميتها تقل فضلا فى أصلها ونسبها عن هذه الامم التى كانت تمتاز عنها بملكها ومدنيتها بل كان لها نسبها الدينى الى اسماعيل وابرهيم وسام ونوح عليه السلام ولها ماض بعيد فى الملك من عهد عاد ومن أتى بعدهم من العرب العاربة وقد أراد الله بعد أن قدر لها ماقدر من موت دينى وسياسى أن يبعثها من جديد وينهض بها فى الدين والسياسة ويجعل نهضتها عامة لكل الشعوب ليحيا الجميع فيها وينقضى عهد تسلط الشعوب بعضهم على بعض وموت فريق من البشر فى حياة فريق آخر منهم

(٢) نسبه عليه الصلاة والسلام : هو محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار ابن

معد بن عدنان . وينتهى عدنان إلى اسماعيل بن ابرهيم عليهما السلام فى ثلاثين أبا وقيل فى أقل من ذلك وقيل فى أكثر منه وإذا كان عدنان كما جاء فى بعض الروايات معاصرا لموسى عليه السلام فيكون ما بينه وبين اسماعيل نحو ما بين موسى واسحق بن ابرهيم عليهما السلام أربعة آباء فقط ، وهو قول من تلك الأقوال فان موسى هو ابن عمرام (عمران) بن قهات بن لاوى بن يعقوب بن إسحق فيكون مابين محمد صلى الله عليه وسلم واسماعيل عليه السلام على ذلك نحوا من أربعة وعشرين أبا ولكن عيسى عليه السلام وهو قبل محمد صلى الله عليه وسلم بنحو ستة قرون كان بينه وبين ابرهيم اثنان وأربعون أبا وقيل أربعة وخمسون فلا يعقل مع هذا أن ينتهى نسبه صلى الله عليه وسلم إلى اسماعيل بذلك العدد فقط فلعل الذى فيه اشهر الآباء أولعل الذى بين عدنان واسماعيل أكثر من أربعة آباء فلا يكون معاصرا لموسى عليه السلام ويقال إن سبب الاختلاف فيما بعد عدنان أن قدماء العرب لم يكونوا أصحاب كتب يرجعون إليها وإنما كانوا يرجعون إلى حفظ بعضهم من بعض ولكن هذا ينافيه ماروى من أن الكتابة كانت معروفة فى العرب من عهد نزار ومعد والذى يظهر لى أن أبناء إسماعيل لم يبدأ ظهورهم كأمة لها شأنها ووحدتها ولغتها الا من عهد عدنان ومعد ونزار ويقال ان معدا ونزارا كانا أول من كتب من العرب ففى هذا الوقت بدأ ظهور اللغة العدنانية واستقلالها عن أصلها الحميرى والعبرى وبدأ أهلها ينتشرون فى الجزيرة ويقيمون فى بقاعها المختلفة مع المحافظة على لغتهم الجديدة والانتماء الى الأصل الذى ظهرت فى عصره وهو نزار وأبواه معد وعدنان ولم يعنوا بحفظ من قبلهم من الآباء الى اسماعيل عليه السلام فآل أمرهم الى نسيانهم لعدم شهرتهم وكان أمرهم من هذين الأصلين المتباعدين فى الزمن (اسماعيل وعدنان) كأمر البشر من آدم ونوح عليهما السلام . وانك

لترى كل قبيلة من القبائل العربية تنتمى الى ذلك الأصل العدنانى ولكن أين أبناء اسماعيل من الآباء الكثيرين الذين كانوا قبل عدنان ؟ لاشك أنهم موجودون فى أولئك العرب العدنانيين ولكنهم اندمجوا فيهم وغلب العدنانيون عليهم حينما ظهروا بوحدتهموذلك مثل ما اندمج من بقى من العرب البائدة فى العرب العاربة وصاروا كلهم أمة واحدة

وهذا نسبه عليه السلام من جهة أبيه . أما أمه فهى آمنة بنت وهب ابن عبد مناف بن زهرة بن كلاب وهو الجد الخامس فى نسبه من جهة أبيه فتجتمع معه فيه .

وقومه عليه السلام هم قريش سكان مكة وسدنة البيت بعد خزاعة وقد اختلف فى قريش الذى ينتمون اليه فقيل إنه قصى بن كلاب وقيل انه فهر وهو الأشهر وقيل انه النضر وقيل انه إلياس وقيل انه مضر والأقرب عندى أنه قصى بن كلاب لأنه هو الذى ثبت فى التاريخ أنه جمع قومه بعد تفرقهم وأعاد لهم الرياسة فى مكة بعد أن استأثرت بها جرهم ثم خزاعة عليهم وبذلك سمى مجمعاً وسمى قومه قريشاً لتجمعهم به ، والتقرش التجمع ، وهم لم يتجمعوا ويعرف أمرهم كقبيلة ظاهرة متآلفة متحدة إلا بعد قصى،ومع هذا فانها لما سميت بذلك فى عهده دخل فيها كل فروعها بمكة ولم تقتصر على فرع قصى وحده ، ولعل الأقرب من كل ذلك أن هذا الاسم كان لقباً لهذه القبيلة لا لقصى ولا لغيره ولكنها لم تسم بذلك إلا من عهد قصى على مارجحنا

(٣) ولادته : تزوج أبوه عبدالله أمه آمنة بنت وهب فلما دخل بها حملت به ولم يلبث أن توفى بعد حمله بشهرين ودفن بالمدينة عند أخواله بنى عدى ابن النجار وكان قد ذهب فى تجارة الى الشام فأدركته منيته بالمدينة وهو عائد من تجارته ، ولما تمت مدة حمله وضعته أمه فى دار عمه أبى طالب وكان

شقيق أبيه من بين إخوته ثم أرسلت الى جده عبد المطلب تبشره فأقبل مسرورا وسماه محمدا ولم يكن هذا الاسم شائعاً فى ذلك الوقت عند العرب ولم يكن يدر عبد المطلب أن هذا الاسم الذى ألهمه الله به هو معنى (البارقليط) الذى بشر الانجيل به ولكنها إرادة الله يسوق اليها خلقه من حيث لا يشعرون بها. وكانت ولادته فى عام الفيل فى صبيحة يوم الاثنين تاسع شهر ربيع الأول الموافق لليوم العشرين من ابريل سنة ٥٧١ من الميلاد المسيحى

(٤) — رضاعه: وكان من عادة قريش أن تلتمس المراضع فى البوادي لأولادها يرون ذلك فيما يقال أقرب إلى السلامة والنجابة والفصاحة لأن المربى فى المدن يكون كليل الذهن ضعيف العزيمة فجاءت نسوة من بنى سعد ابن بكر من هوازن وهى من أفصح قبائل العرب يلتمسن أطفالا يرضعنهم فكان هذا الطفل الملحوظ بالعناية الإلهية من نصيب حليمة السعدية فمكث عندها مدة تربو على أربع سنوات

والتماس السلامة والنجابة من البادية يمكننا أن نسلمه ولكن التماس الفصاحة منها لا يمكننا تسليمه إلا أن يكون شأن قريش ومكة فى ذلك العهد كشأن المدن الاسلامية بعد ذهاب الفصاحة العربية منها باختلاط العجم بالعرب فكان أهلها يرسلون أولادهم إلى البادية لبقاء الفصاحة العربية فيها ولكن قريشاً فى ذلك الوقت كانت مهد الفصاحة والبلاغة وكانت لهجتها أرقى اللهجات العربية فكيف تلتمس الفصاحة لأولادها من البادية اللهم إلا أن يكون المراد بها مطاوعة اللسان للكلام لا فصاحة لهجات البادية، وقد يكون ترف قريش فى ذلك العهد بسبب ما كانت تدره عليهم رحلتا الشتاء والصيف هو الذى سن فيهم تلك العادة لا غيره من ذلك ولا يزال هذا شأن المترفين إلى يومنا

(٥) — وفاة أمه : ولما أتم عهد الرضاع رجع الى أمه فأخذته الى المدينة لزيارة أخوال أبيه وفى عودتها منها أدركتها منيتها فى الطريق ودفنت بالأبواء بين مكة والمدينة وكان ذلك فى السادسة من عمره فحضنته مولاة أبيه أم أيمن وكفله جده عبد المطلب وكان يكرمه ويرق له ويتفرس فيه أمرا خطيرا فى مستقبله ثم توفى جده وهو ابن ثمانى سنوات فكفله عمه أبو طالب وحذا فى إكرامه حذو جده وكان يأخذه معه فى أسفاره للتجارة فأخذه مرة الى الشام فلقيه بقرب بصرى راهب يسمى بحيرى فتفرس فيه وأخبر عمه بأنه يكون له شأن عظيم وحذره من اليهود ويقال إن سند هذه القصة ضعيف فى كتب الحديث وكل رواياتها مرسلة ومن رواتها عبد الله بن غزوان وهو منكر الحديث عند الذهبي ويزعم بعض المؤرخين الاوربيين أن محمدا صلى الله عليه وسلم أخذ عن هذا الراهب دعوته وقد كان صلى الله عليه وسلم فى تلك السفرة فى سن العاشرة أو قريباً منها وهى سن لا تمكنه من أخذ ذلك عنه وليس فى تلك القصة أنه أخذ شيئاً منه وقد كان أولئك الرهبان غارقين فى النصرانية الى أذقانهم وغاية ما كان يفكر أحدهم فيه هو إحداث اصلاح جزئى فيها لا هدمها بنبوة جديدة وشريعة أخرى تخالفها

(٦) اشتراكه فى حرب الفجار : قد ذكرنا حرب الفجار فى حروب العرب فى الجاهلية واشتراكه صلى الله عليه وسلم فيه وهو ابن أربع عشرة سنة فكان ينبل أعمامه (يناولهم النبل) وقد سئل بعد رسالته عن مشهده يومئذ فقال ماسرنى أنى لم أشهده إنهم تعدوا على قومى . ومثل هذا القتال غير منكر فى الاسلام فلا يقال إن حروب الجاهلية كانت حروبا آثمة ما كان يليق اشتراكه فيها خصوصا هذه الحرب التى وقعت فى الأشهر الحرم وسميت بهذا ذلك الاسم

لحروب الجاهلية آثمة من جانب المعتدين فقط وكانت هذه الحرب بسبب قتل البراض الكناني عروة الرحال القيسي فقامت قيس كلها على قريش وكنانة تأخذهم بذنب واحد منهم ولا يحمل البرىء ذنب المذنب

(٧) اشتراكه في حلف الفضول : — وكان عند رجوع قريش من حرب الفجار فتحالفوا على ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو من غيرهم إلا قاموا معه حتى ترد اليه مظلمته فحضره صلى الله عليه وسلم مع أعمامه وكان في دار عبدالله ابن جدعان التيمي وقال فيه بعد الرسالة (لقد شهدت مع عمومتي حلفا في دار عبد الله بن جدعان ماأحب أن لى به حمر النعم ولو دعيت به في الاسلام لأجبت) ولا يريد من ذلك إلا تعظيم شأنه وإلا فالدعوة إلى نصرة المظلوم أصبحت عامة بعد الاسلام ولم تبق حاجة إلى هذه الدعوة التي كانت خاصة بمكة ولو كان اليه حاجة بعد ذلك فيها لأحياها

(٨) زواجه بخديجه : كانت خديجة بنت خويلد الأسدية القرشية سيدة ثرية ذات شرف ومال وتجارة وكانت تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه وقد مات عنها زوجها أبو هالة وترك لها ولدا اسمه هالة فسمعت بمحمد صلى الله عليه وسلم وأمانته وكان حين شب قد اشتغل بالتجارة وشارك فيها السائب ابن أبي السائب فطلبته ليخرج بمالها الى الشام وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره ، فسافر مع غلامها ميسرة وربح لها ربحاً عظيما سرت به وجعلها ترغب في زواجه وهو يومئذ ابن خمس وعشرين سنة وكان سنها نحو الأربعين . فأرسلت اليه تخطبه لنفسها وما كان لمثله أن يرد طلب هذه السيدة الفاضلة ويجعل للفرق بين سنه وسنها قيمة فمثل ذلك لايكون إلا من النفس الصغيرة فأجاب طلبها وذهب مع أعمامه حتى دخل على عمها عمرو بن أسد فخطبوها منه

له فكانت له خير زوج وكان لها خير بعل وكانا مثلا فى حسن العشرة والوفاء للزوجية وولدت له أولاده كلهم ماعدا ابرهيم فانه كان من مارية القبطية ولم يتزوج غيرها حتى ماتت بعد خمس وعشرين سنة فحزن عليها أشد حزن وظل طول حياته يذكرها ويثنى عليها ، وكان يعمل فى مالها ويأكل من نتيجة عمله على أنها ما كانت تضن عليه بشىء منه فأصبح معها من ذوى الغنى واليسار بمكة وأمكنه بذلك أن يتفرغ فى بعض أوقاته لأمور كانت تشغله من صغره وقد امتن الله عليه بذلك بعد الرسالة فقال (ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى)

(٩) تعبده : كان لموقع مكة واشتغال أهلها بالتجارة أثر كبير فى غناهم وأخذهم بحظ عظيم من الملذات والشهوات ولم يكن لهم دين يردعهم عن ذلك ويعرفون به الحرام والحلال فحفظت عناية الله محمدا صلى الله عليه وسلم من ذلك كله فى صغره وكان يقول عليه السلام (لما نشأت بغضت الى الأوثان وبغض الى الشعر ولم أهم بشىء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين كل ذلك يحول الله بينى وبين ماأريد من ذلك ثم ماهممت بسوء بعدهما حتى أكرمنى الله برسالته قلت ليلة لغلام كان يرعى معى لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة فأسمر كما يسمر الشباب فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفا بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم فجلست لذلك فضرب الله على أذنى فنمت فما أيقظنى إلا مس الشمس ولم أقض شيئا ثم عرانى مرة أخرى مثل ذلك) فحفظ من رذائل الجاهلية كلها حتى كان أحسن قومه خلقا وأصدقهم حديثا وأعظمهم أمانة وأبعدهم عن الفحش فسموه الأمين لما جمع الله فيه من تلك الأمور الصالحة وأما قوله تعالى (ووجدك ضالا فهدى) فلا يراد من الضلال الوقوع فيما وقع

فيه قومه من ذلك وانما المراد به ما كان يعتريه من الحيرة فى ذلك الوقت حين يفكر فيما يأخذ به نفسه فى وسط ذلك الفساد الذى عم جميع الديانات فوجده الله ضالا فى ذلك محتارا تائها فهداه إلى دين الاسلام وقيل إنه يعنى بذلك هدايته الى التحنف قبل رسالته

وكان صلى الله عليه وسلم يقصد غار حراء من كل سنة شهرا فيتعبد فيه وكانت قريش تفعل ذلك فى جاهليتها فكان يعبد ربه فى ذلك الغار بالتفكر والاعتبار ويطعم من يقصده من المساكين فاذا قضي ذلك الشهر رجع إلى مكة فيطوف بالكعبة ثم يقصد بيته وقد اختلفوا فى طريقة عبادته قبل نبوته على مذاهب كثيرة والأرجح أنها كانت كما قلنا بالتفكر والاعتبار

(١٠) اشتراكه فى بناء الكعبة : وكان ذلك وهو ابن خمس وثلاثين سنة فجاء سيل جارف فصدع جدرانها وزاد فى توهينها من حريق حصل قبله فارادت قريش أن تهدمها وتعيد بناءها بشكل يليق بما وصلت اليه من غنى وثروة وكانت قبل هدمهم لها بنية فوق القامة لاسقف لها وكان فيها حفرة تكنز فيها بعض هداياها فلما شرعوا فى هدمها تهيبوا منه لمكانها في قلوبهم. وتلك ظاهرة دينية وجد لها نظيرها بعد الاسلام حينما أريد هدم الكعبة وتعميرها سنة ٩٥٩ هـ فاضطربوا فى ذلك وتعصب بعض العلماء على من أفتى بجواز هدمها وتعميرها .

فلما هابت قريش ذلك قام فيهم الوليد بن المغيرة فقال لهم أتريدون بهدمها الاصلاح أم الاساءة ؟ فقالوا بل الاصلاح، فقال إن الله لا يهلك المصلحين، وشرع يهدم فتبعوه حتى وصلوا الى أساس إسماعيل عليه السلام فوجدوا فيه صحفاً مكتوبة بالسريانية فلم يعرفوا ما فيها حتى قرأها لهم رجل من اليهود فاذا فيها كلام يتعلق بتاريخ إنشاء مكة هذا نصه : (انا الله ذو بكة خلقتها يوم خلقت

السموات والأرض وصورت الشمس والقمر . . . . . .) وقديظن أن فى هذا مبالغة ولـكن تأويله ممكن وفى هذه الصحف السريانية أعظم دلالة على صحة قصة اسماعيل فى بناء الـكعبة وإقامته بمكة فهو وأبوه عليهماالسلام من العراق وكانت لغة قومهما فيه هى السريانية

وقد اهتمت قريش ببناء الـكعبةوأعدت لذلك نفقة ليس فيهامهر بغى ولا بيع ربا واستحضرت بناء رومياً ونجارا قبطيا وشرعت فى البناء وجعل أشرافها ينقلون الحجارة على أكتافهم وكان محمد صلى الله عليه وسلم يحمل معهم ورفعوا بناءها ثمانية عشر ذراعا وكان قبل ذلك تسعة أذرع ورفعوا بابها عن الارض بحيث لا يصعد اليه إلا بدرج وسقفوها من خشب سفينة كان البحر قد رمى بها الى الساحل فتحطمت ولـكنهم لم يتموها على قواعد اسماعيل عليه السلام لضيق النفقة الطيبة التى أرادوا بناءها بها فأخرجوا منها الحجر وبنوا عليه جدارا قصيرا إشارة إلى انه من الـكعبة

ولما أرادوا إعادة الحجر الاسود الى موضعه اختلف اشرافهم فيمن يحمله اليه وكادت تقع حرب بينهم فى ذالك فقال لهم أبو أمية بن المغيرة المخزومى : ياقوم لا تختلفوا وحكموا بينكم من ترضون بحكمه ، فقالوا نكل الامر لأول داخل من باب المسجد ، وكان أول داخل محمد صلى الله عليه وسلم ، فقالوا هذا الامين رضينا بحكمه ، فبسط رداءه ووضع عليه الحجر وقال لتأخذ كل قبيلة بناجية من الثوب فحملوه كلهم حتى وصلوا إلى موضعه وزال بهذه الحكمة المحمدية النزاع بينهم .

من البعثة الي الهجرة

(١) بعثته : مكث صلى الله عليه وسلم أربعين سنة بين قومه وقد عصمه الله من الشرك وما كانوا عليه وكان بلا ريب يعرف فساده وإلا ماتحاماه هذه المدة الطويلة ولكن نفسه لم تحدثه بدعوتهم الى تركه وقد دعاهم الى ذلك بعض الحنفاء قبله . ويمكننا أن نجزم بأنه لو لم يكاف ذلك من قبل ربه لاستمر طول حياته فى أمر نفسه ولم يهمه أمرهم ، فقد كان صلى الله عليه وسلم سهل الخلق من أول أمره ، جميل العشرة ، حسن الألفة، وقد اكتسب بذلك محبة قومه له وكان لتلك المحبة أثرها فى نفسه وكانت تقضى عليه طول هذه المدة بالأغضاء عما هم فيه لئلا يفسد مابينه وبينهم ويخسر محبتهم له وثناءهم عليه وما كان عليه فى ذلك من حرج لأنه مالم يكن هناك تكليف إلهى فكل شخص وما يراه من المصلحة فى أمر نفسه مع قومه وقد كانت حالتهم تدعو الى اليأس من هذه الناحية فيهم .

وهذا دليل نفسى تاريخى نأخذه من حاله صلى الله عليه وسلم قبل الرسالة ونسوقه حجة لمن يطلب مثل هذه الحجج فى عصرنا ونضيف إلى ذلك أيضاً أنه مكث تلك المدة الطويلة لم تظهر عليه تلك الفصاحة الباهرة التى ظهرت عليه فجأة وكان من صغره يكره الشعر الذى كان أعظم مظاهر الفصاحة العربية فلابد أن يكون ذلك أيضا من أمر خارج عن نفسه وما هو إلا الرسالة الالهية التى اختاره الله لها فى وقت طغت فيه الوثنية على كل سكان البسيطة وأفسدت الديانتين السماويتين الباقيتين وكان أثرها فى النصرانية أكثر منها فى اليهودية فقالت النصارى بربوبية عيسى عليه السلام وأنه ابن الله وزعمت طائفة من

اليهود فى عزير مازعمت النصارى فى عيسى بل زعم كل من اليـهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله يلغون عقولهم معهم ويقبلون كل ما يقولونه لهم وما كانوا يرون فيه اجتهادا يقبل الصواب والخطأ بل كانوا يعتقدون فيهم مثل مايعتقده بعض الفرق الاسلامية فى أئمتهم من أنهم معصومون وما يربطونه فى الأرض يربطه الله تعالى فى السماء وهذه مرتبة الأنبياء والرسل لا مرتبة الأحبار والرهبان والعلماء وإنما مرتبتهم الاجتهاد الذى يقبل الصواب والخطأ فيأخـذ الناس ما يصيبون فيه ويتركون الخطأ ويعذرونهم عليه

وكان أول بدء البعثة فى السنة الحادية والأربعين من ميلاده صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين السابع عشرمن شهر رمضان (٦ أغسطس سنة٦١٠م)وذلك بنص القرآن الـكريم على أن شهر رمضان هوالشهر الذى ابتدأ نزوله فيهوبقوله تعالى (وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) وكان التقاء الجمعين يوم بدر فى صبيحة يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان

فبينما كان نائما فى غار حراء جاءه جبريل عليه السلام فقـال له : أبشر يامحمد أنا جبريل وأنت رسول الله إلى هذه الأمة ثم قال له : اقرأ ، فقال ما أنا بقارىء يعنى أميته فأخذه فغطه بالنمط (١) الذى كان ينام عليه حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله وقال له : اقرأ ، فقال ماأنا بقارىء ، فغطه ثانية ثم أرسله وقال له اقرأ ، فقال ماأنا بقارىء ، فأخذه فغطه الثالثة ثم أرسله فقال (اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم) فقرأها صلى الله عليه وسلم ثم انصرف جبريل عنه قال فهببت من نومى فكأنما كتبت فى قلبى كتابا

(١) ضرب من البسط

فترك صلى الله عليه وسلم الغار ورجع الى خديجة يرجف قلبه مما ألم به من الروع فقال لها (زملونى زملونى) لتزول عنه هذه القشعريرة وأخبرها بما حصل له وأدركه الخوف منه وخشى أن يحصل له شيء فى نفسه فقالت له (كلا والله مايخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق ، فلا يسلط عليك الشياطين أو الأوهام ، ولامراء أن الله اختارك لهداية قومك) ثم انطلقت به الى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان عنده علم بالتوراة والأنجيل فأخبره بما حصل له فقال ورقة (هذا الناموس الذى نزل الله على موسى) وكان يعرف أن رسول الله الى الأنبياء هو جبريل عليه السلام ، وهذه القصة ترينا أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ينتظر أن يكلف بهذه الدعوة ويدل سياقها الذى لاتصنع فيه على صدقه فيها بقطع النظر عن المعجزات التى أيد بعد ذلك بها وحق للنبي أن يحصل له ما حصل وأن يقوم بنفسه ما قام بها لأول عهده بهذا الأمر وقد فعل ابرهيم عليه السلام مثل ذلك قبله وبعد أن مضى عهد على نبوته (وإذ قال ابرهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي)

وقد اطمأن قلب النبي صلى الله عليه وسلم بعد هذا بذلك وصار يطلب هذا الملك الذى رآه وانقطع عنه فترة ليشتد شوقه إليه وأرجح الأقوال فيها أنها كانت أربعين يوما وقد بلغ من شدة شوقه أنه صار يهيم من شدة وجده فى الجبال وصار كلما أتى ذروة جبل يبدو له أن يرمى نفسه منها حذرا من قطيعة الله له على هذا الذى بدا منه عند رؤيته ملكه فبينما هو يمشى اذ سمع صوتا من السماء فرفع إليه بصره فاذا الملك الذى جاءه بغار حراء جالس بين السماء والأرض فرعب أيضاً لرؤيته له هذه المرة فى اليقظة بعد أن رآه هناك فى النوم

فرجع الى أهله وقال (دثرونى دثرونى) فأنزل الله تعالى عليه (يأيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر)

(٢) إسراره بالدعوة : كانت هذه النبوة كما قلنا نبوة رحمة يراد منها الوصول الى هداية المرسل إليهم لا إنذارهم وإهلاكهم فاقتضى ذلك أن يتلطف فيها ويسلك بها المسالك التى لاتؤدى بها إلى هذه الحالة فابتدأ رسول الله يدعو سرا من يتوسم فيه الاجابة له وابتدأ بأهل بيته فأجابته خديجة وأجابه على بن أبى طالب وكان مقيما فى بيته لأن أباه كان مقلا كثير الأولاد فكان فى كفالته كأحد أولاده وأجابه مولاه زيد بن حارثة وكان قد تبناه على عادة قومه وأجابته مولاته أم أيمن ثم دعا من غير أهل بيته صاحبه أبا بكر فأجابه وناصره أعظم مناصرة فى دعوته وأتى إليه بجمع من أصحابه منهم عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله فأسلموا كلهم فى نفر آخرين بلغوا نحو الأربعين وهم المسمون بالسابقين الأولين ومنهم أبو عبيدة بن الجراح وسعيد بن زيد وصهيب الرومى وعمار بن ياسر وعبد الله بن الحارث وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد وعثمان بن مظعون والأرقم بن أبى الأرقم ولم يكن فيهم من بنى هاشم قوم النبي غير على

وقد اختار رسول الله دار الأرقم ليجتمع بهم فيها ويعلمهم أحكام دينهم وكانوا كلهم من شبان قريش والشبان أطوع الى مثل هذا من غيرهم لعدم تمكن إلف الشرك من نفوسهم وجمودهم بطول الزمان عليه وقد كان رسول الله يحرص على إيمان كبراء قومه معهم ويحزنه إعراضهم عنه فأخبره الله بأن هذا كان شأن الأنبياء من قبله لايبادر إلى الايمان بهم الا ذريات أقوامهم (فما

آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملاهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال فى الأرض وإنه لمن المسرفين)

ومكث النبي صلى الله عليه وسلم يجتمع بأولئك الشبان فى تلك الدار المباركة نحو أربع سنين علمهم فيها أمور دينهم وثبته فيهم حتى امتزج بدمائهم وهان عليهم كل ما اقوه فيه ثم انضم اليه شابان عظيمان من أقوى شبان قريش (عمر ابن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب) فعزوا بهما وألح عمر على رسول الله أن يظهر بدعوته فانتظر إلى أن أذن الله له فى الجهر بها ثم جمع أولئك الشبان الذين وطنوا أنفسهم على بذل نفوسهم فى الدعوة الى دينهم وخرج بهم من تلك الدار التى كان يجتمع بهم فيها وسار بهم فى صفين عمر أمام أحدهما وحمزة أمام الثانى واخترق شوارع مكة الى الكعبة المشرفة فصلى بهم وطاف بها ثم رجع بهم على هذا النظام إلى دارهم الأرقمية فأصابت قريشا من ذلك كآبة لم يصبهم مثلها وابتدأ به عهد الصراع والجهر بالدعوة :

٣) جهره بالدعوة : لبث النبي صلى الله عليه وسلم تلك المدة يدعو إلى الاسلام سرا وكان المسلمون يستخفون بصلاتهم فى شعاب مكة فبينا سعد ابن أبي وقاص فى نفر من الاصحاب يصلون فى شعب من شعاب مكة ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم فضرب سعد رجالا منهم بلحى بعير فشجه فكان أول دم أريق فى الاسلام ولم يكن بعد هذا وماكان من إلحاح عمر بد من الجهر بالدعوة فجهر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنزل الله تعالى عليه قوله (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين وأنذر عشيرتك الأقربين) وهم بنو هاشم وبنو المطلب (١) وبنو نوفل وبنو عبد شمس أولاد عبد مناف وهذا أيضا مما قصد به التلطف فى تلك الدعوة

(١) المطلب بن عبدمناف وعم عبدالمطلب بن هاشم وماجاء فى ص ٤٦ سبق قلم

العامة لتأخذ سبيلها إلى النجاح ولا يصل العنادفيها إلى علاجه بنقمة مستأصلة

فجمع أولا بنى عبد المطلب فى دار أبى طالب وكانوا خمسةوأربعين وصنع لهم طعاما فلما أكلوا قال لهم : يابنى عبد المطلب إن اللهقدبعثنى إلى الخلق كافةوإليكم خاصةوأناأدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان: شهادةأن لا اله الا اللهوأنى رسول الله فمن يجيبنى الى هذا الأمر ويوازرنى على اقيام به ؟ فقاله على رضى اللهعنه أنا يارسول الله وكان أحدثهم سنا ولم يكد يجاوز العشر وسكت القوم فلم يجيبوا بشىء فقال لعلى اجلس ثم أعاد القول ثانيا عليهم فأجاب على وسكتوا وأعاده ثالثا فأجاب وسكتوا فقال له اجلس فأنت أخى ثم انصرفوا ولم يجب أحد منهم

ثم جمع بنى عبد مناف فقال لهم : ان الرائد لا يكذب اهلهوالله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم والله الذى لا إله إلا هو انى لرسول الله اليكم خاصة والى الناس كافة والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ولتجزون بالاحسان احسانا وبالسوء سوءا وانها لجنة أبدا أولنار أبدا . فتكلم القوم كلاما لينا غير عمه أبى لهب بن عبد المطلب فانه قال له : تبالك ألهذا جمعتنا ؟ ثم قال : خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب فان أسلمتموه اذن ذللتم وان منعتموه قتلتم ، فقال أبو طالب : والله لنمنعنه ما بقينا . ثم انصرفوا ولم يجب أحد منهم أيضا

ثم دعا قريشا كلها الى الاسلام وعاب أصنامها وعبادتهم لها فكبر عليها ذلك ونابذته العداء بعد تلك المحبة التى كانت تظهرها له قبل نبوته

٤) مناهضة قريش له : ثم أخذ علماؤها ورؤساؤها وسفهاؤها يجتهدون فى ابطال دعوته ومناهضتها فأما علماؤها فدافعوا عن عبادتهم للاصنام وغير ذلك من شركهم بأن ذلك ما وجدوا عليه آباءهم جيلا بعد جيل ولو كان باطلا ما بقوا عليه تلك الاجيال (بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون) ثم قالوا فى عبادتهم لتلك الاصنام انا لا نعبدها لذاتها ولكننا

نتقرب بعبادتها الى الله تعالى وكانت الاصنام فى أصلها تماثيل أقيمت لأناس صالحين بعد موتهم فأخذوا فى تعظيمها حتى انتهى بهم الأمر الى عبادتها واعتقاد أنها تضر وتنفع وأن عبادتها تقرب إلى الله تعالى (ومانعبدهم الاليقربونا الى الله زلفى) فرد صلى الله عليه وسلم ذلك عليهم بأن الحق حق فى ذاته والباطل باطل فى ذاته ولو اتفقت عليه الآباء وتعاقبت عليه الأجيال (أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولايهتدون) وبأن تلك الأصنام لاتضر ولا تنفع ولايصح أن تعبد ولو على ذلك الوجه والله لايرضى أن تشاركه فى العبادة تلك الأصنام التى لاتقدر أن تدفع الأذى عن نفسها ولا أن يتقرب بعبادتها اليه وما هى إلا أحجار منحوتة لا تمتاز عن غيرها من الحجارة الا بنحتها وتصويرها (يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) .

فلما رأوا عجزهم فى هذه الناحية صاروا إلى ناحية أخرى وطالبوه أن يثبت نبوته بمثل الآيات التى أرسل بها الأنبياء قبله واقترحوا عليه منها اقتراح المتعنتين الذين لايريدون هداية وانما يريدون عنادا وتعنتاً (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا) واقترحوا غير ذلك آيات كثيرة للتعصب والعناد لا لطلب الهداية والاقتناع حتى قالوا (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) ولم يقولوا إن كان هو الحق من عندك

فاهدنا إليه . وقد كان الله تعالى أرأف بهم من أنفسهم فلم يجبهم الى تلك الآيات التى يقترحونها لانه علم أنهم لا يؤمنون بها فيصيبهم من العــذاب والهلاك فى الدنيا ما أصاب من كان قبلهم من الأمم التى اقترحت على أنبيائهــا مثلها ثم لم تؤمن بها (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا) وكانت نبوته صلى الله عليه وسلم خاتمة النبوات فلم يرد الله تعالى أن يأخذهم بهذه الآيات التى لا يعذر من لا يبادر الى الايمان بها بل يؤخذ بعذابه العاجل فى الدنيا عقب تكذيبه بها وجعل معجزته فى القرآن الكريم الذى أنزله عليه لينظروا فيــه ويتبصروا بآياته فيأخذهم بالاقناع ويسوقهم الى الايمان بالحجة فيكون أقوى فى نفوسهم وأثبت فى قلوبهم ولا يقاس به إيمان الأمم التى سبقتهم وهؤلاء بنو اسرائيل وقد أخذوا بمثل تلك الآيات المقترحة فلم يكادوا يخرجون من مصر وينجيهم الله من استعباد فرعون لهم ويغرقه فى البحر أمامهم حتى عادوا يطلبون إلى موسى أن يتخذ لهم أصناما يعبــدونها ونسوا تلك الآيات التى آمنوا بها (وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلـهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون) وقد وقعوا بعــد موسى فى عبادة الأصنام مرارا كثيرة ، ولا ننكر أن المسلمين وقعوا إلى الآن فى بدع كثيرة ولــكن ذلك لم يصل بهم الى عبادة الاصنام كما عبدها بنو اسرائيل وهــذا بفضل تلك المعجزة القرآنية الباقيــة وسوقها لهم الى الايمان بالحجة والبرهان لا بالتخويف والتهديد ، وقد كان حال الأمم فى عهد موسى وقبل هذه النبوة المحمدية يلائمه أن يساقوا الى الايمان بمثل تلك الآيات لأنها كانت أمما متجبرة وملوكا عاتية ولم يكن العــالم قد مهد العقول الى الايمــان بالحجة

والبرهان كما مهدها لذلك إلى عهد محمد صلى الله عايه وسلم

فهذا بعض ما كان من علماء قريش بازاءهذه الدعوة وأما ما كان من رؤسائها وسفهائها فانهم أخذوا يوجهون الأذى ألى النبي وأصحابه وكان من أشدهم أذى له جماعة سموا لكثرة أذاهم بالمستهزئين ومن أشدهم أبو جهل عمرو بن هشام وأبو لهب بن عبد المطلب وعقبة بن أبي معيط وهو الذى ألقى على النبي سلى (١) جزور وهو ساجد يصلى بالكعبة والمسلمون ينظرون فلم يقدر أحد منهم على القائه عنه لضعفهم ولم يزل ساجدا حتى أتت فاطمة بنته فألقته عنه. ومنهم النضر بن الحارث وكان من علماء قريش وكان إذا جاس رسول الله مجلسا للناس يحدثهم ويذكر ماأصاب من قبلهم قال النضر :هلموايامعشر قريش فانى أحسن منه حديثا ثم يحدث عن ملوك فارس وكان يعلم أحاديثهم ويقول ماأحاديث محمد الا أساطير الاولين . وهذا يعطينا نوعا آخر من مناهضة علمائهم لتلك الدعوة .

وكان أكثر من أوذى من المسلمين من لم تكن له عشيرة تحميه مثل بلال ابن رباح وكان مملوكا لأمية بن خلف فكان يجعل فى عنقه حبلا ويدفعه إلى الصبيان يلعبون به وهو يقول (أحد أحد) لايشغله ذلك عن توحيد ربه وكان يخرج به فى وقت الظهيرة فى الرمضاء وهى الرمل الشديد الحرارة لو وضعت عليه قطعة لحم لنضجت ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له لاتزل هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فيقول (أحد أحد) وقد مر به أبو بكر يوما فقال : ياأمية أما تتقى الله فى هذا المسكين حتى متى تعذبه؟فقال : أنت أفسدته فأنقذه مماترى ،فاشتراه منه وأعتقه

ومنهم عمار بن ياسر وأخوه وأبوه وأمه وكانوا يعذبون بالنار فمر بهم النبي

(١) السلى جلدة يكون ضمنها الولد فى بطن أمه

فقال : صبرا آل ياسر فموعدكم الجنة اللهم اغفر لآل ياسر . وقد مات ياسر وزوجه من العذاب أما عمار فثقل عليه العذاب وكان أبو جهل يجعل له دروع الحديد فى اليوم الصائف ويلبسه اياها ؛ فقال عمار بلسانه كلمة الكفر يتقى بها هذا العذاب ؛ فقال المسلمون كفر عمار فقال عليه السلام : عمار ملىء إيمانا من فرقه الى قدمه ؛ وأنزل الله تعالى قوله (من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم)

ومنهم خباب بن الأرت وكانت مولاته أم أنمار تأتى بالحديدة المحماة فتجعلها على ظهره ليكفر فلا يزيده ذلك إلا ايمانا وقد جاء مرة الى النبى فسأله أن يدعو الله لهم فقعد عليه السلام محمرا وجهه ثم قال : إن كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد مادون عظمه من لحم وعصب ، ويوضع المنشار على مفرق رأس أحدهم فيشق مايصرفه ذلك عن دينه وليظهرن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لايخاف إلا الله والذئب على غنمه ؛ وأنزل الله تعالى (ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون ؛ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين)

وقد أوذى المسلمون من غير هؤلاء الموالى رطردهم آباؤهم من دورهم وأذاقوهم من العذاب ألوانا ومن الاهانة صنوفا فلم يزدهم ذلك إلا ثباتا فى دينهم وحرصا على اسلامهم

٥) الهجرة الى الحبشة : اشتد أذى قريش على المسلمين ولم يقفوا فيه عند حد فقال عليه السلام لأصحابه : تفرقوا فى الأرض فان الله سيجمعكم ، فسألوه عن الوجه فأشار إلى أرض الحبشة وكان ذلك فى السنة الخامسة من البعثة .

وانما اختار لهم الحبشة لأن أهلها كانوا نصارى أهل كتاب ولا يوافقون قريشا على عبادة الأصنام فاذا التجأ اليهم هؤلاء المسلمون وعرفوا سبب التجائهم اليهم لم يسيئوا اليهم ان لم يحسنوا جوارهم . وقد كان هناك يهود أهل كتاب فى يثرب ولكن اليهود لهم من حالهم وطبيعتهم ما يمنعهم من قبول من يلجأ اليهم من غيرهم وكان هناك أيضاً نصارى نجران باليمن ولكن اليمن كانت واقعة يومئذ فى حكم الفرس وهم مجوس وكانت قريش تتعصب لهم وكان نصارى نجران عربا ربما يتعصبون لقريش بعصبيتهم ثم انه كان فى علاقة الحبشة بقريش شىء من أيام حادثة الفيل وفى هجرة المسلمين اليها تعريف لها بدينهم وهو دعوة عامة تقصد بها الحبشة وغيرها . فهاجر اليها عشرة رجال وخمس نسوة فيهم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله وأبو سلمة وزوجه أم سلمة وعبد الرحمن ابن عوف ومصعب بن عمير والزبير بن العوام وعثمان بن مظعون وكانت له الامارة عليهم فأقاموا بها ثلاثة أشهر ثم رجعوا الى مكة لأنه لم تتيسر لهم الاقامة بالحبشة لقلتهم

وقد كانت هجرتهم الى الحبشة داعية لاشتداد قريش عليهم للجوئهم الى ذلك الأجنبى الذى لم ينسوا غزوه مكة وربما ظنوا أن المسلمين يريدون الانتصار به عليهم وحمله على غزو مكة انتقاما منهم فلم يمكنوا من رجع من الحبشة الى مكة من الدخول اليها الا بمجير منهم فدخل أبو سلمة فى جوار خاله أبى طالب ودخل عثمان بن مظعون فى جوار الوليد بن المغيرة

فلما اشتد الأذى ثانيا عليهم هاجروا ثانيا الى الحبشة فى السنة السادسة للبعثة وكانوا نحو ثلاثة وثمانين رجلا وثمانى عشرة امرأة فلما رأت قريش كثرتهم هذه المرة أهمها أمرهم فأرسلت فى أثرهم عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدايا الى النجاشى لكيلا يقبلهم فى بلاده وأخبراه بأنهم يدعون الى دين

ابتدعوه لايعرفه النجاشي ولا يعرفه قومهم فأرسل اليهم النجاشي فقال لهم : ماهذا الذي فارقتم به قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل ؟ فكلمه جعفر بن أبي طالب وبين له ما كانوا يعبدونه من الأصنام وما صاروا اليه الآن من عبادة الله وحده ، فطلب منه النجاشي أن يقرأ له شيئا مما جاء به الرسول فقرأ له صدرا من سورة مريم ، فقال النجاشي : هذا والذي جاء به المسيح ليخرج من مشكاة واحدة ، فأخبره عمرو بن العاص بأنهم يقولون عن المسيح إنه عبد الله لا ابنه ، فسأل النجاشي جعفرا عما قال عمرو فقال : نقول فيه الذي جاءنا به نبينا هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ، فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منها عودا ثم قال : والله ما عدا عيسى بن مريم مما قلت هذا العود ، فأغضب هذا القول بطارقته ولكنه لم يحفل بهم وقال للمهاجرين اذهبوا فأنتم آمنون . ومن المحتمل عندي أن يكون الذي أرضى النجاشي من جواب جعفر أن النصارى أيضاً يقولون عن عيسى أنه روح الله وكلمته ولكن لذلك معناه عندهم وله معناه عندنا ولا يزال فريق منهم الى الآن يحتج بما ورد في القرآن من هذا على صحة دعواهم في عيسى أنه روح الله وكلمته صارت جسدا في رحم أمه مريم .

(٧) مقاطعتهم بني هاشم والمطلب : فلما قدم عمرو بن العاص من عند النجاشي خائباً وبلغ قريشاً إكرام النجاشي لأولئك المهاجرين رأت أن الأمر جد فطلبت من بني عبد مناف أن يسلموا اليهم رسول الله ليقتلوه أو ينهوه عن سب آلهتهم وتضليلهم ومشوا بذلك الى عمه أبي طالب وقالوا له: إما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه فانك على مثل مانحن عليه من خلافه فنكفيكه . فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا وردهم ردا جميلا فانصرفوا عنه ولكنهم وجدوا

رسول الله ماضياً فيما كان عليه فعادوا اليه ثانياً بلهجة أشد من الأولى وطلبوا منه أن ينهاه أو ينازلونه معه حتى يهلك أحـد الفريقين ، فبعث أبو طالب الى النبي وأخبره بما قالوا ثم طلب منه أن يبقى عليه وعلى نفسه ولا يحمله من الأمر مالا يطيق ، فقال له : ياعم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك ماتركته . ثم استعبر فبكى ثم قام ؛ فلما ولى ناداه أبو طالب فقال : أقبل ياابن أخى ؛ فأقبل عليه ؛ فقال: اذهب يا ابن أخى فقل ماأحببت فوالله لاأسلمك لشيء أبدا . ثم دعا عصبيته من بنى عبد مناف الى أن يقوموا معه فى حماية ابن أخيـه وهو منهم فأجابه بنو هاشم وبنو المطلب واتفق على ذلك مسلمهم ومشركهم ولم يكن قد أسلم من بنى هاشم إلا على وأخوه جعفر واثنان أو ثلاثة معهما وكان معظم المسلمين من غير الهاشميين والمطلبيين وانحاز الى قريش من بنى عبد مناف بنو عبد شمس وبنو نوفل وأبو لهب وحده من بنى هاشم

وهنا يجب أن نعرف كيف جمع بنو هاشم والمطلب فى ذلك بين شركهم وحمايتهم لمن يسب ذلك الشرك فهل كانت العصبية هى التى دفعتهم إلى ذلك كما يقول بعضهم ؟ ولاشك أن العصبية تضيع بازاء الدين والانسان يعـادى فى دينه أباه وأمه وأخاه؛ فلا بد أن شيئا غير العصبية هو الذى دفعهم الى ذلك،لابد أن الدعوة الى الاسـلام كانت قد زعزعت عقيدة الشرك فى نفوسهم فأصـبحوا لايغارون عليها كما يغار غيرهم عليها فهم كانوا مابين متردد فى دينه يؤثر الانتصار لعصبيته على الانتصار له ومابين مسلم يبطن إسلامه لمصلحة فى ذلك له،وممن أسلم بعد ذلك وكتم إسلامه لمصلحة له العباس بن عبد المطلب فقد ذكروا أن أسلم عقب غزوة بدر ثم كتم عن قريش اسلامه وصـار يكتب الى النبي بأخبارهم وقد كان العباس ذا وظيفة فيهم فلعله كان لذلك أيضاً أثر فى اخفاء اسلامه عنهم .وهذا

هو المعقول فى ذلك ولايمكن أن تحملهم العصبية عليه مع اخلاصهم لشركهم وقد كان فى هذا الموقف المضطرب مصلحة كبيرة لهذه الدعوة فكانت قريش لاتشتط فى أغضاب بنى هاشم والمطلب لماترى من ترددهم فتخاف أن يحملهم ذلك على تركها والانضمام صريحا الى هذه الدعوة فيكونون حربا عليهم ولا يكتفون بمناصرتهم السلمية لها وقد تشتط فى اغضابهم ولكنها تعود فتلين لهم . وهذا كما حدث منها بازائهم حينما انضموا الى أبى طالب فى حماية رسول الله فقد تعاقدت على اخراجهم من مكة ومقاطعتهم فلا يبيعونهم شيئا ولا يبتاعون منهم شيئا وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها فى جوف الكعبة فأخرجوهم من مكة الى شعب أبى طالب وقيل أنهم خرجوا الى هذا الشعب من أنفسهم حينما اشتد الامر بعد ذلك بين قريش وبينهم فجهدوا فيه حتى كانوا يأكلون العشب وكان لايصلهم شىء من الطعام الا خفية ومكثوا على ذلك ثلاث سنين ثم قام خمسة من أشراف قريش يطالبون بنقض هذه الصحيفة وهم: هشام بن عمرو وزهير ابن أبى أمية والمطعم بن عدى وأبو البخترى بن هشام وزمعة بن الأسود ، فاتفقوا على ذلك ليلا فلما أصبحوا غدا زهير فطاف بالبيت ثم أقبل على الناس فقال: ياأهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يبيعون ولا يبتاعون والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة ، فقال أبو جهل كذبت ، فقال زمعة له: أنت والله أكذب مارضينا كتابتها حين كتبت فقال أبو البخترى صدق زمعة ، وفعل مثله المطعم وهشام وقام المطعم فشقها وكانت الأرضة قد أكلتها فلم يبق فيها الا اسم الله وكان النبى أخبر بذلك عمه أبا طالب فكان هذا من معجزاته . فخرج القوم الى مساكنهم وزالت عنهم هذه الشدة وعاد رسول الله يدعو الى دينه فى حمايتهم ولكنه لم يلبث أن فوجىء بموت زوجه خديجة وعمه أبى طالب وكانا له خير عضد ومعين وكان ذلك فى

السنة العاشرة من البعثة فسماه الرسول عام الحزن وقد اختلفوا فى موت أبى طالب على الاسلام أوالشرك وذكر من ذهب الى أنه مات على الشرك أنه ما كان يكذب الرسول فيما جاء به بل كان يعتقد صدقه ولكنه لم يرض أن ينطق بالشهادتين إلى آخر لحظة من حياته مع الحاح النبي عليه بهما فنزل قوله تعالى « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين » وهذا لا يكفى عندى فى فهم موقفه بازاء هذه الدعوة وقد قدمت أن العصبية لا يؤثرها انسان على دينه ثم انه كيف يعتقد صدق هذه الدعوة ولا يقر بالشهادتين ويعرض نفسه لجزاء من كفر بها مع اعتقاده بصدقها والحق أن أبا طالب كان مؤمنا وكان النبي يعرف إيمانه ولكنه رأى أن يخفى إيمانه عن قريش لئلا ينالوه بالأذى وكان ذا مقام كبير فيهم فلم يشأ أن يعرضه لسفاهتهم ووافقه الرسول على ذلك وربما رأى فيه مصلحة لدعوته ولقومه لأنه كان مع أذاهم له حريصا على ايمانهم ولا يحب أن يذهبوا فى أذاه مذهبا يصيبهم به من العذاب فى الدنيا ما أصاب الأمم قبلهم وكان فى ظهور أبى طالب بهذا المظهر مع حفظ منزلته بينهم ما منعهم من أن يذهبوا فى مقاومة هذه الدعوة ذلك المذهب بل كانوا يشتدون ثم يلينون رعاية له ولمن ظهر من بنى هاشم والمطلب بمظهره .

(٨) دعوته العرب : وجد النبي من قومه هذا الأعراض فولى وجهه إلى العرب يدعوهم إلى هذا الدين الذى أعرض قومه عنه فصار يعرض نفسه فى موسم الحج عليهم وكان يقف عليهم بمنى فيقول : يابنى فلان إنى رسول الله اليكم يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأن تخلعوا ماتعبدونه من دونه من هذه الانداد وأن تؤمنوا بى وتصدقوا بى وتمنعونى حتى أبين عن الله مابعثنى به . وكانت قريش تبعث وراءه من يصد القبائل عنه ويقول فيه

مرة انه كاهن ومرة انه ساحر ومرة انه شاعر ومرة انه مجنون فكان أكثر القبائل يعرض عنه ولا يجيبه الا أفراد منهم مثل الطفيل بن عمرو الدوسى وكان شريفا فى قومه شاعرا نبيلا فأسلم وتبعه كثير من قومه . ومثل ضمار بن ثعلبة من أزد شنوءة وكان صديقا للرسول فى الجاهلية فلما سمع مايفترى أهل مكة عليه ذهب اليه ليداويه فدعاه الى الاسلام فأسلم

(٩) قبول بعض اليثربيين دعوته : كانت يثرب المدينة الثانية فى الحجاز بعد مكة وقد ذكرت بما يقرب من هذا الاسم فى آثار المعينيين وذكرها بطليموس اليونانى فى كتابه فى الجغرافيا وتقع فى سهل ينحدر على هينة الى الشمال فيحده منه جبل أحد ومن الجنوب الشرقى جبل عسير وهما شعبتان من سلسلة جبال السراة التى تفصل بين نجد وتهامة ويحده من الشرق والغرب الحارتان (الشرقية والغربية) وأرضها طيبة خصبة وتجرى بها بعد الأمطار أودية كثيرة تسيل من الجنوب ويكثر بها النخيل وشتاؤها بارد ممطر وصيفها معتدل

وقد نزح اليها طوائف من اليهود حينما بطش الروم بهم فى الشام قبيل الميلاد المسيحى وكانوا يعيشون بطونا مثل العرب لقدم عهدهم بينهم فمنهم بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع ويهود خيبر وغيرهم فاستثمروا هذه الأرض الخصبة وزرعوها وأنشأوا بها حصونا كثيرة تدفع عنهم عادية من يغير عليهم من العرب وغيرهم وكان يقيم بينهم عشائر من العرب من غسان وبلى وسليم وغيرهم وقد كثر اليهود حتى صاروا بضعا وعشرين عشيرة لهم ٥٩ أطما (١) وكان للعرب ١٣ أطما ثم كثر العرب بيثرب وجاء الأوس والخزرج من الأزد فنزلوا بها فمنهم من لجأ الى عفاء من الأرض لا ساكن به فنزل به ومنهم من لجأ الى قرية من قراها فأقام مع أهلها ومكثوا فى ضيق من العيش مع اليهود وقد عسفوا بهم وتجبروا عليهم فاستعانوا عليهم بالغساسنة ملوك الشام وهم من الأزد مثلهم فأوقعوا بهم

(١) حصنا

وظهروا عليهم وكان ذلك فى القرن السادس الميلادى ثم أخذ الأوس والخزرج يفعلون مع اليهود مثل ما كانوا يفعلون معهم فكانوا يظلمونهم ويبغون عليهم فكان اليهود ينذرونهم بما وعدت به التوراة من ظهور نبي يرفع شأن الموحدين على عباد الأصنام وكان كثير منهم يظنون أنه سيكون منهم ولا يزالون الى الآن ينتظرون ظهوره ، ولكن نص التوراة صريح فى أنه يكون من إخوتهم وهم بنو اسماعيل بن ابرهيم قوم النبي صلى الله عليه وسلم واليهود أبناء إسحاق بن ابرهيم عليهما السلام (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين)

وكان الأوس والخزرج يسمعون هذا الانذار فيخيفهم ويحدث فى نفوسهم تطلعاً الى هذا النبي المنتظر ولم يكن هذا يجعلهم يخففون من عداوتهم لأولئك اليهود لما جبلوا عليه من إثرتهم لأنفسهم وذهابهم فى ذلك مذهباً يبغض الناس فيهم ويجعل أولئك الوثنيين من الأوس والخزرج يؤثرون وثنيتهم على يهوديتهم

ثم انقسم الأوس والخزرج على أنفسهم قبيل الاسلام وبعد ظهورهم على اليهود ووقعت بينهم حروب غلبت فيها الخزرج الأوس فأرادت أن تحالف قريشاً على الخزرج فأرسلت اليها وفدا فيهم أنس بن رافع وإياس بن معاذ فسمع بهم النبي فأتاهم فجلس اليهم وقال لهم : هل لكم فى خير مما جئتم له؟ فقالوا له وما ذلك؟ قال أنا رسول الله بعثنى الى العباد أدعوهم الى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا وأنزل على الكتاب. ثم ذكر لهم الاسلام وتلا عليهم القرآن ، فقال إياس بن معاذ وكان غلاما حدثاً أى قوم هذا والله خير مما جئتم له ، فأخذ أنس حفنة من البطحاء فضرب بها

وجه إياس وقال: دعني منك فلعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس وقام رسول الله وانصرفوا الى بلادهم فحصلت حرب بينهم وبين الخزرج انتصروا فيها عليهم وهي حرب بعاث التي وقعت قبل الهجرة بخمس سنين وهي آخر حروبهم. وقد جاء في الموسم الذي بعدها نفر من الخزرج الى مكة ستة رجال فيهم أسعد بن زرارة وجابر بن عبد الله فعرض عليهم النبي الاسلام فأسلموا وقالوا انه للنبي الذي توعدنا اليهود به فلا تسبقنا اليه وذكروا له أنهم تركوا قومهم وبينهم من العداوة مابينهم وعسى الله أن يجمعهم به . فكان من أسباب هدايتهم مجاورتهم لليهود وسماعهم منهم حديث ذلك النبي المنتظر وما كان بينهم من شقاق رجوا أن يزول بهذا الدين الجديد وما كانوا يشعرون به من نقص ديني بازاء مجاوريهم من اليهود

وقد عاد هؤلاء النفر إلى بلادهم وهي ذلك البلد الخصب الطيب فدعوا أهلها إلى الاسلام فبادروا اليه حتى لم تبق دار من دورهم إلا وفيها ذكره وامتازت بهذا على مكة التي أثرت شدتها وصلابة أرضها فى نفوس أهلها وزرعت فيها زعامتهم للوثنية العربية غرورا شديدا بها وخوفا عليها أن تفلت منهم بهذه الدعوة فتعصبوا ذلك التعصب الأعمى عليها

فلما كان الموسم المقبل وفد الى الحج اثنا عشر من الأوس والخزرج فيهم الستة الأولون ما عدا جابر بن عبد الله فاجتمعوا بالنبي عند العقبة وبايعوه على ألا يشركوا بالله شيئا ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ولا يعصونه فى معروف فان وفوا فلهم الجنة وإن غشوا من ذلك شيئاً فأمرهم الى الله عز وجل ، وهذه هي العقبة الأولى وقد أرسل إليهم مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم يقرئانهم

القرآن ويفقهانهم فى الدين فانتشر الاسلام بهما فى يثرب أكثر مما كان انتشر

ولما كان الموسم الذى يلى البيعة الأولى قدم مكة كثير منهم للحج وكانوا يبلغون ثلاثة وسبعين رجلا وكان معهم امرأتان وبعض مشركيهم فكتموا أمرهم عنهم وقابل وفدهم رسول الله فواعدهم المقابلة ليلا عند العقبة فلا تعلم قريش بأمرهم فذهبوا إليها فى خفية الرجل والرجلين ووافاهم اليها الرسول ومعه عمه العباس وهو فيما يقال على شركه ، فلما اجتمعوا قال العباس لهم : إن محمدا منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه وإنه قد أبى إلا الانحياز اليكم واللحوق بكم فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به اليكم فمن الآن فدعوه فانه فى عز ومنعة من قومه وبلده ؛ فقالوا قد سمعنا ما قلت ، ثم تكلم النبي فتلا القرآن ورغب فى الاسلام ثم قال : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، فبايعوه على ذلك ثم قال أحدهم يارسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ ويعنى اليهود وكانوا قد عاهدوهم حينما اقتسموا على أنفسهم ووقعت تلك الحروب بينهم وضعف بها أمرهم ، فتبسم الرسول ثم قال : بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم . وهذه هى العقبة الثانية أو الكبرى ، وكانت فى السنة الثالثة عشرة من البعثة

وقد علمت قريش بتلك البيعة من بعض جواسيسها فذهبت إلى حجاج يثرب فأنكروها وحلف على ذلك مشركوهم لأنهم لم يعلموا بها ولكنها لم تطمئن بذلك وزادت بعد ذلك وثوقا بها فأهمها أمرها وزادت فى أذى المسلمين من

أبنائها فأمرهم النبي بالهجرة إلى المدينة وهو الاسم الذى أخذ يغلب على يثرب حتى صار علما عليها وكانت هذه هى الفتنة الثانية بعد الفتنة الاولى التى هاجروا منها إلى الحبشة فأخذوا يهاجرون اليها فرادى وجماعات حتى لم يبق بمكة غير من قعد به العجز عن الهجرة وغير الرسول وأبى بكر وعلى من القادرين عليها وكانوا يتسللون اليها خيفة قريش أن تمنعهم ولم يهاجر جهرة الا عمر رضى الله عنه لجراءته عليها

٩) هجرته الى المدينة : عزم ﷺ على الهجرة الى المدينة بعد بيعة العقبة الكبرى وكانت بيعتها تدور على حمايتهم له عند هجرته اليهم فرأى أن يهاجر أصحابه قبله اليها لئلا تفتنهم قريش أو تفتك بهم اذا هاجر قبلهم وما كان قلبه الرحيم بهم يطاوعه على أن يهاجر ويتركهم فلما رأت قريش أن أكثر أصحابه قد هاجر إلى المدينة وأنه أصبح له بها شيعة من أهلها حسبت للأمر حسابه وعلمت أنه لابد مهاجر بعد أصحابه فاجتمعت فى دار ندوتها تتشاور فى أمره فاشار بعضهم بمنعه عن الهجرة وحبسه فى دار تغلق عليه حتى يموت بها فلم يرضهم هذا لأنه إذا بقى حيا محبوسا بهذا الحال فلا يصبر عليه قومه ولا تتركه شيعته وقد كثرت هذه الكثرة ، وأشار بعضهم بتركه يهاجر ليستريحوا منه وتعود اليهم ألفتهم كما كانت فلم يرضهم هذا أيضا لأنهم خشوا أن يظهر أمره فى دار هجرته فلا يتركهم بل يقتص بما فعلوه معه ومع أصحابه ، وأشار أبو جهل بقتله وأن تشترك فيه كل بطون قريش بفتى فيضربوه ضربة رجل واحد فينفرق دمه فيهم ولا يقوى بنو هاشم والمطلب على حرب قومهم جميعا فيرضون بديته وتتفرق شيعته وتعود إلى دينها القديم ، فرضوا هذا الرأى وعزموا على تنفيذه وعينوا القتله والليلة التى ينفذون القتل فيها فعلم النبي بما دبروا وقد مضى على بيعة العقبة أكثر من شهرين هاجر فيها من أشار

عليهم بالهجرة فبادر بتنفيذ ما عزموا عليه من الهجرة ألى المدينة وأخبر أبا بكر بعزمه ليهاجر معه فعرض عليه أبو بكر احدى راحلتيه وهيأ ما يلزم للسفر واصطحبا دليلا خريتا (١) يأخذ بهما أقرب الطرق وخرجا فى الليلة التى عينتها قريش للقتل من خوخة لأبى بكر فى ظهر بيته ثم عمدا الى غار بجبل ثور فى أسفل مكة فاختفيا فيه ثلاثة أيام حتى انقطع الطلب عنهما ثم خرج بهما الدليل حتى وصل إلى المدينة فنزل بقباء على بنى عمرو بن عوف فى اليوم الثامن من شهر ربيع الأول (٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ م)

(١٠) تشريعه بمكة : مضى عليه بمكة ثلاث عشرة سنة شرع فيها للمسلمين من الأصول والفروع الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والصلاة والزكاة وغيرذلك ونزل فيها معظم القرآن وأكثر سوره وفيها الطويل والقصير وهوأكثرها وتسمى السور المكية وتسمى الأخرى السور المدنية وفيها الطويل والقصير أيضا ولكن طوالها أطول من الأولى

بعد الهجرة

فى المدينة

كان أول ماأخذ النبي ﷺ يفكر فيه بعد هجرته إلى هذا الوطن الجديد الذى آمن أهله به أن ينظم حال أهله ويرتب العلاقات بين المهاجرين من قريش والأنصار من الأوس والخزرج وهو الاسم الذى اختاره الله لهم ليجمع بينهم به وينسوا فيه ما كان فى الجاهلية من العداء بينهم وكان فى المدينة غير المهاجرين والأنصار أقلية من الأوس والخزرج بقيت على شركها مجاهرة به أو منافقة

(١) الخريت الدليل الحاذق

فيه وكذا بطون اليهود السابقة فانه لم يسلم من اليهود بعد الهجرة إلا أفراد قايلون مثل عبد الله بن سلام وغيره ممن عرف أن هذا النبى هو المبشر به فى التوراة وبقى جمهورهم على يهوديتهم لأنهم كانوا يظنون أن النبي المبشر به يكون من اليهود لا من العرب وأنه هو الذى يعيد لهم سلطانهم الزائل وملكهم الضائع فهم يطلبونه للدنيا لا للآخرة ولأنفسهم لا للعالم كله كأن الله لم يخلق فى هذه الدنيا غيرهم ولم يعلموا أنه لابد بعد هذه النبوات الخاصة من نبوة عامة تكون خاتمة لها وأن طبيعتهم لا تصلح لهذه النبوة العامة . فكان لابد أيضا من تنظيم العلاقة بين المسلمين وبين هؤلاء اليهود والمشركين من أهل المدينة وقد اقتضى ذلك كله أن يقوم النبى لأول هجرته بهذه الأمور:

(١) إنشاء المساجد : كان النبي فى مكة مضيقا عليه ممنوعا من اظهار دينه فلما وصل فى هجرته إلى قباء أقام فيها ليالى أسس فيها مسجد قباء وصلى فيه بمن معه من المهاجرين والأنصار ثم سار من قباء وكلما مر على دور من دور الأنصار يسأله أهلها أن ينزل عليهم ويأخذون بزمام ناقته فيقول : دعوها فانها مأمورة ، فلما وصلت إلى دار أبى أيوب الأنصارى من بنى النجار أخوال أبيه عبد الله بركت أمامها فقال : هاهنا المنزل انشاء الله ، فاحتمل أبو أيوب رحله ووضعه فى منزله وخرجت ولائد بنى النجار بالدفوف يقلن :

نحن جوار من بنى النجار   ياحبذا محمد من جار

فقال لهن : أتحببننى ؟ فقلن نعم ، فقال : الله يعلم أن قلبي يحبكن ، ونزل بدار أبى أيوب أياما ثم أخذ ببناء مسجده فى مبرك ناقته أمام دار أبى أيوب وكان فيه قبور وبعض حفر ونخل فأمر بالقبور فنبشت وبالحفر فسويت وبالنخل فقطع وشرع فى بنائه من اللبن وعمل فيه بنفسه حتى تم فسقفوه بالجريد وجعلوا

عمده من جذوع النخل وفرشوا أرضه بالحصباء وجعل عليه السلام قبلته إلى بيت المقدس ثم حولت الى الكعبة وبنى بجانبه حجرتين إحداهما لزوجه زمعة والأخرى لعائشة ولم يكن له يومئذ غيرها ثم أضاف اليهما حجرا أخرى لأزواجه الأخر . وكان اليهود يستعملون البوق فى الاعلان عن صلاتهم والنصارى يستعملون الناقوس فشرع الأذان للمسلمين فى الاعلان عن صلاتهم وهو نداء مفهوم خير من صوتى البوق والناقوس

(٢) المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار : لما بقيت أقلية من الأوس والخزرج على شركها أراد رسول الله أن يجعل رابطة الاسلام بين المهاجرين والأنصار أقوى من رابطة النسب بين الأنصار وتلك الأقلية المشركة منهم فآخى بين المهاجرين والأنصار وجمعهم فى دار أنس بن مالك وقال لهم : تآخوا فى الله أخوين أخوين ، وكان هذا الاخاء على المواساة والحق ، وجعل رابطة الاسلام فوق رابطة العصبيات فيما لو قتل مثلا مشرك من الأوس والخزرج مسلما أو قتل مسلم مشركا منهما ، وأن يورث بهذا الأخاء بعد الموت دون ذوى الأرحام وقد مكثوا يتوارثون بذلك إلى أن نزلت آية الأنفال بعد موقعة بدر (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله)

وكان رسول الله قد آخى قبل هجرته بين من آمن به فى مكة واتخذ عليا رضى الله عنه أخاله فلما أحدث ذلك الأخاء بالمدينة لم يترك فيه تلك الأخوة ولم يكن فيه اخوة بين مهاجرين غيرها وليس الرسول كغيره يسهل ترك أخوته فلهذا لم يستبدل بأخوة على غيرها لئلا يشق بذلك عليه

(٣) موادعة اليهود : ثم وادع يهود المدينة وماحولها وأقرهم على دينهم وأموالهم وصالحهم على ترك الحرب والأذى وألا يعينوا عليه أحدا وأن بينهم النصر على من دهم يثرب وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فانهم

يصالحونه ويلابسونه ، ثم وادع المشركين من الأوس والخزرج مثل ما وادع اليهود وقبل اسلام من تظاهر بالاسلام منهم ثم نافق فيه وأبطن الكفر وبهذا أصبح المسلمون فى المدينة أمة وحدهم وبقى للعشائر استقلالها وعاداتها الاولى فى الديات وفداء الأسرى ولكن على المسلمين جميعا أن يعينوا من ثقلت عليه دية أو فداء

شرع القتال

مكث النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى الاسلام بالسلم ثلاث عشرة سنة يتحمل فيها من الأذى والعذاب فى نفسه وأصحابه ماذهب بنفوس كثير منهم حتى أجاب له بذلك من أجابه من أهل مكة والمدينة ثم رأى أن يهاجر إلى المدينة فهاجر اليها وسالم من بقى من أهلها على دينه وأقره عليه وكل هذا يدل على أن الأصل فى الدعوة إلى الاسلام أن تكون بالسلم وأن القتال حينما شرع فيه لم يشرع ليكون وسيلة من وسائل الدعوة اليه بل لأجل حمايته من أعدائه ودفع الأذي عن أهله فهو لا يصير اليه إلا مضطرا ويؤثر السلم عليه متى أمكن (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ، وإن يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم) وفى هذا أظهر دلالة على ميل الاسلام إلى مسالمة خصومه إذ يأمر المسلمين بالسلم إذا جنح خصومهم له ولو لم يكونوا مخلصين فيه بأن كانوا يريدون خداعهم به

وقد شرع القتال بعد الهجرة على هذا الأساس فلا يقصد منه أن يكون وسيلة فى نشر الدعوة ولا أن يوجه إلى كل مخالف فى العقيدة ولو لم يتقدم إلى أهلها بحرب أو أذى ، وهذه هى الآيات التى نزلت فى شرع القتال تنادي بذلك

(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) وكل الآيات التى نزلت بعد ذلك فى القتال لا تخرج فيما تقصد اليه منه عن هــذه الآيات ؛ وحديث (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فاذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم) لا يخرج عن ذلك أيضا فالناس الذين أمر بقتالهم لا يقاتلون حتى يدعوا بالسلم إلى الاسلام فاذا ناوؤا قوتلوا وإذا لم يناوئوا ولم يؤذوا من يجيب منهم لم يقاتلوا لأن قوة الاسلام كفيلة بجذبهم اليه بدون قتال ماداموا بعيدين عن المناوأة التى تعمى صاحبها ولا تجعله يفكر فى أمره بهدوء وحكمة ، والنبى ﷺ مأمور بتبليغ دعوته إلى كل الناس فلابد له أن يبلغ دعوته اليهم وعليهم أن يجيبوا أو يسالموا ولا يصح لهم أن يناوئوا وإن الشرائع المعمول بها الآن لتكفل لكل داع الى شيء هــذا الحق مع أنه ليس مكلفاً بتبليغ دعوته من الله عز وجل فاذا وقعت حروب بسبب مناوأة المدعوين فتكون المؤاخذة فيها عليهم لا على من يدعوهم الا اذا كانت دعوته الى شر ظاهر أو أمر منكر لأنه ليس له حق فى دعوته : أما غيره فله الحق فى الدعوة ولو كانت تترتب عليها تلك المناوأة ولا يمكن أحدا أن يسوغ منع دعوة صالحة لمناوأة تترتب عليها وما من دعوة صالحة حدثت فى العالم وكان لها هذا الأثر العظيم فى نهوضه الا وقوبلت بالمناوأة فلو سوغنا منعها لذلك لكان العالم الآن فى حالة يرثى لها من التأخر والانحطاط والفساد والشقاء ومثل هذا فى الضرر أن تمنع مقابلة مناوأة الدعوات الصالحة بمثلها عند القدرة عليها لما يترتب على

ذلك من ضعف هذه الدعوات أو اختفائها وحرمان العالم من خيرها

وكانت قريش أول من شرع للمسلمين قتالها دون غيرها من العرب فلما اتحدوا معها على المسلمين شرع قتالهم كافة قال تعالى (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) وقد فعلت قريش مع المسلمين ما فعلت حتى أخرجتهم من ديارهم واستولت على أموالهم ولم تكف عن أذى الضعفاء من المسلمين الذين بقوا بينها ولم يمكنهم أن يهاجروا إلى اخوانهم بل عزمت على حرب المسلمين بالمدينة وأخذت تعد العدة لذلك وأرسلت ألى عبد الله بن أبى وكان رأس المنافقين بالمدينة : انكم آويتم صاحبنا وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم ، فسمع النبي بهذه الرسالة فذهب الى ابن أبى فلم يجب قريشا الى ماسألوه ؛ ثم ذهب سعد ابن معاذ معتمرا بعد الهجرة ونزل على أمية بن خلف فلقيهما أبو جهل فقال له : ألا أراك تطوف بمكة آمنا وقد آويتم الصباة أما والله لولا أنك مع أبى صفوان مارجعت الى أهلك سالما ، فقال له سعد ورفع صوته : أما والله لئن منعتنى هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه طريقك على المدينة ، فقال له أمية : لا ترفع صوتك يا سعد على أبى الحكم سيد أهل الوادى

فلم يكن هناك بد من قتال قريش ومن يمالئها من العرب وأن تخلص مكة وهى أم القرى العربية من سلطان الوثنية المتغلب عليها وأن يطهر بيت الله من الاوثان القائمة فيه واذا كان السلم لم ينفع فى ذلك فليكن الحرب بعد أن استوجبوه بايذائهم الرسول واخوانه المهاجرين واستمرارهم على أذى من بقى بينهم من المسلمين وتحرشهم بهم بعد هجرتهم وعزمهم على قتالهم حتى صار المسلمون فى حالة خوف منهم وروى الحاكم أنه لما قدم النبى المدينة رمتهم العرب عن قوس واحدة ، فكانوا لايبيتون الا فى السلاح ولا يصبحون الا

فيه وتلك حالة لا يمكنهم أن يتفرغوا فيها لأعمالهم واصلاح شؤونهم فى دنياهم وأخراهم وقد رأى النبى أن يبدأهم بالقتال قبل أن يبدءوه به بعد أن تلطف معهم كل هذا التلطف من أول بعثته ومتي صار الامر الى القتال فمن خطل الرأى أن يقال انه كان عليه ألا يقاتلهم حتي يبدءوا بقتاله مع أنهم قاتلوه وآذوه وأخرجوه من وطنه وقد كان المسلمون قلة بين العرب فلم يكن من الحكمة أن ينتظروا حتى تجمع قريش العرب كلها عليهم والأعداء يحيطون من كل جانب بهم ولعل من حكمة ذلك أن يظهر لهم قوته حتى لا يطمعوا فيه وقد بدىء القتال بسرية بعثها مع عمه حمزة يبلغ عددها ثلاثين رجلا من المهاجرين ليعترضوا عير القريش آتية من الشام فيها أبو جهل وثلثمائة من المشركين فسار حمزة حتى وصل الى ساحل البحر من ناحية العيص (١) فصادف العير هناك فلما تصافوا للقتال حجز بين الفريقين مجدى بن عمر والجهنى

وقد بلغت السرايا والغزوات (٢) زهاء ٢٧ غزوة و٤٠ سرية ولا تخرج أسبابها وأغراضها عن هذه الأمور :

«١» استطلاع أخبار العدو وتخويفه ومنعه من الاستعداد للحرب مثل السرايا والغزوات التى حصلت قبل غزوة بدر الكبرى

«٢» الدفاع عن النفس والمال والدين مثل غزوة أحد والأحزاب وحنين

«٣» القصاص ومقابلة العدوان بمثله كما فى غزوة بنى لحيان فى السنة السادسة من الهجرة للاقتصاص منهم بما قتلوه من المسلمين يوم الرجيع

«٤» حماية الدعوة الاسلامية من غدر القبائل مثل السرايا التى كانت بعد فتح مكة

ولم يكن يقصد فى هذه الغزوات والسرايا الحصول على الغنائم كما كان يقصد

(١) عرض من أعراض المدينة وناحية منها (٢) الغزوة ماخرج النبي فيها بخلاف السرية

من حروب الجاهلية بل ذم فى القرآن من يحارب من المسلمين لأجلها (تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة) وجاء فى سنن أبى داود أن من حارب للغنائم لا أجر له . فكانت الغنائم تؤخذ فيها لا عن قصد وكانت تصرف فى مصالح عامة ولا يقصد من الحصول عليها إشباع شهوة النفس

وقد سن للحروب الاسلامية قواعد تسير عليها ولم يكن للحروب قواعد تراعى فيها قبلها وذلك مثل مراعاة العهد ، وتحريم الغدر ، ومنع التخريب والافساد ، وتحريم قتل النساء والاطفال والشيوخ ، والاحسان إلى الأسرى وإطلاقهم بعد الحروب بفداء أو لمجرد الاحسان والمن

أشهر الغزوات مع العرب

بدر الكبرى

تقع بدر بين مكة والمدينة على ٢٨ فرسخا من المدينة وفى سهل يحده من الشرق جبال ومن الغرب كثبان من الرمل وبه آبار كثيرة ونخيل وزرع وكانت بدر من منازل القوافل التجارية بين الشام والمدينة

وكانت قريش فى السنة الثانيه من الهجرة خرجت بأعظم عير لها إلى الشام حتى لم يبق بمكة قرشى أو قرشية لها مثقال فصاعدا إلا بعث به فى تلك العير وكان على رأسها أبو سفيان بن حرب ومعه بضعة وعشرون رجلا فخرج لها الرسول فى جمادى الأولى حتى بلغ العشيرة فوجدها قد سبقته إلى الشام فرجع إلى المدينة ينتظر رجوعها فلما سمع برجوعها ندب إليها أصحابه فخرج لثلاث ليال خلون من شهر رمضان فى ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا وترك على المدينة عبد الله بن أم مكتوم ولم يكن معهم إلا فرسان وسبعون بعيرا يعتقبونها

وخروجه عليه السلام بهذا القدر فى حين أن العير لم يكن معها إلا بضعة وعشرون رجلا يدل على أنه لم يكن يقصد العير وحدها وإنما كان يقصد جهاد العدو الذى كان يعلم أنه لا بد أن يخرج لحماية تجارته ولو كان يقصد أخذ التجارة وحدها لم يكن هناك ما يؤخذ عليه بعد أن سلبتهم قريش أموالهم وأخرجتهم من ديارهم.

فلما دنا أبو سفيان من الحجاز تجسس الأخبار فعرف أن المسلمين خرجوا له فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى فبعثه إلى مكة فأتاها وقد جدع بعيره وحول رحله وشق قميصه وصاح (يامعشر قريش اللطيمة اللطيمة أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أرى أن تدركوها الغوث الغوث) فأدركتهم حميتهم ونفروا سراعا ولم يتخلف من اشرافهم إلا أبو لهب بن عبد المطلب وأراد أمية بن خلف أن يتخلف فلم يزل به أبو جهل حتى خرج وكذلك عزم جماعة من أشرافهم على التخلف فعيب عليهم ذلك فخرجوا وكان عدد من خرج منهم تسعمائة وخمسين رجلا معهم مائة فارس وسبعمائة بعير

ولما بلغ النبى الروحاء (١) جاءه الخبر بمسير قريش بهذا العدد لحماية عيرها وان العير ستصل بدرا غدا أو بعد غد فجمع أصحابه وقال لهم : أيها الناس إن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين أنها لكم العير أو النفير ، فأراد بعضهم العير لما فيها من المال وقلة من بها من الرجال (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم) وفى هذا دليل أيضا على أنه كان يقصد من تلك الغزوة القتال لا المال ، فقام المقداد بن الأسود فقال: يارسول الله امض لما أمرك الله والله لو سرت بنا إلى برك الغماد (٢) لجالدنا معك من دونه

---

(١) موضع على ثلاثين ميلا من المدينة فى جنوبها الغربى

(٢) موضع أقصى أراضى هجر

حتى تبلغه ، فدعا له بخير ثم التفت إلى الأنصار يأخذ رأيهم لأنهم بايعوه فى العقبة على نصرته ما دام بين أظهرهم ولم يبايعوه على أن يحاربوا معه خارج ديارهم ، فقام سعد بن معاذ سيد الأوس فقال مثل ما قال المقدادفأشرق وجهه وسر بذلك وقال : أبشروا والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم

ثم ارتحل بهم حتى صار قريبا من بدر فبلغه أن أباسفيان ساحل بالعير فنجا وان قريشا وراء وادي بدر وكان أبو سفيان أرسل اليهم يطلب منهم العودة لنجاة العير فقال أبو جهل : لا نرجع حتى نحضر بدرا فنقيم فيه ثلاثا ننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبدا فأشار الأخنس بن شريق الثقفى حليف بنى زهرة عليهم أن يرجعوا فرجعوا ورجع معهم بنو عدى ثم سار من بقى منهم حتى نزلوا عدرة (١) الوادى القصوى عن المدينة فى أرض سهلة لينة أما المسلمون فساروا حتى نزلوا بعدوة الوادى الدنيا من المدينة فى أرض سبخة لاماء فيها ثم ساروا حتى نزلوا على أول ماء من بدر فأتى الحباب بن المنذر رسول الله وقال له :يارسول الله أهذا منزل أنزلكه الله أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فقال بل هو الرأى والحرب والمكيدة فأشار عليه بأن ينهض حتى ينزل أدنى ماء منهم ثم يغور ماعداه من القلب(٢) حتى لاتجد قريش ماء تشربه . فوافقه النبي على ذلك وفعل كما أشار لينقطع أمل قريش فى الشرب من ورائهم وبنوا للنبي عريشافوق تل مشرف على ميدان الحرب ليشرف منه على القتال إذا دار

وجاءت صبيحة ١٧ من شهر رمضان فتراءى الجمعان على عدوتى الوادى فنظم عليه السلام صفوف المسلمين ولاصق بينهم حتى صاروا كأنهم بنيان مرصوص وكان بعض زعماء قريش قد تهيب القتال وأشار عليهم أن يرجعوا ولايؤرثوا

(١) شاطئه (٢) الآبار جمع قليب

الحرب فلم يسمعوا له وابتدأ القتال بين الفريقين بالمبارزة فخرج من صفوف المشركين ثلاثة : عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وابنه الوليد وأخوه شيبة ، فخرج لهم ثلاثة من الأنصار فلم يرضوا بهم وطلبوا أكفاءهم من بني عمهم فخرج لهم حمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث بن المطلب وعلى بن أبى طالب فلم يمهل حمزة شيبة أن قتله ولم يمهل على الوليد أن قتله واختلف عبيدة وعتبة ضربتين كلاهما جرح صاحبه فحمل على وحمزة على عتبة فذففا عليه واحتملا عبيدة إلى صفوف المسلمين . ثم ابتدأ بعد ذلك الهجوم بين الفريقين والنبي فى عريشه ومعه رفيقه أبو بكر وحارسه سعد بن معاذ فصار يدعو ربه ويقول (اللهم أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد) فقال له أبو بكر : حسبك فان الله سينجز لك وعدك ، فخرج من العريش وهو يقول (سيهزم الجمع ويولون الدبر) فلم تكن إلا ساعة حتى هزموا وقتل جمع من صناديدهم فيهم أبو جهل وأمية بن خلف وأسر منهم نحو سبعين منهم النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط فأمر النبي بقتلهما لما كان منهما من شدة الأذى للمسلمين بمكة

واذا نظرنا إلى قلة عدد المسلمين واستعدادهم للقتال وكثرة عدد المشركين واستعدادهم وجدنا أن هذا النصر لم يتم للمسلمين بحسن استعداد ولا بكثرة عدد وأن بعضهم لم يكن ينتظره وكان يفضل لقاء العير على النفير خشية منه ولأنه خرج ولم يتهيأ لقتاله وانما تم لهم النصر بتأييد الله واغترار قريش بكثرتها وقد أيدهم الله بايات من عنده كان لها أثرها فى تثبيت قلوبهم والقاء الرعب فى قلوب أعدائهم حتى كانوا يتهيبون قتالهم قبل لقائهم ويبدو ذلك مرة منهم بعد مرة وقد قال الله تعالى فى ذلك (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة)

وقد أرسل النبي من بشر أهل المدينة بنصرهم وكان المنافقون واليهود قد أرجفوا بالرسول والمسلمين ففرحوا بذلك ثم قفل راجعا الى المدينة وقسم

الغنائم بينهم كما أنزل الله فى سورة الأنفال التى نزلت فى هذه الغزوة وكانوا قد اختلفوا فى قسمتها كما اختلفوا فى أمر الأسرى فأشار عمر بقتلهم وأن يتولى قتلهم أقرباؤهم من المهاجرين فيقتل كل مهاجر قريبه من المشركين وأشار أبو بكر بعدم قتلهم وأن يطلقوا بفداء يؤخذ منهم فيكون قوة للمسلمين عليهم وهم أهلهم وأقرباؤهم وعسى الله بعد ذلك أن يهديهم ، فقال ﷺ : إن الله ليلين قلوب أقوام حتى تكون ألين من اللبن وان الله ليشدد قلوب أقوام حتى تكون أشد من الحجارة وان مثلك ياأبا بكر مثل ابرهيم قال (فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم) وان مثلك ياعمر مثل نوح قال (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) ثم اختار رأى أبى بكر وأطلق الأسرى بالفداء للقادرين عليه ومن على غير القادرين وكلف من يعرف القراءة والكتابة منهم بتعليم عشرة من اطفال المسلمين وفى هذا عناية منه بنشر هذا النوع من التعليم الذى تعنى به الأمم الآن لتثقيف أمته ومحاربة الأمية التى كانت منتشرة فيها

وقد ذكروا هنا ان الله لم يرض بعد ذلك بالفداء وأن النبى اختار رأى أبى بكر باجتهاده لا بوحى من الله له فانزل الله فى عتابه من سورة الأنفال التى نزلت فى هذه الغزوة (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) ولا يخفى أن رأى أبى بكر هو الموافق لما ذكرنا فيما تمتاز به الحروب الاسلامية من الرفق بالأسرى والاحسان إليهم وقد قتل فى هذه الغزوة صناديد قريش وقتل شخصان من الاسرى كانا من أولئك الصناديد ولم يبق فى الاسرى الا أناس لم يقدموا للمسلمين فى مكة من الأذى مثل ما قدم اولئك الصناديد وما قيمة هؤلاء السبعين إذ اطلقوا من

الامر واستعملت معهم الرحمة بجانب ما تكفل الله به من نصر رسوله وقد نصره ببدر وهو فى تلك القلة

والحقيقة أن الله كان أمر المسلمين قبل البدء فى القتال بألا يرفقوا فى قتال المشركين ويراعوا القرابة بينهم فيظفروا بهم وكانت المصلحة فى ذلك الوقت تقتضى هذه الشدة فى قتالهم لقلة المسلمين فى بلاد العرب وكثرة المشركين المحيطين بهم وقد قال الله تعالى فى ذلك من هذه السورة (سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) فأمرهم الله بقتلهم فقط ولم يأمرهم بأسرهم وكان ذلك رأى سعد بن معاذ حتى أنه لما وضع المسلمون أيديهم يأسرون نظر رسول الله اليه فوجد فى وجهه الكراهية لما يصنع القوم فقال له : لكأنك ياسعد تكره مايصنع القوم ، فقال : أجل والله يارسول الله كانت أول وقعة أوقعها الله تعالى بأهل الشرك فكان الاثخان فى القتل أحب إلى من استبقاء الرجال ، وكان الرأى رأى سعد لولم يقع منهم إيثار الأسر على القتل فأصبحوا فى حالة جديدة غير الحالة التى ورد فيها الأمر بالقتل فرأى الرسول أن ينتظر حتى ينتهى القتال ويأخذ رأى أصحابه فى أولئك الأسرى . فنزلت آية (ماكان لنبي أن يكون له أسرى) لعتابهم على ذلك وإيثارهم الأسر على القتل طمعاً فى المال والجهاد فى الاسلام لايصح أن يكون للمال القصد الأول فيه وقد خوطب النبي فى الآية والمراد أصحابه الذين وقعوا فى هذه المخالفة . وقال ابن السبكى إن معنى الآية ماكان لنبي غيرك أن يكون له أسرى فعد ذلك من خصائصه وجعل الآيه مسوقة لهذا لا لعتابه أو عتاب أصحابه ولاشك أن قوله تعالى بعد ذلك (تريدون عرض الدنيا ....) صريح فى أن الآية يقصد منها عتاب الأصحاب لا اثبات ذلك الأمر الذى قال به ابن السبكى

ويؤيد مانذهب اليه ان أخذ الفداء حصل قبل غزوة بدر بدون انكار وذلك فى سرية عبد الله بن جحش وكانت من أجل عير لقريش فاستاقت العير وأسرت عثمان بن عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان فطلب المشركون فداءهما فقبل رسول الله وأطلقهما

غزوة احد

أحد جبل بالشمال الشرقى للمدينة وكانت فيه تلك الغزوة بين المسلمين وقريش . وذلك أن قريشا عز عليها ما أصابها فى غزوة بدر وأصبحت لاتأمن على تجارتها إلى الشام فأرصدت ربحها من العير التي أقبل بها أبو سفيان لحرب المسلمين وكان نحو خمسين الف دينار فاجتمع فى السنه الثالثه للهجرة من قريش ثلاثة آلاف رجل ومعهم الأحابيش وهم أصحابهم من بنى المصطلق وبنى الهون ابن خزيمة وكان معهم أيضا أبو عامر الراهب الأوسى وعدد ممن كان على شاكلته ممن كره الاقامة مع المسلمين بالمدينة وكذا جماعات من أعراب كنانة وتهامة ثم خرجوا إلى حرب المسلمين ومعهم القيان والدفوف والمعازف والخمور واصطحب أشرافهم نساءهم لكيلا يضعفوا فى القتال كما ضعفوا يوم بدر

فكتب العباس بن عبد المطلب الى النبي يخبره بذلك فجمع أصحابه وأخبرهم الخبر وكان المشركون قد اقتربوا من المدينة فنزلوا بذى الحليفة ثم قال لهم : ان رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا فان هم أقاموا أقاموا بشر مقام وان هم دخلوا علينا قاتلناهم ، فرأى هذا الرأى شيوخ المهاجرين والأنصار وعبد الله بن أبى رأس المنافقين ولعله كان يريد شيئا من ذلك غير الذى يريدونه ورأى الأحداث وخصوصا من لم يشهد بدرا منهم أن يخرجوا الى المشركين

وكان أصحاب هـذا الرأى أكثر عددا من الاولين فنزل النبي على رأيهم وفى هـذا تقرير لأعظم أساس فى الحكومات الشورية وهو نزول الأقلية على رأي الأكثرية وان كان رأيها عنـدها أرجح من رأيها لأن ضرر مخالفته أهون من ضرر مخالفة رأى الـكثرة على مرجوحيته . فصلى الجمعه بالناس لعشر خلون من شوال وحضهم فى خطبتها على الثبـات والصبر ووعدهم على ذلك بالنصر ثم دخل حجرته ولبس عدته وتقلد السـيف وألقى الترس وراء ظهره فرأى العقلاء من الأنصار أن الاحداث استكرهوه على الخروج فلاموهم وقالوا لهم ردوا الأمر لرسول الله فردوه له وقالوا نتبع رأيك فقال : ما كان لنبي لبس سلاحه أن يضعه حتى يحكم الله بينه وبين أعـدائه ، ولا شك ان الرأى الأول كان أرجح من هـذا الرأى ولـكنه وقد مضى فيه صار هو الأرجح من الأول لأن رجوعه عنه يفت فى عضدهم ويقوى من عزم أعدائهم لأنهم لا يفهمون من ذلك إلا أنه تهيب لقاءهم بعـد أن مضى فيه وأنه غير واثق من النصر عليهم كما أعلن ذلك لأصحابه وفى ذلك من المفاسد مالا يصح معه الرجوع الى الرأى الاول الذى كان فى أول الامر أرجح من هذا الرأى . فمضى ﷺ فى عزمه وعقد ألوية الحرب فأعطى لواء المهاجرين لمصعب ابن عمير ولواء الخزرج للحباب بن المنـذر ولواء الأوس لأسيد بن الحضير وخرج من المدينة بألف رجل فلما وصلوا رأس الثنية نظر كتيبة كبيرة فسأل عنها فقيل هؤلاء حلفاء عبد الله بن أبى من اليهود ، فقال إنا لا نستعين بكافر على مشرك وأمر بردهم ، وكان قد بدا من اليهود بعد معاهدته لهم أشـياء كثيرة دلت على عدم اخلاصهم للمسلمين وايثارهم المشركين عليهم مثل إرجافهم

بهم يوم بدر وغير ذلك مما سنذكره فيما كان بين المسلمين وبينهم فلم يأمن أن يشاركوه فى حروبه حذرا من خيانتهم فيها له ثم سار حتى اذا كان بالشوط وهو بستان بين المدينة وأحد رجع عبد الله بن أبى بثلثمائة من أصحابه وتعلل بأنه كان يرى عدم الخروج فخولف رأيه وهمت طائفتان من المؤمنين أن تفشلا حينذاك وهما بنو حارثة من الخزرج وبنو سلمة من الأوس فعصمهما الله من ذلك وقد انقسم المسلمون فى شأن ابن أبى ومن انخذل معه فقال بعضهم نقاتلهم وقال بعضهم نتركهم فأنزل الله فى ذلك (فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا)

ثم سار النبي بعد أن طهر الله جيشه من أولئك المنافقين حتى نزل بالشعب من أحد وجعل ظهره للجبل ووجهه للمدينة ونزل المشركون ببطن الوادى من قبل أحد وعلى ميمنتهم خالد بن الوليد وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبى جهل وعلى المشاة صفوان بن أمية وقال أبو سفيان لأصحاب اللواء من بنى عبد الدار : يا بنى عبدالدار انكم قد وليتم لواءنا يوم بدر فاصابنا ما قد رأيتم وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم إذا زالت زالوا فاما ان تكفونا لواءنا واما ان تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه ، فهموا به وتواعدوه : وقالوا نحن نسلم اليك لواءنا ستعلم غدا إذا التقينا كيف نصنع ؟

وقد عبي النبي جيشه فجعل الزبير بازاء خالد واستحضر الرماة وكانوا خمسين على رأسهم عبد الله بن جبير الانصارى فجعلهم خلف الجيش على ظهر الجبل وأمرهم ألا يبرحوا مكانهم نصروا أو غلبوا ثم ابتدأ القتال بالمبارزة والتحم الجيشان وأبلى المسلمون بلاء حسنا وحملت خيالة المشركين عليهم ثلاث مرات فكان الرماة ينضحونهم بالنبل فيتقهقرون وأخذ نساء المشركين

يضربن بالدفوف وينشدن الاشعار تهييجا للرجال فكان النبي كلما سمع نشيدهن يقول (اللهم بك أحول وبك أصول وفيك أقاتل حسبى الله ونعم الوكيل) فانزل الله عليهم نصره وانهزم المشركون وتبعهم المسلمون يجمعون الغنائم والاسلاب فلما رأى الرماة ذلك نسوا أمر الرسول لهم وانطلقوا يجمعون الغنائم قبل أن تتم الهزيمة وربما كان ذلك حيلة من المشركين ولكنهم غفلوا عن هذا وعصوا أمر الرسول وأمر رئيسهم الذى ثبت فى مكانه مع قليل منهم فانكشف بذلك ظهر المسلمين وتنبه له خالد وكان قائدا يقظا سيهديه الله الى الاسلام ويفعل فيه الاعاجيب فانطلق ببعض جيش المشركين وأتى المسلمين من ورائهم ولم يمكن من بقى من الرماة أن يثبت له بل قتلهم كلهم فلم يشعر المسلمون وهم مشتغلون بدنياهم التى عاتبهم الله فى غزوة بدر عليها الا وقد فاجأهم خالد بجيشه فدهشوا وتركوا ما بأيديهم وانتقضت صفوفهم واختل نظامهم وصار بعضهم يضرب بعضا وقتل رجل من المشركين مصعب بن عمير صاحب لواء المهاجرين وظنه الرسول فأشاع ان محمدا قد قتل فدخل الفشل فى المسلمين وانهزم جماعة منهم بينهم الوليد بن عقبة وخارجة بن زيد وعثمان بن عفان وتوجهوا إلى المدينة ثم عادوا بعد أن ساروا ثلاثا واستحيوا أن يدخلوها

وثبت النبى ومعه جماعة منهم أبو طلحة الانصارى وكان راميا ماهرا فنثر كنانته بين يدى رسول الله وصار يقول (وجهى لوجهك فداء) ويرمى المشركين ويمنع عنه بجحفته وثبت أيضا سعد بن أبى وقاص وكان ﷺ يقول له : أرم سعد فداك أبى وأمى ، وقد أقبل أبى بن خلف يريد النبى فأخذ حربة من أصحابه وقال خلوا طريقه فضربه ضربة كانت سبب هلاكه فى طريقه الى مكة ولم يقتل النبى فى حياته غيره ثم وقع رسول الله فى حفرة من الحفر التى كان حفرها أبو عامر الراهب وغطاها ليقع فيها المسلمون فاغمى عليه وخدشت

ركبتاه فأخذ على بيده ورفعه طلحة بن عبيد الله ثم أصيب بحجر كسر رباعيته وبغير ذلك مما أصيب به وأصيب أصحابه أيضا إصابات كثيرة وقد اجتمع المسلمون بعد هذا عليه وزالت عنهم الدهشة التى استولت عليهم حين أشيع بينهم قتله فسار حتى وصل الشعب وجاءت فاطمة فغسلت عنه الدم وأخذت قطعة من حصير فأحرقتها ووضعتها على الجرح فاستمسك الدم ثم أراد أن يعلو الصخرة التى فى الشعب فلم يمكنه ان يعلوها فحمله طلحة حتى أصعده فنظر الى جماعة من المشركين على ظهر الجبل فأرسل اليهم عمر بن الخطاب فى جماعة فانزلوهم

ولما رأت قريش ثبات المسلمين بعد الذى حصل لهم وخافت أن يأتيهم مدد من المدينة يفسد عليها هذا النصر الذى أدركت به ثأرها فى غزوة بدر اكتفت بذلك وصعد أبو سفيان الجبل واعلن انتهاء الموقعة فقال : أنعمت فعال إن الحرب سجال يوم بيوم بدر وموعدكم بدر العام المقبل وانكم ستجدون فى قتلاكم مثلة لم آمر بها ولم تسؤنى ، ثم رجعوا الى مكة ورجع المسلمون الى المدينة بعد أن دفنوا قتلاهم وكانوا نحو سبعين قتيلا منهم حمزة بن عبد المطلب فحزن عليه النبى حزنا شديدا وقد مثلت به هند زوج أبى سفيان فبقرت بطنه وأخذت كبده لتأكله فلاكتها ثم أرسلتها ولما رجع المسلمون الى المدينة سخر بهم اليهود والمنافقون وأظهروا الشماتة بهم وقد أنزل الله فى هذه الموقعة ستين آية من سورة آل عمران تتضمن من درسها ما يأتى :

(١) أن الله أراد أن يؤدبهم بالفعل بعد أن أدبهم بالقول فى غزوة بدر على قصدهم الدنيا من القتال فى الاسلام كما كانوا يقصدونها من قتالهم قبله فلما ترك الرماة أماكنهم لجمع الغنائم سلط عليهم المشركين الذين أتوهم من ظهورهم ولم يتم لهم النصر الذى وعدهم (ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم

باذنه حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين)

(٢) أن تلك سنة الله مع الناس يبلوهم بالنصر ليشكروه وبالهزيمة ليصبروا ويتعلموا الثبات عند المصائب ولا يربى الأمم مثل الشدائد وأن يكون لها ضحايا وشهداء فى سبيل رفعتها ومجدها (إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين)

(٣) أن محمدا رسول مثل جميع الرسل وقد أصابهم قبله أكثر مما أصابه فى غزوة أحد فلم يهنوا ولم يصبهم مثل ما أصاب من فشل فى هذه الغزوة حينما أشيع أن محمدا قد قتل وكاد ينقلب على عقبيه فى الكفر كأن ذلك يقدح عنده فى رسالته (وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين)

(٤) الثناء على شهداء الغزوة وإعلان العفو عن المنهزمين والتنديد بالمنافقين الذين لم يكفهم انصرافهم عن القتال بل أضافوا إلى ذلك اظهار الشماتة بالمسلمين (الذين قالوا لاخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرؤا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين)

غزوة بني المصطلق

او المريسيع

المريسيع ماء لخزاعة فى ناحية قديد على يوم من الفرع مأخوذ من قولهم

رسعت العين إذا دمعت من فساد وبنو المصطلق بطن من خزاعة وقد حار بوامع قريش فى أحد وفى السنة الخامسة من الهجرة جمعهم سيدهم الحارث بن ضرار لحرب المسلمين فخرج رسول الله لهم فى جمع كثير فيهم ناس من المنافقين لم يخرجوا قط فى غزوة قبلها يرجون أن يصيبوا من عرض الدنيا وخرج مع النبي من نسائه عائشة وأم سلمة ثم ساروا حتى التقوا ببنى المصطلق فى المريسيع فعرض النبى عليهم الاسلام فأبوا فتصاف الفريقان للقتال وتراموا ساعة بالنبل ثم حمل المسلمون حملة رجل واحد وأحاطوا بهم من كل مكان فلم يتركوا لهم مجالا للهرب فقتلوا عشرة منهم وأسروا باقيهم مع نسائهم وذرياتهم واستاقوا إبلهم وشياههم وكانت ألفى بعير وخمسة آلاف من الشياه ففرق النبي ذلك فى المسلمين وكان الأسرى نحو مائتى بيت وذلك عدد كثير يترتب على استرقاقه ضرر كبير ولم يبعث النبي ليأسر الناس بل ليدعوهم إلى الاسلام فأراد ﷺ أن يعمل عملا يرغبهم فيه ويحمل المسلمين على إطلاقهم بالمن بالعتق عليهم أو بأخذ فداء منهم وقد تم ذلك على هذا النحو

كان فى الأسرى برة بنت الحارث سيد القوم فجاء أبوها يطلبها من النبى ﷺ بفداء أتى به معه فخطبها منه فزوجه إياه وأصدقها رسول الله أربعمائة درهم وسماها جويرة وأسلم الحارث وأبناؤه فلما رأى المسلمون ذلك قالوا اصهار النبى ﷺ فأعتقوا من بقى بين أيديهم منهم وكانوا قد أطلقوا بالفداء قريبا من نصفهم وكان هذا الرفق الاسلامى سببا فى اسلام بنى المصطلق كلهم وقد تزوج النبى على هذه الرواية جويرة بالمدينة وأكثر الروايات على أنه تزوجها وهم على ماء المريسيع وانها كانت قد وقعت فى سهم ثابت بن قيس فكاتبها على تسع أواق من ذهب فجاءت إلى النبى تسأله فى مساعدتها وكانت من الجمال

بحيث لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه فرأتها عائشة فكرهت دخولها عليه وأيقنت أنه إذا رآها أعجبته علما منها بموقع الجمال منه فماهو إلا أن كلمته وعرضت عليه أن يساعدها حتى قال لها : أو خير من ذلك ، فقالت ما هو ؟ قال أؤدى عنك كتابتك وأتزوجك ، فأداها عنها وتزوجها . والذى تميل إليه النفس أن النبى ﷺ تزوج جويرة ليتم له ما سبق من اسلام قومها لا لتأثير جمالها فى نفسه فهو أعلى نفسا من أن يتأثر بذلك وهو الذى يقول فى المرأة تنكح لمالها وجمالها وحسبها ودينها (فاظفر بذات الدين تربت يداك)

وقد وقع فى هذه الغزوة من المنافقين أمران كان لهما أثرهما فى نزول القرآن بفضح نفاقهم وتحذير المسلمين منهم فاصبحوا وقد تغيرت معاملتهم لهم وصاروا لا يأمنون جانبهم ولم يقبل النبى بعد ذلك نفاقهم ولكنه تركهم ولم يفعل شيئا معهم لضعفهم وحقارة شأنهم:

(١) ان رجلا من المهاجرين اختصم مع رجل من الخزرج واستصرخ المهاجر بالمهاجرين فأقبل الذعر من الفريقين وكادوا يقتتلون فخرج رسول الله عليهم وقال : مابال دعوى الجاهلية (يالفلان) فأخبر الخبر فقال : دعوا هذه الكلمة فانها منتنة ثم أصلح بين الفريقين . فلما بلغ عبد الله بن أبى ذلك غضب وكان عنده رهط من الخزرج فقال : ما رأيت كاليوم مذلة أوقد فعلوها نافرونا فى ديارنا والله مانحن والمهاجرون إلا كما قال الأول (سمن كلبك يأكلك) أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فرد عليه زيد بن أرقم وكان غلاما صادق الاسلام ثم أتى النبى فأخبره بذلك فقال له يا غلام لعلك غضبت عليه فقلت ماقلت ، فقال والله يارسول الله لقد سمعته ، فقال لعله أخطأ سمعك ، وكان عمر فى المجلس فاستأذنه فى أن يقتله فنهاه عن ذلك وقال كيف

ياعمر اذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ؟ فقال له عمر ان كرهت أن يقتله مهاجرى فأمر به أنصاريا ، فقال : ترعدله إذن أنف كثيرة بيثرب ثم أذن بالرحيل وكانوا فى الهاجرة ولم يكن يرحل فيها ليشغل الناس عن هذا الأمر وجاءه ابن أبى بعد ذلك لخاف أنه لما يقل شيئا مما بلغه زيد وقال نفر من قومه : يارسول الله شيخنا وكبيرنا لا يصدق عليه كلام غلام ، وقال أسيد بن حضير : يا رسول الله ارفق به فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ما بقيت عليهم إلا خرزة واحدة عند يوشع اليهودى فانه ليرى أنك استلبته ملكا ، وكان لعبد الله بن أبى ابن صادق الايمان يسمى الحباب وقد سماه رسول الله بعد موت أبيه عبد الله فلما بلغته مقالة عمر جاء إلى رسول الله فاستأذنه فى قتل أبيه لئلا يقتله غيره فيحقد عليه فقال له بل نترفق به ونحسن صحبته مابقى معنا ، ولكن الله تعالى لم يشأ أن يطيل فى حبل النفاق بعد ذلك ولم يشأ أن يترك هذا الغلام الصادق تجتمع عليه كل هذه العوامل فأنزل فى تصديقه سورة المنافقين التى فضحت نفاقهم ونهت المؤمنين عن الركون اليهم واظهار الرفق بهم مهما كان شأنهم فلما نزلت ألقى الله فى قلوب الأنصار بغض منافقيهم وصاروا يعاتبون ابن أبى ويعنفونه ، فقال النبى لعمر بن الخطاب : كيف ترى ياعمر ؟ انى والله لو قتلته يوم قلت لأرعدت له أنوف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته

(٢) انهم لما دنوا من المدينة أذن ليلة بالرحيل وكانت عائشة زوج رسول الله قد مضت لقضاء حاجتها حتى جاوزت الجيش ثم رجعت إلى رحلها فلمست صدرها فاذا عقد لها من جزع ظفار (١) قد انقطع فرجعت تلتمسه وقضت مدة فى التماسه فاحتملوا هودجها فرحلوه على بعيرها يظنونها فيه وكانت النساء إذذاك خفافا لم يغشهن اللحم لقلة الأكل فلما وجدت عقدها رجعت إلى مكان

---

(١) مدينه باليمن

الجيش فوجدته قد ارتحل فلم تفارق مكانه لئلا تضل وغلبتها عيناها فنامت وكان صفوان بن المعطل من عادته أن يسير وراء الجيش يفتقد ضائعه فأصبح عند منزلها فعرفها لأنه رآها قبل الحجاب فقال مسترجعا (إنا لله وانا اليه راجعون) ولعله ظنها قدماتت فاستيقظت باسترجاعه وسترت وجهها فأناخ راحلته وأركبها وانطلق يقودها حتى وصل الجيش فانتهزها عبد الله بن أبي فرصة أيضاوكان ينزل مع جماعة من المنافقين مبتعدين من الناس فمرت عليهم فقال من هذه ؟ فقالوا عائشة وصفوان ،فقال فجربهاورب الكعبة،وأخذ يشيع ذلك في الناس ويتولى كبر ذلك الافك فيهم حتى اغتربه نفر من المسلمين منهم مسطح بن أثاثة وغيره وكان مسطح من قرابة أبيها أبي بكر وكان أبو بكر ينفق عليه لفقره وقد بلغ النبي ذلك أيضا فاشتد عليه وقعه أكثر مما حصل له من الأمر الأول وكل شيء يهون إلا ما يتعلق بعرض الرجل ونال عائشة رضي الله عنها شيء من غضب النبي لهذا الأمر الذي آلمه ورأى أن يتريث شيئا فيه لما يعلم من بقاء شيء من عصبية الأنصار لهؤلاء المنافقين ولم يكن غضبه عليها عن شك فيها أو تأثر بقول أهل النفاق فهو يعلم أن الله لا يصل بأنبيائه في أزواجهم إلى هذا الحد وأزواج الأنبياء قد يوقعهن الله في الكفر بهم ولكنه لا يوقعهن في خيانتهم بالزنا وإنما غضب عليها لأنها أخطأت فيما فعلت بشأن العقد حتى ترتب عليه ذلك الافك وكان عليها أن تخبر النبي به حتى يطلبه لها ولا يرتحل بالجيش ويتركها فلما قدمت المدينة مرضت شهرا والناس يفيضون في قول أهل الافك وهي لا تشعر بشيء وكانت تعرف في رسول الله رقة إذا مرضت فرأت منه بعض جفاء في هذا المرض وكان إذا مر على باب حجرتها لا يزيد على قوله (كيف تيكم) ثم نقهت وخرجت هي وأم مسطح للتبرز خارج البيوت فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت تعس مسطح ، فأنكرت عائشة ذلك عليها

فأخبرتها بمايقوله فيها فازدادت مرضا واستأذنت رسول الله فى أن تمرض فى بيت أبيها وأخبرت أمها بذلك فهونت عليها ورأى النبي أن الأمر قد وصل إلى نهايته فقام من يومه وصعد المنبر والمسلمون مجتمعون فقال : من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهلى والله ماعلمت على أهلى الاخيرا ولقد ذكروا رجلا ماعلمت عليه الاخيرا ومايدخل على أهلى الا معى ، فقال أسيد بن حضير أنايارسول الله أعذرك فان كان من الأوس ضربت عنقه وإن كان من اخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ، فقام سعد بن عبادة الخزرجى وقال: كذبت لعمر الله لاتقتله ولاتقدر على قتله ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل، وكاد تكون فتنة بين الحيين فنزل رسول الله فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا ثم أنزل الله آيات الافك من سورة النور فبرأ عائشة مما نسب اليها وأمر بجلد من قذفها وانقطعت بهذا تلك الفتنة. ويقال ان النبي قبل نزولها ذهب اليها فى بيت أبيها فسلم ثم جلس فقال : أمابعد يا عائشة إنه بلغنى عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله وان ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى اليه فان العبد إذا اعترف وتاب تاب الله عليه ، فتقلص دمع عائشة وقالت لأبويها أجيبا رسول الله ، فقالا والله ماندرى مانقول ،فقالت : إنى والله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم أنى بريئة منه لا تصدقونى ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقنى فوالله لاأجد لى ولكم مثلا إلا أبايوسف قال(فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون) والذى أراه أن كلام أولئك المنافقين لم يكن له قيمة فى نفس النبي إلى هذا الحد وأن تغيره منها كان لما قدمناه فقط وكيف يشك فيها بعد أن يقول (والله ماعلمت على أهلى الا خيرا) وكيف يدعوها الى الاعتراف

بذنب لم يثبت عليها مع أنه يامر بستر الذنب يأتيه المرء لا يطلع عليه أحد غيره وكيف يقبلها زوجاله اذا اعترفت وتابت كما هو ظاهر هذه الرواية وذلك مما ينفر الناس عنه وقد قالوا انه يجوز أن تكون امرأة النبي كافرة ولا يجوز أن تكون زانية لانه مبعوث إلى الكفار فيجب ألا يكون معه منقص ينفرهم عنه والكفر غير منقص عندهم وأما الزنا فمن أعظم النقصان اللهم إلا أن يكون قد أراد من ذلك خداعها لتعترف ويطلقها ومثل هذا لا يليق به صلى الله عليه وسلم

غزوة الاحزاب

كانت هذه الغزوة عند ابن اسحق فى السنة الخامسة للهجرة وذكر البخارى أنها كانت فى السنة الرابعة قبل غزوة بنى المصطلق وأيد بعضهم هذا بأن سياق الحوادث يرجحه فقد كانت غزوة بدر ثم تلتها أحد بعد سنة فطمع المشركون فى المسلمين وكان المسلمون قد اخرجوا بنى النضير من المدينة فى شهر ربيع الاول من السنة الرابعة وهم الذين ألبوا أحزاب المشركين على المسلمين وجدير بهم وبمشركى قريش الا يتربصوا زمنا طويلا بعد أحد . ولكن سياق الحوادث اذا استقصى يؤيد ابن اسحق دون البخارى فقد وعد أبو سفيان المسلمين فى غزوة أحد بدرا العام المقبل وهو السنة الرابعة للهجرة فلما أهل شعبان وكان بدر محل سوق يعقد فيه كان موعد أبى سفيان وكانت قريش فى ضائقة من جدب أصابها هذه السنة فعجزت عن الايفاء بوعدها وخرج المسلمون الى بدر فأقاموا بها مدة سوقها لا يشاركهم أحد فى تجارتها (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) فكيف تعجز قريش عن حضور بدر كما وعدت هذه السنة ثم تخرج فيها

الى المدينة ؟

وقد حصلت هـذه الغزوة بعد أن طاف عظماء بنى النضير على مشركى العرب يؤلبونهم على المسلمين بعد أن أخرجوهم من المدينة لنقضهم عهودهم وليهود قدرتهم فى إثارة الناس بعضهم على بعض وإحداث الثورات والحروب بينهم شـفاء لمآربهم وأحقادهم منهم فقصدوا قريشا يدعونهم ويحرضونهم ويقولون (إنا سنكون معكم حتى نستأصله) فقالوا لهم : يامعشر يهود إنكم أهل الـكتاب الاول والعلم أخبرونا عمـا أصبحنـا نختلف فيه نحن ومحمدا فديننا خير أم دين محمد ؟ فقالوا : بل دينـكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه ، وهكذا أعمت الاحقاد السياسية هؤلاء اليهود حتى فضلوا شرك قريش على توحيد الاسـلام وهم يشاركونه فيه (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الـكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهـدى من الذين آمنوا سبيلا) فاجابتهم قريش إلى طلبهم ثم جاؤا الى غطفان وغيرها من القبائل العربية فحرضوهم أيضا وتجهزت قريش بقيادة أبى سفيان وتجهزت غطفان بقيادة عيينة بن حصن الفزارى وتجهز بنو مرة بقيادة الحارث بن عوف وتجهزت بنو أشجع بقيادة أبى مسعود بن رخيلة وتجهزت بنو سليم بقيادة سفيان بن عبدشمس وتجهزت بنو أسد بقيادة طليحة بن خويلد وقد بلغ عدد الجميع عشرة آلاف مقاتل وجعلوا أبا سفيان قائدهم العام

فجمع رسول الله أصحابه يستشيرهم فى المـكث بالمدينة أوالخروج للقائهم وقد كان رأيه فى أحد المـكث فى المدينة وقد دل ماحدث فيها على أن بقاءهم فيها كان أحسن لأنها فى موقع حصين وبها من الآطام مايمكن المسلمين على قلتهم أن يقاوموا الـكثرة التى تقابلهم واذا كان هذا رأيه فى أحد فهو رأيه فى الأحزاب لأن عدد المشركين فيها أكثر من عددهم فى أحد ولـكنه يريد

أن يعلم أصحابه الاخذ بالشورى فى جميع الأمور ليسيروا عليها فيها ويأخذوا فى سياستهم وحكمهم بها وتكون قاعدة متبعة وسنة لايشذ عنها أمر ولو عرف الصواب فيه . فأشاروا عليه بالبقاء فى المدينة فبقى فيها وقال له سلمان الفارسى : يارسول الله انا كنا بأرض فارس اذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا ، فعمل النبى برأيه ولم تكن العرب تعرف ذلك ولكن الاسلام لا يمنع من تقليد غيره فى الامور الصالحة وهو فيما يروى فى موضع آخر أولى بها من غيره ، فخرج النبى ومعه عدة من المهاجرين والأنصار يرتاد موضع الخندق فجعلوه شمالى المدينة من الحرة الشرقية الى الحرة الغربية لأن هـذه الجهة كانت عورة لا تؤتى المدينة الا منها أما بقية جهاتها فحاطة بالجبال والنخيل فلا يمكن أن يقصدها العدو منها وشرعوا فى حفر الخندق واستعاروا من بنى قريظة آلات كثيرة من المساحى وغيرها وقاسوا صعوبات كثيرة فى حفره وكان رسول الله يعمل معهم بنفسه وينقل التراب متمثلا بشعر عبدالله بن رواحة :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام ان لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

ولم يصل المشركون إلا والخندق قد تم فلما نظروا اليه قالوا والله ان هـذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها ثم نزلت قريش بمجمع الأسيال ونزلت غطفان وبقية القبائل جهة أحد وخرج المسلمون فى ثلاثة آلاف من المدينة فاسندوا ظهورهم إلى جبل سلع وجعلوا الخندق بينهم وبين أعدائهم وتركوا فى الآطام نساءهم وذراريهم فتراموا بالنبال إلى أن طال على المشركين الأمر وهم بعيدون عن ديارهم والمسلمون فى دارهم وهم أيضا لايحسنون هذا النوع من القتال قتال الخنادق وحرب الحصار وليس لهم صبر عليه وانما كان شأنهم الغارة ،

ثم الرجوع بالاسلاب في ساعة فأكره جماعة منهم أفراسهم على اقتحام الخندق منهم عكرمة بن أبي جهل وعمرو بن ود وكان من أعظم فرسان العرب فطلب البراز فخرج له علي بن أبي طالب فاستصغره وقال له : غيرك ياابن أخي من أعمامك من هو أشد منك فاني أكره أن أهريق دمك وان أباك كان صديقالي، فقال له علي : وأنا والله ما أكره أن أهريق دمك ، فغضب وأقبل عليه فضربه بسيفه فاستقبله على بدرقته فقدها وأصاب رأسه فشجه ثم ضربه على بسيفه على حبل عاتقه فسقط وكبر المسلمون ؛ هرب من بقي من المشركين وهوى بعضهم في الخندق فاندقت عنقه

وكان حيي بن أخطب سيد بني النضير وعد قريشا اذا أجابته أن يحمل بني قريظة على نقض عهد المسلمين فطلب منه أبو سفيان أن يسير اليهم فقصد سيدهم كعب بن أسد فمازال به حتى حمله على نقض عهد المسلمين فأرسل اليهم النبي يستطلع أمرهم فوجدهم قد نقضوا العهد الذي بينهم وبينه ويريدون قتاله فهنالك اشتد الأمر على المسلمين وزلزلوا زلزالا شديدا وخافوا على نسائهم وذراريهم منهم وأخذ المنافقون يرجعون الى بيوتهم هربا من القتال (يقولون ان بيوتنا عورة وماهي بعورة ان يريدون الا فرارا) فلما رأي النبي ذلك أراد أن يهون عليهم الأمر برأي يراه لهم ولا يريد عندي المضى فيه الى نهايته لأنه لا يوافق ماعرف به من ثقته في وقت الشدائد بنصر الله وثبوته على القتال ولو تفرق أصحابه عنه كما حصل له في غزوة أحد وانما أراد به أن يبين لهم سهولة أمر المشركين وأنه من السهل تفرقتهم لاختلاف مآربهم ولأن القبائل التي مع قريش ليست الاقبائل بدوية تحارب للمال فاذاعرض عليها رضيت به وتركت القتال فارسل الى عيينة بن حصن والحارث بن عوف في أن يقطعهما ثلث ثمار

المدينة على إن يرجعا بمن معهما عنه فجاءا مستخفيين من أبى سفيان فوافقاه على ذلك بعد أن طلبا النصف فأبى عليهما ثم ارسل إلى سعد بن معاذ وسعد ابن عبادة سيدى الاوس والخزرج فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه فقالا : يارسول الله ان كان أمرا من السماء فامض له وان كان أمرا لم تؤمر به ولك فيه هوى فسمعا وطاعة وان كان انما هو الرأى فما لهم عندنا إلا السيف ، فقال رسول الله : لو أمرنى الله ما شاورتكما واختار ما أشارا به ، وقال سعدبن معاذ لعيينة والحارث : أرجعا بيننا وبينكم السيف ، ولم يكن النبي يريد من أول الأمر الا ذلك وإلا أن يتغلب بحسن الرأى على ذلك الضعف الذى بدا من أصحابه ويظهر لهم عدوهم بهذا المظهر ليظهر ضعفه لهم ويبعث القوة فى نفوسهم ولم يكن ذلك عن ضعف فى نفسه وإرادة التسليم بذلك لأعدائه

وقد عرف النبي ﷺ من أين تؤكل كتف أعدائه وعرف أن أولئك البدوهم جانب الضعف فيهم فاطمعهم فى المال ثم أتى باثنين من زعمائهم إليه وهو يعرف أن اتيانهما إليه لابد أن يصل الى أبى سفيان وأن أخفياه عنه ولا بد أنه وصل إليه وأن هذا الذى فعله عيينة والحارث كان من أعظم أسباب تفرق أولئك الأحزاب وان لم يتنبه لذلك أحد من الرواة . ثم جاء بعد ذلك نعيم بن مسعود الأشجعي الغطفانى الى رسول الله فقال له : يارسول الله انى قد اسلمت وقومى لا يعلمون باسلامى فمرنى بأمرك حتى أساعدك وكان نعيم زعيما من زعمائهم مسموع الكلمة فيهم فقال له رسول الله : أنت رجل واحد وماذاعسى أن تفعل ولكن خذل عنا ما استطعت فان الحرب خدعة فقال نعيم : يا رسول الله أنى أقول أى ما يقتضيه الحال وان كان خلاف الواقع فقال : قل ما بدالك فأنت فى حل ، فخرج الى بنى قريظة وكان لهم نديما فلما رأوه رحبوا به وعرضوا عليه الطعام والشراب فأخبرهم بأنه جاءهم

لغير هذا وأنه يخاف عليهم إذ حاربوا محمدا أن تتركهم قريش له وليس لهم طاقة به وهم ليسوا أصحاب دار فان رأوا نهزة أصابوها وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وأنه يرى أن يأخذوا رهنا من أشرافهم تكون ثقة بأيديهم قبل أن يحاربوا معهم فاستحسنوا رأيه وأخبروه بأنهم طالبون ذلك فأمرهم بكتمان ماجرى بينه وبينهم ثم ذهب الى قريش فأخبر رؤساءها بأن بنى قريظة ندموا على نقض عهدهم مع محمد ويريدون أن يرضوه بأخذ سبعين من أشراف قريش ليكونوا رهائن عندهم ثم يقدموهم له ليقتلهم فرضى بذلك منهم وأخبر قومه غطفان بذلك أيضا وطلب منهم أن يكتموا ماحدثهم به. فأرسل أبو سفيان إلى بنى قريظة يدعوهم إلى القتال غدا، فقالوا ان غدا السبت فلا نقاتل فيه ومع ذلك فلا نقاتل حتى تعطونا رهائن منكم حتى لا تتركونا وتذهبوا الى بلادكم. فتحققت قريش وغطفان كلام نعيم وتفرقت قلوب بعضهم من بعض وأرسل الله عليهم ريحا باردة فى ليلة مظلمة وأوقع الرعب فى قلوبهم فخافوا أن تبيتهم اليهود مع المسلمين فعزموا على الرحيل من ساعتهم وتركوا خالد بن الوليد فى جماعة ليحموا ظهورهم حتى لا يدهموا من ورائهم وكشف الله هذه الغمة بحسن الحيلة من رسول لله ومن نعيم بن مسعود وبما أوقعه من الرعب فى قلوبهم بالريح التى أرسلها عليهم. وكان لذلك أثر فى سير القتال بين المسلمين والمشركين فعلم المشركون أن المدينة لا يمكن أن تؤخذ عنوة فانصرفت نفوسهم عن غزوها. وقال النبي صلى الله عليه حين انجلوا عنها: الآن نغزوهم ولا يغزوننا نحن نسير اليهم

غزوة الحديبية

الحديبية بئر على مرحلة من مكة سميت الأرض التي تقع فيها باسمها وكثير من أصحاب السير يعدونها غزوة ولا بد في الغزوة من نية القتال وقد خرج النبي فيها يريد العمرة ولا يريد حرب قريش وقد اختار لها بعض أصحاب السير هذا العنوان (قصة الحديبية) وكانت هذه القصة في السنة السادسة للهجرة اذ رأى ﷺ في نومه أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين فأخبر المسلمين أنه يريد العمرة وأمرهم بالخروج إلى مكة واستنفر الأعراب الذين حول المدينة ليخرجوا معهم حذرا أن تردهم قريش عن عمرتهم فاجابه بعضهم وتخلف أكثرهم وظنوا أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا ، فخرج في ذي القعدة بألف وخمسمائة من المسلمين ومعه زوجه أم سلمة وأخرج الهدى ليعلم الناس أنه لم يأت محاربا .

وقد يبدو هذا الأمر غريبا غير مفهوم وأنه ليس الا تحككا باسم العمرة لارادة حرب قريش وكيف يظن أنها ترضى بأن يطأ عدوها دارها ولو بغير القتال ولا تصده عنها فلا يفعل ذلك عدو مع عدوه أبدا فيبدو لظاهر الرأي مع هذا أنه كان على المسلمين أن ينتظروا بذلك إذا كانوا مخلصين فيه حتى ينتهي ما بينهم وبين قريش من حرب بغلبة أو صلح أو نحو ذلك ثم يقصدوا مكة للعمرة أو غيرها من غير أن يوقعوا أهلها في ذلك العنت ولكن الحقيقة أن الكعبة بيت الله وليست ملكا لقريش فلا تملك أن تصد أحدا عن زيارتها ولو كان من أعدائها وقد أراد النبي من ذلك أن

يظهر للناس تعنتها إذا هى صدته عن زيارة الكعبة فيؤلف قلوبهم حوله وينفرهم منها ويفهمهم بالفعل أنهم خاطئون فى ائتمارهم لقريش التى تجمعهم لحربه باسم الكعبة وحمايتها من المسلمين كأن الاسلام يقصدها بسوء ولا يرى أنها بيت الله وأنه يفرض على المسلمين العمرة والحج اليها ، فيفهمهم بالفعل حقيقة الاسلام ويقضى على مالا بد أن قريشا كانت تذيعه نحوه من ذلك بين العرب

فسار بالمسلمين حتى وصل عسفان(١) فبلغه أن قريشا أجمعت رأيها أن يصدوه عن مكة وألا يدخلها عليهم عنوة أبدا وأنها أرسلت خالد بن الوليد فى مائتى فارس طليعة لهم ، فقال رسول الله : ياويح قريش لقد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب فان هم أصابونى كان ذلك الذي أرادوا وإن أظهر الله عليهم دخلوا فى الاسلام وافرين وان لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة فما تظن قريش فو الله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة ، وهنا يبدو عطف رسول الله على قومه ولا غرو فهو يعلم أنهم صفوة العرب وأنهم إذا أكلتهم الحرب لم يجد الاسلام من غيرهم مثلهم لغلبة البداوة فى هذه الأمة وامتياز قريش عليها بأمور كثيرة .

ثم أمر فعدل بهم عن طريق خالد حتى أفضوا إلى الحديبية فلما وصلوا إلى ثنية المرار (٢) بركت به ناقته فزجروها فلم تقم فقال رسول الله : حبسها حابس الفيل والذى نفس محمد بيده لا تدعونى قريش لخصلة فيها صلة الرحم إلا أجبتهم اليها ، ثم زجر الناقة فوثبت وسار حتى نزل بأقصى

---

(١) موضع على مرحلتين من مكة فى طريق المدينة

(٢) مهبط الحديبية

الحديبية وهناك جاء بديل بن ورقاء الخزاعى رسولا من قريش فأخبره ﷺ بمقصده وأن قريشا قد نهكتها الحرب فان شاءت وادعها مدة تترك الحرب فيها وتخلى بينه وبين الناس ، فقال بديل سأبلغهم ذلك ثم رجع اليهم وأخبرهم به فلم يسمعوا له واتهموه لانه كان من خزاعة وكانت موالية لرسول الله فقام عروة بن مسعود الثقفى وكان من عظماء الطائف وقال : انه قدعرض عليكم خطة رشد اقبلوها ودعونى آتيه ، ثم سار إلى رسوله الله فوجد من التفاف المسلمين به وتعظيمهم له ماراعه وجعله يرجع إلى قريش فيشير عليها بقبول ماعرض عليها من الصلح وتركه يتم عمرته فلم تسمع له أيضا ، فقال الحليس بن علقمة الكنانى وكان سيد الأحابيش وهى القبائل التى تجمعت من غير قريش دعونى آته ، قالوا ائته ، فلما أشرف على رسول الله أمر بالبدن المهداة للحرم فأثيرت وكان الحليس من قوم يعظمون البدن واستقبله الناس يلبون بالعمرة فقال : سبحان الله ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا ، فرجع اليها وأشار عليها بأن تتركه يتم عمرته . ثم ان رسول الله اختار أن يرسل إلى قريش عثمان بن عفان يخبرها بمقصده فدخل عثمان مكة فى جوار أبان بن سعيد الأموى فبلغ قريشا ماأرسل به ، فقالوا : إن محمدا لايدخلها علينا عنوة أبدا ، وطلبوا منه أن يطوف بالبيت فقال : لا أطوف ورسول الله ممنوع ، فحبسوه وشاع عند المسلمين بالحديبية أنهم قتلوه فقال رسول الله : لانبرح حتى نناجزهم الحرب ، ودعا الناس للبيعة على القتال فبايعوه بيعة الرضوان تحت شجرة هناك سماها شجرة الرضوان وقد أمر عمر رضى الله عنه بقطعها فى خلافته حينما رأى الناس يزورونها ويتبركون بها ، فبلغت قريشا هذه البيعة فداخلها منها رعب عظيم وقد رأت زعماء القبائل لايوافقونها على خطتها ويرون أن تقبل الصلح الذى عرض عليها فأرسلت سهيل بن عمرو للمكالمة فى الصلح على هذه الشروط الاربعة :

«١» وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنوات

«٢» ان من جاء المسلمين من قريش يردونه ومن جاء قريشا من المسلمين لايلزمون برده

«٣» أن يرجع المسلمون من غير عمرة هذا العام ثم يأتوا العـام المقبل فيدخلوها بعد أن تخرج منها قريش فيقيموا بها ثلاثة أيام ليس معهم من السلاح إلا السيف فى القراب والقوس

«٤» أن من أراد أن يدخل فى عهد محمد من غير قريش دخل فيه ومن أراد أن يدخل فى عهد قريش دخل فيه

فأظهر النبي ﷺ قبوله للصلح على هذه الشروط التى فيها إجحاف به برا بما أخذ على نفسه من قبول ماتدعوه قريش اليه مما فيه صلة رحمها وترك حربها وتوقف كثير من المسلمين فى قبوله وصاروا يراجعون رسول الله ويراجعهم ليتم الأمر بالشورى التى كانت تتم بها أمورهم وكان عمر أشدهم إباء لهذا الصلح وكان مما قالوه له : كيف نرد اليهم من جاءنا مسلما ولا يردون من جاءهم مرتدا؟ فقال لهم : إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ومن جاءنا منهم فرددناه اليهم فسيجعل الله له فرجا ومخرجا ، وما زال بهم حتى رضوا بما رضى به وقام على بكتابة شروط الصلح فأملاه رسول الله : بسم الله الرحمن الرحيم ؛ فقال سهيل اكتب باسمك اللهم فأمره الرسول أن يكتب بسمك اللهم ، ثم أملاه : هـذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، فقال سهيل : لو نعلم انك رسول الله ما خالفناك اكتب محمد بن عبدالله ، فأمر رسول الله عليا بمحو ذلك وكتابة محمـد بن عبد الله فلم تطاوعه نفسه أن يمحوه فمحاه النبي ﷺ بيده وجاء فى بعض الروايات أنه أخذ الكتاب بيده فكتب فأخذ بعضهم من هذا أن النبي بعد أن أنزل عليه القرآن وتحققت أميته عرف القراءة والكتابة من غير معلم معجزة

له ، وتم كتاب الصلح بتلك الشروط التى أرادتها قريش وأمر رسول الله أصحابه أن يحلقوا رؤوسهم وينحروا الهدى ليتحللوا من عمرتهم فشق عليهم ذلك ولم يبادروا إلى الامتثال له رجاء أن ينزل وحى فيغيره ، فدخل على زوجه أم سلمة وقال لها : هلك المسلمون أمرتهم فلم يمتثلوا ، يأخذ بذلك رأيها ويسن للمسلمين إشراك نسائهم فى أمورهم لئلا يهملوهن هذا الاهمال الذى جعلهن لا يحسن شيئا من أمور أزواجهن وأولادهن ومنازلهن وسائر شؤونهن ، فقالت : يارسول الله اعذرهم فقد حملت نفسك أمرا عظيما فى الصلح ورجع المسلمون من غير فتح فهم لذلك مكروبون ولكن اخرج يارسول الله وابدأهم بما تريد فاذا رأوك فعلت تبعوك ، فقام الى هديه فنحرها ودعا بالحلاق فحلق رأسه فتبعوه ونحروا وحلقوا بفضل مشورة أم سلمة رضى الله عنها

ولا شك أن النبي ﷺ حينما عرض على قريش الصلح وقبل هذا الصلح الذى قبله المسلمون على مضض كان ينظر إلى أمر لم يتنبه له أصحاب السير ، وهو أن الحرب فى الاسلام لا تقصد على أن تكون وسيلة من وسائل الدعوة اليه بل انها ربما تصرف النفوس عنه بما تثير فيها من التعصب والاحقاد وبما تحدث من الاضطراب وعدم الهدوء وكان النبي يود لو تنقطع هذه الحروب ليدعو الناس إلى الاسلام فى هدوء وقد كسب منهم فى مكة بالسلم مالم يكسبه بهذه الحروب التى ألجىء اليها وأراد بها إظهار قوته لئلا يطمعوا فيه فلما تم له ذلك منها ولم يمكن العرب أن تنال شيئا منه بها أراد أن يغير هذا المظهر الحربى ويعود الى مظهره الاول السلمى ويتحمل فيه من الاجحاف بحقوقه مثل ما كان يتحمل من الأذى قبل ظهوره بالمظهر الحربى وهو يعرف ان هذا المظهر سيكسبه أناساً أكثر مما كسبه وهو فى مكة مستضعف مستذل . ويمكنك أن تفهم على هذا الوجه قصة الحديبية من أولها إلى آخرها وأنها قصة السلام فى السيرة النبوية خرج

فيها رسول الله من المدينة إلى مكة حاملا راية السلام باسم العمرة بعد تلك الحروب المظفرة التى ثبتت فيها قوته وهو يريد أن يعرض الصلح على قومه قريش وهم زعماء العرب إذا رضوا رضوا وإذا حاربوا حاربوا وهذا كله ليعود فيدعو الى دينه بالسلم كما كان يدعو قبل هذه الحروب ، فكانت قصة الحديبية إذن قصة سلمية رائعة غفل عن جلالها السلمي من ألحقها بالغزوات الحربية وسماها غزوة وقد تم لرسول الله ما أراده منها فترك قريشا فى صلحها مأخوذة عما بدا منه فيه من المروءة والعظمة النفسية مفكرة فى هذا الدين الذى بلغ به هذه الذروة مقتربة منه شيئا فشيئا ، تركها فى ذلك لنفسها وعاد يدعو إلى دينه دعوة سلمية شاملة فكاتب ملوك عصره به ودعاهم اليه وكان ممن كاتبه به قيصر الروم وأمير بصرى من الغساسنة وأمير دمشق منهم أيضا والمقوقس أمير مصر والنجاشى ملك الحبشة وكسرى ملك الفرس والمنذر بن ساوى ملك البحرين وجيفر وعبدا بنا الجلندى ملكا عمان وهوذة بن على ملك اليمامة فأجابه الى الاسلام من هؤلاء الملوك والامراء المنذر بن ساوى وجيفر وعبد ابنا الجلندى وصرف بعضهم رسله بلين ورفق مثل المقوقس أمير مصر وقابلهم بعضهم بشدة وغلظة مثل كسرى ملك الفرس وقد انتشرت دعوة الاسلام بذلك أيما انتشار وزاد الاسلام قوة بهؤلاء الملوك الذين دخلوا فيه . وقريش تسمع وترى فأثر ذلك فى نفوس كثير منها ودخل كثير منهم فى الاسلام مثل خالد ابن الوليد قائدها فى حروبها وعمرو بن العاص داهيتها فى التدبير والسياسة فضعف أمرها كثيرا حتى إن أبا بصير عتبة بن أسيد الثقفى فر منها إلى رسول الله فأرسلت تطلبه كما تم فى ذلك الصلح فرده مع رجلين أرسلتهما فى طلبه فعدا على أحدهما فى الطريق فقتله وهرب منه الآخر ثم ذهب الى محل بطريق الشام تمر به تجارة قريش فأقام به واجتمع إليه مسلمو مكة وجمع من الاعراب فقطعوا

على قريش تجارتها فعجزت للضعف الذى أصابها عنهم وأرسلت إلى رسول الله تستغيث فى ابطال ذلك الشرط من شروط الصلح ليمسكهم عنده ولا يقطعوا عليها تجارتها فجعل الله بذلك لهم مخرجا وحقق قول النبي ﷺ

ولهذه النتائج العظيمة التى ترتبت على قصة الحديبية أنزل الله فيها سورة الفتح « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » فجعلها فتحا مبينا للمسلمين ونصرا لهم على المشركين وقد بلغ رسول الله أن رجلا يقول ماهذا بفتح لقدصددنا عن البيت وصد هدينا ، فقال ﷺ : بأس الكلام بل هو أعظم الفتح قد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبون اليكم فى الامان ولقد رأوا منكم ما كرهوا وأظفركم الله عليهم وردكم سالمين مأجورين فهو أعظم الفتوح أنسيتم يو أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم فى أخراكم أنسيتم يوم الاحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ؟ فقال المسلمون صدق الله ورسوله هو أعظم الفتوح ، وقيل أن الفتح المراد فتح مكة عبر فيه بالماضى لتحقق وقوعه بعد صلح الحديبية إذ كان تمهيدا له لظهور الاسلام فى قريش وغيرها به

وقد خرج رسول الله الى عمرة القضاء بعد انحال الحول على عمرة الحديبية بمن صد معه فيها ليقضوا عمرتهم وأخرج معه السلاح حذرا من غدر قريش فلما كان بمر الظهران قدم السلاح الى بطن يأجج (١) وخلف عليه أوس بن خولى الانصارى فى مائتى رجل ثم ساروا الى مكة فخرجت قريش منها الى رؤوس الجبال كراهة رؤيتهم فدخلوا متوشحين سيوفهم من ثنية كداء وعبد الله بن رواحة أمامهم يقول : لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز

---

(١) موضع على أميال من مكة

جنده وهزم الاحزاب وحده ، وصار يردد ذلك أمامهم فتجاوبه أصداء مكة به وتهتز جوانبها له وتعمل فى تقريب قلوب قريش الى الاسلام مالم تعمل تلك الحروب التى كانت قائمة ، ثم حلقوا رؤوسهم وقصروا وصدق الله رسوله الرؤيا بالحق « لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين »

فتح مكة

كان فى صلح يوم الحديبية أن من دخل فى عقد محمد وعهده فعل ومن دخل فى عهد قريش وعهدها فعل فدخلت بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة فى عقد قريش ودخلت خزاعة فى عقد رسول الله وكانت قبل الاسلام حليفة جده عبد المطلب وكان بينها وبين بنى بكر حروب فى الجاهليه تشاغلوا عنها بعد ظهور الاسلام وبقى شىء من الجفاء بسببها بينهم فحدث بعد صلح الحديبية أن وقف رجل من بنى بكر يتغنى بهجاء النبى ﷺ على مسمع من رجل خزاعى فقام الخزاعى فضربه فقام بنو بكر لحرب بنى خزاعة وساعدتهم قريش سرا بعدتها ورجالها فتوجهوا الى بنى خزاعة وهم آمنون فقتلوا منهم ما يربو على العشرين فأرسلوا وفد الى رسول الله مع عمرو بن سالم الخزاعى يعلمونه بما فعلت قريش فخرج عمرو حتى أتى مسجد الرسول فأنشد :

يارب إنى ناشد محمدا حلف أبينا وأبيه الاتلدا
فانصر هداك الله نصرا اعتدا وادع عباد الله يأتوا مددا
فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا إن قريشا أخلفوك الموعدا
هم بيتونا بالوتير هجدا وقتلونا ركعا وسجدا

وكانت قريش قد ندمت على مافعلت وبادرت فأرسلت أبا سفيان إلى المدينة يؤكد عقد الصلح ويزيد فى مدته فكلم رسول الله فى ذلك فلم يجبه

واستشفع بأبى بكر وعمرو على فلم يشفعوا له عنده وعلم رسول الله أنه لم يأت لذلك إلا لأمر حدث منهم فلما وقف عمرو الخزاعى وأنشد هذه الأبيات قال له : نصرت ياعمرو بن سالم والله لأمنعنكم مما أمنع منه نفسى

ثم أخذ يتجهز سرا لفتح مكة ويعد لذلك أعظم جيش خرج به وهو يعلم أن قريشا قد أنهكتها الحرب وضعف أمرها بعد صلح الحديبية ولكنها مكة رمز عظمتها ومجدها فقد تستميت فى الدفاع عنها فكان هذا يوجبه الاحتياط لهم وتوجبه أيضا الشفقة عليهم فهم قومه على كل حال وكان يريد فى كل وقت إسلامهم لاهلاكهم فأراد أن يخرج لهم بجيش عظيم يقطع أملهم فى الدفاع ويلجئهم إلى التسليم بدون قتال فلا تنتهك حرماتهم ولا حرمات الحرم الذى كان القتال لايحل فيه تعظيما له ، فاستنفر القبائل التى كانت حول المدينة وقال من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر معه رمضان فيها فقدم جمع من قبائل أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة وكان ذلك فى السنة الثامنة للهجرة فخرج بهم فى عشرة آلاف مجاهد وأخفى قصده عنهم إلا عن خواص أصحابه لأنه كان يريد أن يأخذ قريشا قبل أن تستعد للحرب فتسلم له بدون قتال وقد قابله عمه العباس فى الطريق مهاجرا بأهله وعياله وكان مقيما بمكة على سقايته فأمره بأن يعود معه الى مكة وأرسل عياله الى المدينة وقد ختمت الهجرة من مكة الى المدينة بهجرته وأبطلها رسول الله بعد فتحها لذهاب سببها وليبقى لمكة أهلها ولو فتح باب الهجرة بعد فتحها لهاجر كل أهلها منها لما كان للهجرة فى الاسلام من عظيم المنزلة

ثم سار رسول الله حتى نزل بمر الظهران وأمر بايقاد عشرة آلاف نار وكانت قريش قد بلغها أنه زاحف بجيش عظيم لاتدرى وجهته فأرسلت أبا سفيان مع نفر يلتمسون خبره فلما رأى تلك النيران قال : ماهذه لكأنها نيران عرفة

وقد التقى بهم نفر من حرس المسلمين فأخذوهم إلى رسول الله فأسلم أبو سفيان وأمر رسول الله عمه العباس أن يقف به عند حطم الجبل حتى ينظر الى كثرة المسلمين فجعلت القبائل تمر عليه كتيبة كتيبة حتى مرت عليه كتيبة الأنصار وحامل رايتها سعد بن عبادة فقال سعد : ياأبا سفيان اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الكعبة ، فقال أبو سفيان : ياعباس حبذا يوم الذمار ، وجاءت كتيبة رسول الله فأخبره بمقالة سعد ، فقال له : كذب سعد ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ، وقال العباس يارسول الله ان أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا ، فقال رسول الله : من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ،فسار أبو سفيان مسرعا إلى مكة ونادى بأعلى صوته : يامعشر قريش محمد قد جاءكم بما لاقبل لكم ، وأعلن أمانه لهم فتفرقوا الى دورهم والى المسجد وأمر رسول الله خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكه من كدى (١) ودخل هو من أعلاها من كداء(٢) ونادى مناديه أمامه بذلك الامان واستثنى منه جماعة اشتهروا بأذاهم للاسلام منهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح الذى كان أسلم وصار من كتاب الوحى فارتد وزعم أنه كان يغير ويبدل فيه ومنهم عكرمة بن أبى جهل وكعب بن زهير ووحشى قاتل حمزة وهند زوج أبى سفيان التى مثلت به ،فسار خالد حتى قابله الدعر من قريش يريدون صده فقاتلهم وقتل أربعة وعشرين منهم وقتل اثنان من جيشه ودخل مكة عنوة من جهته وسار رسول الله فلم يصده من جهته أحد حتى وصل الى الحجون فاستراح قليلا ثم سار وبجانبه أبو بكر يحادثه وهو يقرأ سورة الفتح حتى وصل البيت فطاف به وأخرج الاصنام منه وكان فى بعضها صورة اسماعيل وابرهيم فى أيديهما الازلام فقال رسول الله :

«١» جبل قريب من مكه على طريق اليمن « ٢ » جبل بأعلى مكه

قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها قط ، وخطب على باب الكعبة خطبة وضع فيها مآثر الجاهلية إلا السقاية والسدانة فأبقاها ، ثم قال : يامعشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم ؟ فقالوا : خيرا أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال اذهبوا فأنتم الطلقاء، ولما كان الغد خطبهم خطبة أخرى ذكر لهم فيها أن الله انما أذن له بالقتال فى مكة ساعة من نهار وقد عادت حرمتها كما كانت . وقد شمل ذلك العفو كثيرا ممن أهدر النبي دمه بشفاعة بعض أقاربهم من المسلمين لهم وتم فتح مكة ولم يرق فيه إلا تلك الدماء القليلة فزلزلت الوثنية العربية زلزالها وبعث رسول الله وهو فى مكة سرايا هدمت العزى أكبر أصنام قريش ببطن نخلة ، وهدمت سواع أعظم أصنام هذيل على ثلاثة أميال من مكة ، وهدمت مناة وهى صنم لكلب وخزاعة وهيكلها بالمشلل وهو جبل على ساحل البحر، ودخل الناس بعد ذلك أفواجا فى دين الله عز وجل

غزوتا حنين والطائف

حنين اسم موضع فى طريق الطائف إلى جنب ذى المجاز وقيل انه اسم لما بين مكة والطائف وتسمى غزوة حنين أيضا غزوة أوطاس وهو اسم لموضع كانت به وقعتها

وكانت غزوة حنين ورسول الله بمكة بعد أيام من فتحها وقد بلغه أن قبيلتى ثقيف وهوازن قد اجتمعا لحربه فى جموع كثيرة تبلغ نحو ثلاثين ألفا وقالوا قد فرغ محمد من قتال قومه ولا ناهية له عنا فلنغزه قبل أن يغزونا وكان قائدهم مالك بن عوف النصرى وصاحب رأيهم دريد بن الصمة وكان فارسا جاهليا مشهورا بالشجاعة واصالة الرأى وكان قد عمر وضعف فلم يكن له فى هذه الحرب إلا الرأى فامر مالك الناس أن يأخذوا معهم نساءهم وذراريهم وأموالهم

ليجعل خلف كل رجل أهله وماله يقاتل عنه ، فقال له دريد : وهل يرد المنهزم شيء إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه وان كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك ، فلم يقبلوا مشورته وأراد أن يرجع فمنعوه وقد قتل فى هذه الغزوة

فلما بلغ رسول الله ذلك خرج اليهم فى اثنى عشر الف مجاهد منهم ألفان من أهل مكة وعشرة الآلاف الذين خرجوا معه من المدينة وقد دخل المسلمين شيء من الزهو بهذه الكثرة وخرج معهم كثيرون من أهل مكة حتى النساء يرجون الغنائم التى نهى الله عن الخروج فى الجهاد لأجلها فأراد الله أن يعطيهم درسا فى هذه الغزوة يقرب من درس أحد ولا يقسو عليهم فيه رحمة بالمسلمين الاقدمين من المهاجرين والأنصار الذين مضوا فى هذه الغزوة على عادتهم فى القتال لا يريدون إلا وجه الله ونصر دينه وكان دريد بن الصمة قد أشار على مالك أن يجعل كمينا يكون له عونا فان حمل القوم عليه جاءهم الكمين من خلفهم وكرهو بمن معه عليهم وان كانت الحملة له لم يفلت منهم أحد فلما التقى الجيشان حمل المسلمون على المشركين فانكشفوا وانكب المسلمون على الغنائم فكر عليهم المشركون وأتاهم الكمين من خلفهم فانهزموا ويقال ان أهل مكة كانوا أول من انهزم وأنهم فعلوا ذلك عن عمد وثبت بعضهم حمية لقومه وكان ممن ثبت منهم صفوان بن أمية وهو على شركه الذى طلب من النبي أن يمهله فيه شهرين فأمهله فمر عليه بعض اخوته فقال الآن بطل السحر ، فقال له : أسكت فض الله فاك والله لأن يربنى رجل من قريش خير من أن يربنى رجل من هوازن ، وقال لآخر يبشره بذلك : أتبشرنى بظهور الاعراب ؟

وثبت رسول الله ومعه كبار أصحابه والعباس عمه آخذ بزمام بغلته وهو يقول :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

ثم قال للعباس وكان جهوري الصوت : ناد بالأنصار ياعباس ، فنادى : يامعشر الانصار ياأصحاب بيعة الرضوان ، فسمع من فى الوادى وصار الأنصار يقولون لبيك لبيك ويؤمون الصوت حتى اجتمع حول رسول الله جمع عظيم منهم وأنزل الله سكينته عليهم وأيدهم بجنوده التى يؤيدهم بها فى مثل تلك المواطن فكروا على عدوهم يدا واحدة ففرقوا جموعهم وهزموا جنودهم وتركوا أموالهم ونساءهم وذراريهم غنيمة للمسلمين

وقد مضت ثقيف فى هزيمتها مع بعض من هوازن فيهم مالك بن عوف إلى الطائف فأغلقوا أبوابها عليهم واستعدوا للدفاع عنها فسار اليهم رسول الله بمن معه وجعل على مقدمته خالد بن الوليد فلما وصلوها وجدوهم قد تحصنوا بها وأدخلوا معهم قوت سنتهم فعسكروا قريبا منها فرماهم أهلها بالنبل رميا شديدا حتى جرح كثير منهم فارتفع الرسول بهم الى محل مسجد الطائف الآن وجاءت نوبة سلمان الفارسى صاحب فكرة الخندق فى غزوة الأحزاب ولم يكن العرب يعرفون حرب الحصار فأشار على النبي أن ينصب عليهم المنجنيق ويقال انه صنعه بيده فكان أول منجنيق رمى به فى الاسلام ثم صنعوا دبابتين (١) لينقبوا عليهم السور وزحفوا فيهما إليه لينقبوه فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار حتى أرجعوهم فلما طال الحصار على المسلمين أمرهم رسول الله بقطع أعنابهم ونخيلهم فقطعوا فيها قطعا ذريعا فناداه أهل الطائف أن دعها لله وللرحم ، فقال أدعها لله وللرحم ، ورأى أن يتركهم بعد أن استشار نوفل بن معاوية الديلى ، فقال يارسول الله : ثعلب فى جحر ان أقمت أخذته وان تركته لم يضرك ، فأمر بالرحيل وطلب منه بعض

---

(١) الدبابة آلة تدفع فى أصل الحصن فينقبون وهم فى جوفها

أصحابه أن يدعو على ثقيف فقال : اللهم اهد ثقيفا وائت بهم مسلمين . وأصحاب السير يعدون ذلك غزوة أخرى مستقلة عن غزوة حنين وليس هو عندى الا تكميلا لغزوة حنين وتتبعا للمنهزمين منها الى الطائف ولهذا لم يقسم سبي حنين إلا بعد أن رجع من ذلك الحصار وكان قد تركه بالجعرانة

وقد رجع بهم إلى مكان السبي فأحصاه وأعطى منه شيئا كثيرا لبعض مسلمة قريش ومن بقى على الشرك منهم يتألفهم فأعطى أبا سفيان أربعين أوقية من الذهب ومائة من الابل وكذلك ابنيه معاوية ويزيد فقال له بأبى أنت وأمى لأنت كريم فى السلم والحرب ، وأعطى صفوان بن أمية شعبا مملوءا نعما وشاء كان رآه يرمقه ، فقال ماطابت بمثل هذا نفس أحد وكان ذلك سبب إسلامه . ثم أحصى مابقى وقسمه على الغزاة فاصاب الرجل أربعة من الابل وأربعون شاة وأصاب الفارس ثلاثة أمثال ذلك . فغضب كثير من الغزاة لهذه القسمة وقال بعض المنافقين : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فغضب رسول الله حتى احمر وجهه وقال ويحك من يعدل إذا لم أعدل وأراد المسلمون قتله فمنعهم منه ، وكان أكثر من غضب من الأنصار فقالوا : إن هذا لهو العجب يعطى قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم فجمعهم رسول الله وقال لهم : أغضبتم يامعشر الأنصار فى أنفسكم لشىء قليل من الدنيا ألفت به قوما ليسلموا ووكلتكم الى اسلامكم الثابت الذى لايزلزل ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحلكم فو الذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار ولو سلك الناس شعبا وسلك الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار ، فبكى القوم حتى أخضلت لحاهم

وقالوا رضينا برسول الله قسما وحظا

ثم جاء وفد هوازن بعدذلك ورئيسهم زهير بن صرد وقالوا : يارسول الله إن فيمن أصبتم الأمهـات والعمات والخالات وهن مخازى الأقوام ، يعنون عماته وخالاته من الرضاع لرضاعه فيهم

وقال زهير :

امنن علينا رسول الله فى كرم فانك المرء نرجوه وننتظر
امنن على نسوة قد كنت ترضعها إذ فوك مملوءة من مخضها الدرر
إنا لنشكر للنعماء ان كفرت وعندنا بعد هذا اليوم مدخر

فقال لهم : ان أحب الحديث إلى أصدقه فاختاروا احدى الطائفتين اما السبى وإما المال وقد كنت انتظرتـكم حتى ظننت أنـكم لاتقدمون ، ويمكننا أن نأخذ من هذا أن رسول الله لم يكن محبا لاسترقاقهم وأنه لم يسترقهم إلا بعد أن طال انتظاره بهم ، فاختاروا السبي على المال فأعطاهم سبيهم وامتنع من ذلك جماعة من الأعراب مثل الأقرع بن حابس والعباس بن مرداس فاستقرضه منهم وأعطاه لهم مما غنم بعد من غيرهم .

دخول سائر العرب فى الاسلام

رجع رسول الله بعد فتح مكة إلى المدينة وانتهت بذلك غزواته مع مشركى العرب وكانوا ينتظرون قريشا باسلامهم لأنهم كانوا زعماء وثنيتهم وسكان حرمهم فلما أسلموا تبعوهم فى الاسلام ودخلوا فى دين الله فوجا بعد فوج وتتابعت وفودهم إلى المدينة من السنة الثامنه للهجرة إلى السنة العاشرة وكانت الوفود تأتى من كل أنحاء الجزيرة حتى من الجهات النائية مثل عمان وحضر موت مما يدل على أن الذى كان يسوقها إلى الاسلام الرغبة فيه لاالخوف من أهله وإن أوهم كلام ابن اسحق أن الخوف وحده هو الذى أدخل

الناس فى الاسلام بعد الفتح والحقيقة أن بعضهم ساقته اليه الرغبة فيه وبعضهم ساقه اليه الخوف منه ولذلك ارتد كثير منهم بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ولم يعودوا الى الاسلام إلا بعد أن حاربهم أبو بكر فى خلافته .

وقد أراد الله أن يمحو الشرك من بين العرب ويجمعهم على الاسلام وحده فأنزل فى السنة التاسعة البراءة من المشركين فى سورة التوبة ولم يقبل منهم أن يبقوا على شركهم بعدها وجمهور العلماء على أن مثل العرب فى ذلك جميع الأمم المشركة والحق أن الشرك عار على الانسانيه وجهالة وانحطاط فيها لا يصح أن يبقى عليه ، وكان أبو بكر قد حج بالناس فى هذه السنة فأتبعه رسول الله عليا ليتلو على الناس فى الموسم هذه السورة فحرم على المشركين أن يقربوا المسجد الحرام بعد هذه السنة وأعلن البراءة منهم وضرب لهم أربعة أشهر يحاربون بعدها إن بقوا على شركهم فاذا كان لبعضهم عهد وفا به ولم يخل بشىء منه أتم اليه عهده إلى مدته ثم لا يجدد له عهد بعدها وكان لهذه الخطة الحازمة أثرها فى إسلام من بقى مترددا من العرب بين الاسلام والشرك ولم يلجئه أحد فى ذلك إلى حرب تذكر

ومن تلك الوفود التى وفدت على المدينة وفود صداء وتميم وطىء وثقيف وعبد القيس وبنى حنيفة وكندة وأزدشنوءة وملوك حمير وهمدان وثعلبة وغسان وغير ذلك من الوفود

غزوات اليهود

اسباب قتالهم

كانت مواقف رسول الله مع مشركى العرب على هـذا الترتيب : دعوة بالسلم إلى الهجرة ، فمقابلة الشدة بالشدة إلى صلح الحديبية ، فرجوع إلى السلم مع قليل من الشدة بعد هذا الصلح ، واليهود أهل كتاب وهم أحسن حالا فى الاسلام من المشركين وهو يقبل منهم أن يبقوا على يهوديتهم ولا يقبل من المشركين أن يبقوا على شركهم فلما هاجر الرسول الى المدينة جعل يهودها مع المسلمين أمة واحدة لهم فيها ما للمسلمين وعليهم ماعليهم وعقد معهم معاهدات عامة وخاصة ببعض بطونهم وقبائلهم وأمنهم من الخوف الذى كان مستحوذا عليهم قبل هجرته اليهم وقد كان العرب الذين يجاورونهم لايفتئون يقاتلونهم ويعتدون عليهم فكان على اليهود أن يشكروا الله على ذلك ويقوموا بالوفاء بما عاهدهم عليه ولا يشكوا فى اخلاصه فيما عاهدهم وكل شىء شاهدوه فيه كان يجب ألا يصيروا معه إلى هذا الشك فيه فلم يكن هنالك شىء عنده مثل احترام العهود وقد جعل من أصول شرعه تمييز أهل الكتاب على المشركين بقبول بقائهم على شرائعهم دونهم ولا معنى لذلك إلا أن معاملتهم فى الاسلام تكون بالحسنى وان لم يسلموا ، وهو مع هذا يدعو الى توحيد الله الذى يدعو دينهم اليه وقدعاشروا عباد الأصنام هذه القرون فكان يجب عليهم أن يرضوا بعشرته وأن يكون عندهم ولو لم يؤمنوا به خيرا منهم . ولكنهم ما كادوا يعقدون معاهداتهم معه ويرون نجاحه فى التأليف بين الأوس والخزرج بعد

ما كان بينهما من حروب حتى أخذوا يفكرون فى أمرهم ويظنون أن المسلمين إذا قووا سيعاملونهم مثل ماعاملهم الروم إذ أخرجوهم من ديارهم وينسون أن يثرب من بلاد العرب وليست من ديارهم

فأخذوا بعد عقد تلك العهود يعملون على أن يدخلوا النبي ﷺ ومن آمن به إلى دينهم وأطمعهم فيه أنه يدعو إلى التوحيد مثلهم ونسوا أن شريعتهم تكاد تكون خاصة بهم ولا تصلح الرسالة العامة التى بعث النبي بها وربما يشير إلى طمعهم فى ذلك قوله تعالى (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) فلما لم يجدوا مطمعا فى ذلك أخذوا يعملون على تفريق كلمة المسلمين وإثارة البغضاء القديمة بين الأوس والخزرج وقد مر شاس بن قيس اليهودى على نفر منهم فى مجلس يتحدثون فيه فغاظه مارأى من ألفتهم وقال : قد اجتمع ملأ بنى قيلة (الأوس والخزرج) بهذه البلاد لا والله مالنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار ، فأمر شابا من اليهود أن يجلس معهم ثم يذكر يوم بعاث وما كان قبله وينشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار ففعل فتكلم القوم عند ذلك وتفاخروا وتداعوا إلى السلاح فخرج اليهم رسول الله فما زال بهم حتى ندموا وعانق بعضهم بعضا وأنزل الله فى ذلك من سورة آل عمران (يأيها الذين آمنوا أن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم)

ثم حولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة فى أوائل السنة الثانية للهجرة فدخل اليهود من ذلك فيما لاحق لهم أن يدخلوا فيه وغاظهم أن يتحول المسلمون عن قبلتهم إلى الكعبة وذهبوا إلى رسول الله فقالوا له . يامحمد ماهو إلا شىء ابتدعته من تلقاء نفسك فتارة تصلى إلى بيت المقدس وتارة إلى الكعبة ،

وأكثروا من التنديد عليه فى هذا التحويل وأخذوا يشيعون بين المسلمين أن بيت المقدس قبلة الأنبياء ولو كان نبياً ماتحول عنها إلى الكعبة التى لا يعظمها إلا أهل الوثنية فافتتن بهم بعض المسلمين وارتدوا على أعقابهم ، وقد فتحوا بهذا باب الجدال مع رسول الله فأخذ يجادلهم فى دينهم وغيره من شؤونهم ومن ذلك تلك المجادلات الواردة فى سورة البقرة وغيرها من سور القرآن الكريم وهى مجادلات كلامية لم تخرج عما سنه الاسلام مع أهل الكتاب من مجادلتهم بالتى هي أحسن فاذا انحرف المسلمون فى مجادلتهم لليهود عن ت ع السنة وتنازعوا معهم حسم رسول الله ذلك بحكمته . روى البخارى أنه استب مسلم ويهودى فقال المسلم والذى اصطفى محمدا على العالمين فقال اليهودى والذى اصطفى موسى على العالمين فرفع المسلم يده عند ذلك فلطم اليهودى فذهب إلى النبي فشكاه اليه فقال رسول ﷺ : لاتخيرونى على موسى فان الناس يصعقون يوم القيامة فأصعق معهم فأكون أول من يفيق فاذا موسى باطش جانب العرش فلا أدرى كان فيمن صعق قبلى أو كان ممن استثنى الله ، فانصرف اليهودى راضيا واستمر الأمر على ذلك إلى أن بدا للنبي أمارات الخيانة منهم فنقض عهدهم وحاربهم واكتفى بنفى أكثرهم من تلك البلاد التى هى جزء من بلاد العرب ليلحقوا بديارهم التى أخرجوا منها اليها وهذا من حق أهل كل بلد مع من يطرأ عليهم إذا لم يحسن جوارهم

وقد حاول بعض(١) اليهود فى عصرنا أن يلقى تبعة ذلك القتال على المسلمين فزعم أن النبي لو اقتصر على محاربة الوثنية العربية لما وقع نزاع بين اليهود وبينه ولكنه تعرض لدينهم وكلفهم أن يعترفوا برسالته وهم لا يمكنهم أن يعترفوا برسول من غير بنى اسرائيل ولو لم يكلفهم بذلك لما صار هذا الجدال بينهم وبينه ثم إنه لم يكتف بذلك بل تأثر ببعض أعداء اليهود السياسيين من الخزرج

(١) الاستاذ إسرائيل ولفنسون

ممن لم يكن مخلصا فى ذلك لهولا لليهود وكان على رأسهم عبد الله بن أبى رأس المنافقين فطاوعهم فى ذلك وكان مال اليهود هو الذى يغريهم عليهم خصوصا المهاجرين الذين لم يكن لهم مال ولا مزارع بل كانوا يسكنون مع الأنصار من الأوس والخزرج

ولا يخفى أن النبي وان كانت دعوته عامة إلا أنه مع أهل الكتاب يكتفى بتبليغ دعوته إليهم ولا يكلفهم أن يعترفوا برسالته كما يزعم هذا الزاعم من اليهود وهم الذين بدءوا بفتنة المسلمين فثار بسببهم هذا الجدال الذى ذكر فيه النبي كثيرا من مساوئهم ولم يكن قبل ذلك يذكر شيئا منها لهم وهى مساوىء صحيحة لا شىء على من يذكرها وانما العيب على من يعرفها ويبقى عليها، أما عبد الله بن أبى فكان أخلص الناس لاولئك اليهود وهو الذى كان يدافع فى الغزوات الآتية عنهم ولم يكن رسول الله يسمع له فى شىء من أموره لعلمه بنفاقه ، وأما ذلك المال فالاسلام لا يعرفه فى قتاله وقد عاتب الله المسلمين وعاقبهم فى كل غزوة قصدوا المال منها ولو قصدوا ذلك من قتال اليهود لعاتبهم أو عاقبهم عليه وذكر ذلك فيما أنزله فى شأنه من كتابه

غزوة بنى قينقاع

بنو قينقاع بطن من اليهود كانت منازلهم بطحان بالمدينة مما يلى العالية وكانوا صاغة أصحاب فضة وذهب وأموال كثيرة جمعوها من الربا الفاحش الذى كانوا يعاملون به أهل المدينة ولم يكن لهم نخيل ولا أراضى تزرع مثلهم ولا مثل غيرهم من اخوانهم اليهود بالمدينة وما حواليها فكانوا أرباب طمع وجشع وقد رأوا فى ظهور الاسلام بالمدينة ونهضة أهلها به قضاء على طمعهم وجشعهم فيها وكانوا من بين اليهود يسكنون داخل المدينة فى أحياء خاصة بهم

ولهم بها أطمهم وحصونهم وكان اخوانهم من اليهود (بنو قريظة والنضير) يكرهونهم لأنهم كانوا قد اشتركوا مع الخزرج فى يوم بعاث فحاربوهم وأثخنوا فيهم وكانت لهم مزارع فأخذوها منهم فاجتمعوا كلهم بالمدينة فى حلف الخزرج بعد انتهاء هذه الحرب ، فكانوا بذلك أول من تأثر بظهور الاسلام بالمدينة وخشى منه على مطامعه فيها فحقدوا عليه وأثاروا تلك الفتن بين أهله ونقضوا بهذا عهدهم مع رسول الله مرارا كثيرة كما يشير إلى ذلك الآيات التى نزلت فيهم من سورة الأنفال وكانت غزوتهم فى السنه الثانية بعد غزوة بدر التى نزلت فيها هذه السورة (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون فاما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين) وقد ذكر بعض المفسرين أن ذلك كان فى بنى قريظة وهو خلط ظاهر لأن بنى قريظة كانت غزوتهم بعد الأحزاب فأين هى من غزوة بدر ومن سورة الأنفال التى نزلت فيها وفى الحوادث التى اكتنفتها، وانى لا أستبعد أن هذا النفاق الذى كان أكثره فى الخزرج كان بتأثير بنى قينقاع وحلفهم لهم مع أن الخزرج كانوا أسبق الى الاسلام من الأوس وكان عبد الله بن أبى رأس المنافقين من الخزرج وكانت صلته قوية ببنى قينقاع فلا بد أنهم هم الذين كانوا يحرضونه على النفاق ويساعدون المنافقين بأموالهم ويحرضونهم على اخوانهم . وقد انتهى بهم ذلك إلى سعيهم فى تثبيط بعض المسلمين عن غزوة بدر حتى ثقلوا عنها بتثبيطهم وخرج بعضهم كارها للخروج (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا من المؤمنين لكارهون) وقد أشار الله فى تلك السورة إلى نوع من تثبيطهم (إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم) فالذين فى

قلوبهم مرض هم أولئك اليهود حلفاء المنافقين لا قوم من قريش فيما قيل خرجوا معها فى تلك الغزوة وكانوا قد اسلموا إسلاما ضعيفا فلما رأوا قلة المسلمين قالوا هذا وارتدوا ، فأين هم من منافقى المدينة حتى يجتمعوا معهم فى ذلك القول ؟ وانما المرض الحقد الذى كان فى قلوب أولئك اليهود ، فلما خرج المسلمون وطالت غيبتهم أرجفوا بهم وأشاعوا أنهم قتلوا ليفتنوا من بقى فى المدينة منهم ويحدثوا عصيانا فيها على رسول الله فيقع بين نارين وينتهى بذلك أمره فى زعمهم . وقد قال بعض يهود عصرنا إن بنى قينقاع لو كانوا يريدون شيئا من ذلك لفعلوه وكان اشتغال المسلمين ببدر فرصة مناسبة لهم وقد خفى عليه أنهم كانوا قلة فى المدينة مكروهة من اخوانها اليهود وكان رسول الله يحتاط لذلك فلا يخرج من المدينة إلا ويترك فيها جنودا تكفيها اليهود وغيرهم من الأعداء

فلما انتهى رسول الله من غزوة بدر ورجع إلى المدينة أراد أن يتخلص من بنى قينقاع فنبذ اليهم عهدهم كما أمره الله تعالى على طريق مستو قصد وكان هذا بأن أظهر ذلك لهم قبل أن ناجزهم الحرب لئلا تكون مناجزتهم قبل ذلك خيانة لعهدهم ، وقد ذكر ابن هشام قصة تتضمن السبب فى اعلان الحرب عليهم : وهى أن امرأة من الأنصار جلست إلى صائغ بسوق بنى قينقاع فجعل بعض اليهود يريدونها على كشف وجهها فأبت فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده الى طرف طوقها فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وشدت اليهود على المسلم فقتلوه فغضب المسلمون وتواثبوا من كل جهة ، وذكر بعض يهود عصرنا أن هذه القصة لم يروها ابن هشام عن ابن اسحاق وهو المرجع الثقة له وهى مع ذلك

ليست موجودة فى كتاب الواقدى ومع أن هذا التشكيك فى صحة هذه القصة ظاهرا لضعف فبنو قينقاع قد فعلوا مما سبق أقبح منها وأشد ضررا بالمسلمين ولو أن هذه القصة لم يحصل منهم غيرها لداواها النبى بحكمته

فسار رسول الله الى بنى قينقاع وجمعهم بسوقهم وأعلن اليهم نبذ عهدهم ودعاهم الى الايمان به قبل أن يعلن الحرب عليهم وما كان النبي يريد منهم إذا لم يسلموا الا أن يتركوا هذا البلد الذي أساءوا الى أهله ولم يحسنوا جوارهم ولكنهم أجابوه بغلظة « يامحمد لايغرنك ما لقيت من قومك فانهم لاعلم لهم بالحرب ولو لقيتنا لتعلمن أنا نحن الناس » فعند ذلك تبرأ عبادة بن الصامت أحد رؤساء الخزرج من حلفهم وتمسك به عبد الله بن أبى الذى يزعم أن النبي قاتلهم بتحريضه له وتبع الخزرج عبادة رضى الله عنه فى التبرؤ منهم فتحصن بنو قينقاع فى حصونهم وسار اليهم رسول الله فى نصف شوال من السنة الثانية للهجرة فحاصرهم بها خمس عشرة ليلة وكانوا يطمعون فى مساعدة حلفائهم من الخزرج فلما لم يتحرك أحد لهم سألوا رسول الله أن يخلى سبيلهم فيخرجوا من المدينة ولهم الذرية وللمسلمين الأموال فقبل منهم ذلك وخلاهم فذهبوا الى أذرعات بالشام ولوا أنهم فعلوا ذلك من أول الأمر لترك لهم أموالهم ولم يأخذها منهم . وقد خمسها رسول الله فأعطى أصحابه أربعة أخماسها وجعل الخمس لنفسه ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل

غزوة بنى النضير

بنو النضير قبيلة كبيرة من يهود يثرب كانت لها أطم وزروع ونخيل بجوارها وذكر بعضهم أنهم كانوا من يهود خيبر وأن قريتهم كان يقال لها زهرة . ولا شك أن ما حصل لبنى قينقاع كان له أثر كبير فى نفوسهم وإن كانوا

أعداء لهم إلا أنهم على كل حال يهود مثلهم وكان بعض زعمائهم قد أعلن العداء لرسول الله وهو كعب بن الأشرف وبلغ من أمره أنه لما أصيبت قريش يوم بدر خرج يبكى قتلاهم وكان يقول الشعر فكان يهجو المسلمين ويشبب بنسائهم فأرسل اليه رسول الله من اغتاله ولم يعلنه بالحرب لأنه فرد وللعهد الذى بينه وبين قومه فأحب أن يأخذه هكذا حتى يفجأهم به فلا يكون سببا لحرب تقع بينهم وبينه وقد اختلفوا فى وقت قتله فقيل انه كان فى السنة الثالثة بعد خروج بنى قينقاع وقيل انه كان فى السنة الرابعة بعد يوم أحد وقبل غزوة قومه ولا يترتب على ذلك شىء له أهمية فى هذه الغزوة وإن حاول بعض يهود عصرنا أن يجعل لذلك أهمية

فسكن بنو النضير بعد خروج بنى قينقاع سكون من يترقب الفرص وأخذوا يوطدون العلائق بينهم وبين عبد الله بن أبى ومن معه من المنافقين مع أنهم نظروا بأعينهم انه لم ينفع حلفاءه من بنى قينقاع وهم لم يكن هناك حلف بينهم وبينه ولكنهم رأوه لا يخلص لرسول الله فجذبوه اليهم لينتفعوا به فان لم ينفعهم لم يضرهم فلما كانت غزوة أحد ورأوا جموع قريش والعرب قاصدة المدينة أخذ اليهود والمنافقون يرجفون ويعظمون فى شأن جموعهم ليفتوا فى عضد المسلمين واذا كان عبد الله بن أبى وافق رأى رسول الله فى عدم الخروج من المدينة فلأنه كان يكره ذلك الخروج ولا يحب أن يقاتل اخوانه من قريش ولم يكن ذلك لمصلحة رآها للمسلمين فيه ثم خرج المسلمون فخرج ابن أبى ليرجع من الطريق ويفت بذلك أيضا فى عضد المسلمين . وكان هناك نفر من بنى النضير مخلصون للعهد الذى بينهم وبين رسول الله مثل مخيريق اليهودى وقد دعا قومه الى الخروج مع المسلمين للعهد الذى

بينهم على أن يدافعوا عن المدينة من يداهمها فاعتذروا بان اليوم سبت لا يحل أن يحملوا فيه السلاح مع أنه كان يمكنهم أن يخرجوا فى اليوم الذى بعده ، فقال لهم مخيريق (لا سبت لكم) وأخذ سيفه وعدته وقال ان اصبت فمالى لمحمد يصنع فيه ماشاء وكان غنيا كثير النخيل وقد قاتل فى أحد حتى قتل فقال رسول الله : مخيريق خير اليهود

فلما أصيب المسلمون فى أحد أظهر بنو النضير والمنافقون الشماتة بهم وصار بنو النضير يصنعون ماصنع بنو قينقاع ويطعنون فى نبوة رسول الله ويقولون للمنافقين : مامحمد إلا طالب ملك ما أصيب بمثل هذا نبي قط أصيب فى بدنه وأصيب فى أصحابه ، وقد أنزل الله فى شماتهم وطعنهم فى رسول الله ما أنزله فيما أنزله من سورة آل عمران فى تلك الغزوة وهو فى ذلك تارة يقرنهم مع المنافقين فى التوبيخ على ذلك وتارة يخصهم وحدهم

ولا ريب أن كل هذا فيه نقض كثير لعهدهم مع رسول الله وهو وحده كاف لتبرير نبذ رسول الله له ولكن بعض أصحاب السير ذكر سببا لنبذ عهدهم : وهو أن النبي ذهب اليهم ليسألهم فى دية رجلين قتلهما بعض أصحابه خطأ وكان فى العهد الذى أخذه عليهم أن يعاونوه فى الديات وقيل ليسألهم كيف الدية فيهم لأنه كان بينهم حلف وبين قوم الرجلين فلما ذهب اليهم عزموا على قتله غيلة وكان فى عشرة من أصحابه فعرف رسول الله ذلك فقام مظهرا أنه يقضى حاجته وترك أصحابه معهم ورجع مسرعا الى المدينة فجمع أهلها لحربهم ونبذ عهدهم ، ولا يتفق أصحاب السير على أن سبب تلك الغزوة هو هذه القصة التى يهتم بنفيها بعض يهود عصرنا ويزعم أنها لو كانت صحيحة لذكرت فى سورة الحشر التى نزلت فى هذه الغزوة كأن كل شيء وقع فيها ذكر فى هذه السورة مع أنه لايبعد أن يكونوا قد أرادوا أن يقتصوا بذلك لكعب بن الأشرف الذى قتله المسلمون

غيلة وقد لاتكون هذه القصة صحيحة ويكون السبب غيرها مما ذكره أصحاب السير ، وهذا مع أن نبذ عهدهم لايحتاج اليها ولا الى غيرها بعد مناوآتهم السابقة للمسلمين . ثم يقول بعد هذا إنه لم يكن هناك من سبب إلا عدم خروجهم مع النبي فى غزوة أحد كما توجبه معاهدته معهم وكانوا قد رأوا أن موقعة أحد بعيدة عن المدينة فلا يلزمهم الخروج اليها ، وهذا كلام لانصيب له من الصحة ولم يكن ذكر قتال اليهود مع المسلمين عند مهاجمة المدينة إلا أمرا تقتضيه لغة المعاهدات السياسية وما كان النبي يريد أن يستعين بهم فى ذلك لأنه كان فى غنى عنهم بنصر الله له ولم يكن يريد منهم إلا أن يكفوه شرهم وقد كان يدعو الى دين يخالف دينهم فما كان له أن يعول مع ذلك عليهم وهذا هو الذى سار عليه من أول حروبه إلى أن أخرجهم من المدينة خصوصا بعد أن ناوءوه العداء وأخرج منهم بنى قينقاع وجرت بينهم وبينه تلك المجادلات وقد رأى كتيبة منهم فى غزوة أحد فسأل عنها فقيل حلفاء ابن أبى من اليهود فردهم، وروى أيضا أن الأنصار سألوه أن يستعين فيها بحلفائهم من اليهود فقال لا حاجة لنا فيهم وإذا كان مخيريق اليهودى قد دعاهم اليها فقد فعل ذلك من نفسه ولو كان نبذ رسول الله عهدهم للانتقام منهم بسبب عدم اشتراكهم معه فى غزوة أحد لفعل ذلك أيضا مع بنى قريظة لأنهم لم يشاركوه فيها والحقيقة ان المسلمين فى غزوة أحد كانوا فى حالة لاتدعوهم الى طلب المساعدة من غيرهم وكانوا من القوة بحيث أبوا إلا الخروج للقاء عدوهم ثم إنهم لم يؤتوا فيها من قلة حتى يحملهم ذلك على الغضب ممن لم يساعدهم والانتقام منهم

وكانت غزوة بنى النضير فى أوائل السنة الرابعة للهجرة وذلك بعد غزوة أحد التى كانت فى أواخر السنة الثالثة ولم يكن رسول الله يريد أن يحاربهم

بل كان يريد أن يخرجوا من المدينة كما خرج بنو قينقاع فبعث اليهم محمد بن مسلمة ان اخرجوا من بلدى فلا تساكنونى بها وقد أجلتكم عشرا فمن رؤى منكم بعد ذلك ضربت عنقه ، فهموا بالخروج واكتروا إبلا من أشجع لذلك فأرسل اليهم ابن أبى لاتخرجوا من دياركم وأقيموا فى حصونكم فان معى ألفين من قومى يدخلون حصونكم ويموتون عن آخرهم فاغتر حيي بن أخطب زعيمهم بذلك وأرسل الى النبي إنا لن نخرج من ديارنا فاصنع ما بدالك فسار اليهم رسول الله وقعد عنهم ابن أبى بعد أن طلب إلى بنى قريظة أن يساعدوهم فقالوا لا ينقض رجل واحد منا العهد ، فاذا أمكن أن يقال إن بنى قريظة والنضير قعدوا عن بنى قينقاع لما كان بينهم قبل الاسلام فلا يمكن أن يقال ذلك فى بنى قريظة مع بنى النضير وقد كانوا حلفاء مع الأوس فى حروبها مع الخزرج فلا بد أن الذى منعهم من مساعدتهم فى هذه الغزوة نقضهم عهد رسول الله الذى حافظوا عليه وأنه لم يكن هناك منه تعد عليهم . فحاصرهم ست ليال فى حصونهم وقيل خمسا وعشرين ليلة ثم أمر بقطع نخيلهم ارهابا لهم فلما شرعوا فى القطع ناداه بنو النضير : يامحمد قد كنت تنهى عن الفساد فما بال قطع النخل وتحريقها ؟ ولم يكن ﷺ يريد إلا ارهابهم ولذلك لم يقطع إلا ست نخلات حتى أوقع الله الرعب فى قلوبهم وسألوا رسول الله أن يجليهم ويكف عن دمائهم وأن لهم ما حملت الابل من أموالهم إلا آلة الحرب فاجابهم إلى ذلك ونزل بعضهم بخيبر وقصد بعضهم أذرعات إلى بنى قينقاع . ولم يخمس رسول الله ما أخذه منهم بل جعله كما أمره الله فى سورة الحشر (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) فلم يعط الجيش منه وأعطى فقراء المهاجرين كفايتهم حتى أمكنهم أن يردوا إلى الأنصار ما

أخذوه منهم عند هجرتهم وأخذ أرضا من أرضهم يزرعها ويدخر منها قوت عام لأهله وكان قد آن له ولهم أن يكونوا أصحاب أرض وزروع بالمدينة فرضى الأنصار من ذلك بما رد عليهم وطابت به للمهاجرين نفوسهم

غزوة بنى قريظة

بنو قريظة قبيلة كبيرة أيضا من يهود المدينة كانوا رجال فلاحة وزراعة وهدوء وسكينة ولم يكونوا فى ميل بنى قينقاع وبنى النضير إلى النزاع والمشاحنة فحافظوا على عهدهم مع الرسول إلى غزوة الأحزاب وان كانوا قد أضمروا عداءهم له فى أنفسهم وقد دعاهم بنو النضير إلى مساعدتهم فلم يسمعوا لهم فلما كانت غزوة الأحزاب ورأوا جموع العرب الكثيرة التى أتت لحرب المسلمين ظنوا أنه سيكون فى هذه الحرب القضاء عليهم خصوصا إذا انضموا إلى هؤلاء الأحزاب وأوقعوا المسلمين بين نارين وأتوهم من داخل المدينة وأحزاب العرب الذين جمعهم بنو النضير من خارجها ، فما كاد الأحزاب يرسلون اليهم حيي بن أخطب زعيم بنى النضير ليعرض عليهم الانضمام لهم حتى أجابوه إلى ذلك بعد تردد يسير منهم وقد اجتمع حيي بزعيمهم كعب بن أسد فقال له : قد جئتك بعز الدهر وببحر طام جئتك بقريش وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال فقال كعب ياحيي بن أخطب جئتنى والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماؤه فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء ويحك فدعنى وما أنا عليه فانى لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء ، فلم يزل بهحيي حتى نقض عهد رسول الله بعد أن عاهده ان رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا أن ينضم اليه بقومه إذا حاربهم . وقد ذكرنا فى غزوة الأحزاب ما كان من الأثر الشديد فى نفوس المسلمين من نقض بنى

قريظة عهدهم معهم وان الخوف بلغ منهم مبلغه حتى ظنوا بالله الظنون ونجم النفاق بين المنافقين وقال أحدهم : : كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط ، فأرسل اليهم رسول الله سعد بن معاذ سيد الأوس وكانوا حلفاءهم ومعه سعد بن عبادة سيد الخزرج وعبد الله بن رواحة فوجدوهم على أخبث ما بلغه عنهم فكلموهم فى شأن عهدهم مع رسول الله ، فقالوا : من رسول الله وتبرءوا من عهده فرجع سعد ومن معهم فأخبروه بأمرهم

فلما نجى الله المسلمين من هذا البلاء فى غزوة الأحزاب كان أول هم رسول الله غزوة بنى قريظة وكان قد رجع من تلك الغزوة فى وقت الظهيرة فقال لأصحابه لا يصلين أحد منكم العصر إلى فى بنى قريظة فساروا مسرعين إليهم وأدرك بعضهم العصر فى الطريق فصلاها فيه ولم يصلها بعضهم إلا فى بنى قريظة بعد مضى وقتها وكان قد تأخر فى المدينة لبعض حاجته وقد حمل الأولون أمر رسول الله على قصد السرعة وأخذ الآخرون بظاهره فلم يؤاخذهم على اجتهادهم مع اختلافهم فيه وأقرهم عليه ، ثم أخذوا يحاصرونهم فى حصونهم وقد انضم اليهم حيي بن أخطب كما وعدهم ودنا بعض المسلمين منهم فسمعوا منهم مقالة قبيحة فى حق رسول الله وأزواجه فسكت المسلمون وقالوا السيف بيننا وبينكم ، وأراد رسول الله أن يدنو منهم فأخبره أصحابه بأنهم يشتمونه فقال لهم : لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئا ، فلما دنا منهم أنكروا ما قالوه فى حقه وحق أزواجه ، وقد أبوا إلا الحرب فمكث حصارهم خمسا وعشرين ليلة ثم أدركهم اليأس فطلبوا من رسول الله أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير فلم يقبل ذلك منهم فطلبوا أن يخرجوا بأنفسهم من غير شىء فقال : لا بد من النزول والرضا بما يحكم عليهم خيرا كان أو شرا ، فطلبوا أن يرسل اليهم أبا لبابة

الأوسى ليستشيروه وكان له بينهم أولاد وأموال فلما ذهب اليهم استشاروه فى النزول على حكم الرسول فقال لهم انزلوا وأومأ بيده إلى حلقه يريد أن الحكم الذبح ، وقد أدرك من فوره أنه خان بهذا رسول الله فقصد المدينة من شدة الخجل وربط نفسه فى سارية من سوارى المسجد حتى قبل الله توبته ، ثم رضى بنو قريظة أن ينزلوا على حكم الرسول فأمر برجالهم فكتفوا وهنا أخذ رجال من الأوس يسعون فى أمرهم للحلف الذى كان بينهم ونسوا حلفهم مع المسلمين ونقضهم له وأن هذ الحلف الجاهلى نسخ به . فسألوا رسول الله أن يعاملهم كما عامل بنى قينقاع حلفاء الخزرج وكادت تكون فتنة فداواها رسول الله بحكمته وجعل الحكم فيهم لسعد بن معاذ سيد الأوس وكان جريحا من السهم الذى أصابه فى غزوة الأحزاب وكان أعز الأنصار على رسول الله وكان له فيهم كأبى بكر فى المهاجرين فأتوا به من المدينة وكان مقيما بخيمة فى المسجد معدة لمعالجة الجرحي فحملوه على حماره والتف عليه جماعة من الأوس يقولون له أحسن فى مواليك ألا ترى مافعل ابن أبى فى مواليه فقال لهم : قد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم ، وكان حكمه أن تقتل الرجال وتسبى النساء والذرية ، فقال له رسول الله : لقد حكمت فيهم بحكم الله ياسعد ، ثم خرج الى سوق المدينة فخندق بها خنادق ضرب أعناقهم فيها وطمرها عليهم وكانوا نحو ستمائة رجل ، ثم خمس غنائمهم ووجد فيها جرار خمر فأراقها

وقد ذكر بعضهم شدة هذا الحكم وأن ذلك راجع إلى غدرهم فى غزوة الأحزاب والأعداء محيطون بالمدينة وأنه مع ذلك حكم التوراة فى الاصحاح العشرين فى سفر التثنية (حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها للصلح

فان أجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الذى فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك وان لم تسالمك بل حاربتك فحاصرها واذا دفعها الرب إلهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف وأما النساء والأطفال والبهائم وكل مافى المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التى ليست من مدن هؤلاء الأمم وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما)

ولكن مالنا ولهذا الحكم الشديد فى التوراة نسوغ به شدة الحكم فى بنى قريظة وللتوراة حكمها وللاسلام حكمه وقد جرى النبي فى حروبه على اطلاق الأسرى بالمن أو الفداء ماعدا بنى قريظة، وانى أستطيع أن أجزم بأن الغضب عليهم مما فعلوا فى غزوة الاحزاب لم يكن هو الذى اقتضى وحده أن يعاملوا بهذه الشدة فقوة الغضب لاتؤثر فى الاسلام الى هذا الحد والصفح عنده مقدم عليها وقد صفح الله عن بنى قينقاع وبنى النضير وكانوا يناوئون الاسلام أكثر من بنى قريظة وانما الحقيقة أن رسول الله لم يجد بدا من هذا الحكم فيهم للأسباب الآتية :

«١» أنه صفح قبلهم عن بنى النضير ومن عليهم بأنفسهم وأموالهم فلم يقابلوا هذا الصفح بما يليق به بل ذهبوا الى قبائل العرب فألبوهم عليه ولم تكن الدار التى أخرجوا منها دارهم حتى يعذروا فى محاولتهم الرجوع اليها كما يحاول ذلك بعض يهود عصرنا وانما هى ديار العرب أخرجوهم منها لأنهم لم يحسنوا جوارهم فكان عليهم ان يبحثوا عن غيرها ولا يحاولوا الرجوع اليها

«٢» أن زعماء بنى النضير حينما ذهبوا الى قريش فسألتهم عن دينهم ودين محمد فضلوا دينها على دينه وهم يعلمون أنه يدعو الى التوحيد الذى يزعمون

أنهم يدعون اليه فارتدوا بذلك عن دينهم وكانوا شرا من مشركى العرب ولم يكفهم تأييدهم الفعلى لهم فى هذه الحرب وهو فى قوة ارتداد منهم أيضا عن دينهم وقد رضى بنو قريظة بمشاركتهم فى ذلك مع أحزاب المشركين التى جمعوها فلما ذهب الأحزاب أدخلوهم معهم فى حصونهم واستعدوا لحرب الرسول ولم يندموا على مافعلوا من نقض العهد وتأييد أهل الشرك ولو أنهم بادروا بذلك لكان الرسول ربما صفح عنهم ولكنهم آثروا الحرب وعابوا فى حقه وحق أزواجه

«٣» ان كثيرا من مسلمى الأوس افتتنوا بهم بعد سبيهم وأظهروا عطفا كثيرا عليهم ونسوا مافعلوه معهم

فكان لهذه الاسباب اطلاقهم فيه مضرة أن يعودوا الى تأليب العرب على المسلمين كما فعل بنو النضير وكان بينهم كثير منهم ، وكذا استبقاؤهم بأيدى المسلمين وهم يهود لايرجى اسلامهم فيه مضرة افتتانهم بهم خصوصا بعد عطفهم السابق عليهم وكان بينهم كفايتهم من منافقى العرب الذين كانوا يثيرون كثيرا من الفتن بينهم ويتحملهم النبي من أجلهم فكيف بهم لو انضم اليهم هذا العدد الكثير من أولئك اليهود ؟ فلم يجد رسول الله بدا من تنفيذ حكم القتل فيهم وعدهم مرتدين عن يهوديتهم بمساعدتهم أهل الشرك عليه وهو يدعو الى التوحيد الذى يزعمون أنهم يدعون اليه ولاشك أنهم يستحقون بهذا وحده ذلك الحكم عند كل يهودى منصف وقد أخذ عليهم ذلك بعض يهود عصرنا وذكر أنه ما كان يصح لزعماء بنى النضير أن يفضلوا عبادة الأصنام على التوحيد الاسلامى ولو لم تجبهم قريش الى مطالبهم

غزوة خيبر

خيبر مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع ونخل كثير على ثمانية برد من المدينة فى الشمال الغربى الى جهة الشام وكانت حصونها ثلاثة منفصلا بعضها عن بعض (النطاة والكتيبة والشق) ويشتمل الأول على ثلاثة حصون (ناعم والصعب وقلة) ويشتمل الثانى على حصنين (أبى والبرىء) ويشتمل الثالث على ثلاثة حصون (القموص والوطيح والسلالم)

وكان يهود خيبر قد شاركوا بنى النضير فى تأليب العرب فى غزوة الاحزاب وهم الذين دفعوا حلفاءهم من غطفان اليها فرأوا بعد غزوة بنى قريظة أن المسلمين لابد أن يقصدوا حربهم فأشار عليهم سلام بن مشكم أن يجمعوا اليهم يهود وادى القرى وتيماء ثم يزحفوا بهم إلى يثرب ولكن بعض زعمائهم عارضه فى ذلك وقد علم رسول الله بعزمهم على قتاله بعد الذى كان منهم من المشاركة فى تأليب الأحزاب عليه وكان أشدهم أثرا فى ذلك سيدهم أبورافع سلام بن أبى الحقيق الملقب بتاجر أهل الحجاز وكان له ثروة طائلة يقلب بها قلوب اليهود كما يريد فانتدب له رسول الله من قتله كما قتل كعب بن الأشرف لعل قومه يهدءون بعده ولكن ذلك زادهم عداوة له فولوا عليهم أسير بن رزام فقال لهم : سأصنع بمحمد مالم يصنعه أحد قبلى أسير إلى غطفان فأجمعهم لحربه ، فارسل له رسول الله عبد الله بن رواحة فى ثلاثين من الانصار يستميله للصلح فعرضوا ذلك عليه وأن يوليه رسول الله على خيبر فيعيش أهلها بسلام فأجاب الى ذلك وخرج معهم الى المدينة فى ثلاثين يهوديا فلما كان بالطريق ندم على مافعل وأراد الغدر بعبد الله ومن معه فأعانهم الله عليه فقتلوه

والثلاثين الذين معه . ويزعم بعض يهود عصرنا أن عبد الله لم يبعث إلا للغدر بأسير ولو كان ذلك صحيحا لفعل به رسول الله مثل مافعل مع كعب وأبي رافع وقد كان رسول الله يريد حقيقة مسالمة يهود خيبر وألا يعاملهم معاملة يهود يثرب لأن الظاهر أنهم لم يكونوا قد ارتبطوا بعهد معه فنقضوه مثلهم

وقد سكت رسول الله بعد ذلك عنهم ليعود متى تهيأت له الأسباب الى غزوهم ، وقد تهيأ له ذلك فى السنة السابعة بعد صلح الحديبية مع قريش وما حصل به فى نفوس المسلمين من ألم الرجوع بدون عمرة فوعدهم الله فتحا قريبا يرضيهم به (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا) ويزعم بعض يهود عصرنا أن الرسول لم يذهب الى قريش ويعرض عليها هذا الصلح إلا ليتمكن من حرب يهود خيبر بدون أن يكون عرضة لخطر من جهة أخرى وقد ذكرنا أن هذا الصلح كان خالصا لأغراضه التى ذكرناها ومن يتأمل فى سير الحوادث يرى أن قريشا بعد غزوة أحد انصرفت عن غزوة المدينة حتى إنها لم تخرج الى غزوة الاحزاب إلا بتحريض اليهود فلما حصل لها وللاحزاب فيها ماحصل انصرفت نفسها عن ذلك أكثر مما كانت حتى قال رسول الله عقبها فى ذلك (الآن نغزوهم ولا يغزوننا) فلم يكن إذن يخشى شيئا من جهة قريش يحمله على مصالحتها قبل غزو يهود خيبر ولقد اشتغل بعد صلح الحديبية بمكاتبة ملوك عصره وأمرائه فكاتب بعضا منهم قبل غزوة خيبر ولو كان يدبر كل ذلك لها لبادر بها وترك ذلك الأمر الذى قد يجر عليه غضب بعض ملوك عصره

وقد خرج رسول الله إلى غزوة خيبر فى المحرم من السنة السابعة للهجرة ولم يخرج لها إلا من كان معه فى الحديبية وجاء الذين تخلفوا عنها ليأذن لهم فأذن لهم أن يخرجوا رغبة فى الجهاد ولا يأخذوا شيئا من غنائمها وبدأ بحصون

النطاة فحاصر منها حصن ناعم فطال حصارهم له وأصيب كثير من المسلمين فى حصاره فأمر رسول الله بقطع نخيلهم إرهابا لهم فلم يؤثر ذلك فيهم فأمر بالكف عن النخيل ثم أسروا واحدا من أهل الحصن فساروا به الى رسول الله فقال لهم : ان أمنتمونى أدلكم على أمر فيه نجاحكم ان أهل هذا الحصن أدركهم الملال وقد تركتهم يبعثون بأولادهم إلى حصن الشق وسيخرجون لقتالكم غدا فاذا فتح عليكم هذا الحصن غدا فانى أدلكم على بيت فيه منجنيق ودبابات ودروع وسيوف يسهل عليكم بها فتح بقية الحصون فأعطى رسول الله فى الغد راية الحرب لعلى رضى الله عنه ففتح الله على يده هذا الحصن بعد أن أبدى من ضروب البطولة فى القتال ماهو معروف به وتتابعت بعده بقية الحصون واستعملوا فى حصارها الآلات التى دلهم ذلك اليهودى عليها وقد فتحت كل الحصون عنوة ما عدا حصنى الوطيح والسلالم فقد طلب أهلها الصلح على أن يخرجو من أرض خيبر بذراريهم فأجابهم رسول الله الى الصلح ولكنه أبقاهم وأبقى كل يهود خيبر على أن يعطوا نصف ثمارها للمسلمين وقبل منهم فداء نسائهم وذراريهم ، وكانت صحائف من التوراة فى المغانم فطلبوها منه فردها لهم ولم يفعل فيها مافعله الروم حين تغلبوا على بيت المقدس سنة ٧٠ من الميلاد المسيحى فكان لذلك وقع حسن عندهم . وانما عاملهم رسول الله هذه المعاملة التى لم يعامل بمثلها بنى قريظة لأنهم لم يكن لهم عهد تقضوه مثلهم ولم تشتد إساءتهم اليه كما اشتدت إساءتهم

وانتهى بغزوة خيبر شأن اليهود فى بلاد العرب وذهبوا بخزى حقدهم عليهم لنهوضهم بهذا الدين وكانوا يريدون أن يبقوا فى جهالتهم لينعموا وحدهم بخيرات بلادهم وكان عليهم أن يسيروا بنهوضهم ليقوموا بحق بلادهم

عليهم وقد ذهبوا أيضا بخزى دينى أشد من هذا الخزى السياسى وهو خزى إيثار وثنية المشركين على توحيد الاسلام فوادوا أهلها من منافقى المدينة فى أول أمرهم ثم عقدوا المحالفات على توحيد الاسلام مع أربابها من قريش وغيرهم وختموا ذلك بالفتوى الشنيعة التى فضلوا فيها الوثنية على ذلك التوحيد حينما استفتتهم فيها قريش

غزوات النصارى

قلة حروبهم

لم يلاق رسول الله من نصارى عصره هذا العداء الشديد الذى لاقاه من اليهود فالنصارى لا يبلغ تعصبهم لنصرانيتهم مبلغ تعصب اليهود ليهوديتهم وذلك لأن اليهود يتعصبون ليهوديتهم بدافعين من ناحيتى الدين والجنسية لأنها كانت خاصة بهم أما النصرانية فكان يجتمع فيها شعوب كثيرة فلم يكن تعصب أهلها لها إلا من ناحية الدين فقط وقد شهد الله تعالى بأن النصارى أقرب مودة للمسلمين من اليهود (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى)وقد دخل النصارى فى دين الله أفواجا بعضهم فى حياة رسول الله وأكثرهم بعد وفاته وفتح بلادهم على عهد الخلفاء الراشدين ومن لم يسلم منهم فى حياته سالمه أكثرهم فسالمهم ، وممن أسلم منهم بنو عبد المدان من نصارى نجران أرسل اليهم خالد بن الوليد فى سرية فدعاهم الى الاسلام فأسلموا ووفد عليه من نصارى نجران غيرهم وفد فى ستين راكباً فدخلوا المسجد وعليهم أردية

الحرير ومعهم بسط فيها تماثيل مسوح جاءوا بها هدية له فلم يقبل البسط وقبل المسوح ثم جاء وقت صلاتهم فصلوا فى المسجد مستقبلين بيت المقدس وهذا تسامح إسلامى لايشارك الاسلام دين فيه ، فدعاهم الى الاسلام فأبوا ورضوا باعطاء الجزية فقبلها منهم

وقد دعا قيصر الروم الى الاسلام فى كتاب أرسله اليه مع دحية الكلبي فلم يسلم ولكنه رد دحية ردا جميلا ولم يمزق الكتاب كما مزقه كسرى ، ثم دعا نجاشي الحبشة فلم يسلم ورد ردا جميلا أيضاً وكان ذلك فى السنة السادسة للهجرة ومهاجرو الحبشة من المسلمين لا يزالون عنده وفى رعايته ، ثم دعا المقوقس أمير مصر فرد رسوله بهدايا فيها مارية القبطية ولكنه لم يسلم

ولم يسىء إجابة الرسول إلا أهل بصرى ودمشق من الغساسنة ، فأما رسوله الى بصرى فقابله شرحبيل بن عمرو الغسانى فقال له : أين تريد ؟ فقال الشام ، فقال له : لعلك من رسل محمد ؟ فقال نعم ، فأمر به فضربت عنقه ، وأما رسوله الى دمشق فرمى أميرها كتابه حين قرأه وقال : من ينزع ملكى منى ؟ واستعد ليرسل جيشاً لحرب المسلمين واستأذن قيصر الروم فى ذلك فصرفه عنه وأمره بأن يهيىء له إيليا لأنه كان نذر زيارتها إن قهر الفرس واسترد الشام منهم . فأرسل رسول الله فى السنة الثامنة للهجرة سرية فى ثلاثة آلاف للقصاص ممن قتل رسوله وأمر عليهم زيد بن حارثة وقال لهم إن أصيب فالأمير جعفر بن أبى طالب فان أصيب فعبد الله بن رواحة وكان فيما وصاهم به (اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام وستجدون فيها رجالا فى الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم ولا تقتلوا امرأة ولاصغيرا ولا تقطعوا شجرا ولا تهدموا بناء) وهذه وصايا ما كانت تعرف فى الحروب

البشرية الى عهده ﷺ ، فساروا حتى وصلوا مؤتة (١) مقتل رسول النبي إلى أهل بصرى فوجدوا فيها جموعا لا تحصى من الروم والعرب فقاتلوهم ولم يرهبوهم وقاتل زيد حتى قتل ، فأخذ رايته جعفر فقاتل حتى قتل ؛ فأخذ رايته عبد الله فقاتل حتى قتل ، فاتفق الجيش على تأمير خالد بن الوليد فأبدى من المهارة الحربية ما أمكنه به إنقاذ هذا الجيش الصغير من ذلك العدد الكثير فخالف ترتيب العسكر فجعل الساقة مقدمة والمقدمة ساقة والميمنة ميسرة والميسرة ميمنة فظن الأعداء أن المسلمين جاءهم مدد فرعبوا ثم أخذ يرجع بهم الى الوراء ويناوشهم فى ذلك عدة أيام حتى خاف الأعداء أن يجرهم الى قلب الصحراء فانقطعوا عنه ورجع الى رسول الله بجيشه فأثنى عليه وعظم عليه مصاب جعفر ومن قتل معه وكان جعفر قد رجع قريباً من هجرته الى الحبشة بعد غزوة خيبر فحزن النبى عليه أشد حزن . وهكذا اعتدى نصارى الشام على المسلمين وجروهم الى حربهم وتتابعت بهذا الحروب بين النصارى والمسلمين الى الآن

غزوة تبوك

تبوك أرض بين الشام والمدينة وكانت أرضاً خالية من العمارة ؛ وقد بلغ رسول الله أن نصارى الروم والعرب جمعوا له جموعاً عظيمة تريد غزوه فدعا الناس الى الخروج اليهم وهم فى شدة الحر وقد طابت الثمار فيحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم والصيف فى بلاد العرب فصل العسرة والجدب فثقل على كثير من المسلمين التهيؤ لهذه الحرب وهم سيحاربون فى هذه المرة جيوش الدولة الرومية التى تقتسم الأرض مع دولة الفرس فى ذلك العصر ؛ فحث

---

(١) قرية قريبة من الكرك وهى مشارف الشام

رسول الله الموسرين على تجهيز المعسرين وضرب عثمان بن عفان لهم أعظم مثل فى التبرع فقدم لرسول الله عشرة آلاف دينار وثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها وخمسين فرساً ، فقال رسول الله : اللهم ارض عن عثمان فانى راض عنه ، وتبعه أبو بكر بأربعة آلاف درهم وكانت كل ما يملك وتبعهما عمر بن الخطاب بنصف ماله وتبارى الرجال والنساء فى التبرع فأرسلت النساء بكل ما يقدرن عليه من حليهن ، وبعث رسول الله الى مكة وقبائل العرب يستنفرهم لذلك حتى اجتمع له ثلاثون ألفاً فسار بهم فى السنة التاسعة للهجرة وتخلف المنافقون وبعض الأعراب وقال عبدالله بن أبى : يغزو محمد بنى الاصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد يحسب محمد أن قتال بنى الاصفر معه اللعب والله لكأنى أنظر الى أصحابه مقرنين فى الحبال . فلما وصل رسول الله تبوك لم يجد أحدا من جيش الروم بها فأقام هناك أياما جاءه فى أثنائها يوحنا صاحب أيلة وغيره من نصارى تلك الناحية فصالحوه على الجزية ثم استشار أصحابه فى مجاوزة تبوك فأشار عليه عمر أن يرجع ويكتفى بما أفزعهم من خروجه لهم ودنوه من أرضهم وألا يخاطر بالمسلمين داخل بلادهم فرجع الى المدينة وكانت هذه الغزوة آخر غزواته

وقد قص الله حوادث تبوك فى سورة براءة ووبخ المنافقين فيها على ما بدا منهم وقد مات فى هذه السنة رئيسهم عبد الله بن أبى فصلى عليه رسول الله وشيع جنازته تطييباً لقلب عبد الله ابنه وتأليفاً لقلوب الخزرج لما كان له من المكانة فيهم وقد نزع كثير من المنافقين بعد هذا عن نفاقه لما رآه من كرم أخلاق رسول الله مع ابن أبى بعد موته ثم نهاه الله بعد ذلك عن الصلاة على المنافقين وعاتبه على صلاته على ابن ا . ، وكان لهذا أيضاً أثره فى

إقلاعهم عن نفاقهم لئلا يحرموا مما لم يحرم ابن أبى منه فهو فى ظاهره لوم لرسول الله وهم المقصودون به وتراد مصالحتهم منه ، وهكذا حافظ رسول الله الى النهاية على حق جوار أنصاره فى أولئك المنافقين فأين منه ما فعله اليهود فى جواره وجوارهم ؟

حجة الوداع

خرج رسول الله الى تلك الحجة فى السنة العاشرة من الهجرة ومعه جمع عظيم يبلغ تسعين ألفاً وتمتاز هذه الحجة بخطبتها الجامعة التى خطبها يوم عرفة فودع فيها الناس وأشعرهم بدنو أجله فسميت بهذا حجة الوداع ثم بين لهم مناسكهم وأبطل كثيرا من شعائر الجاهليه وبين كثيرا من أحكام الاسلام ، ومما جاء فيها بعد حمد الله والثناء عليه :

أيها الناس : اسمعوا منى أبين لكم ، فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا ، فى موقفى هذا . أيها الناس ان دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم ، فيسألكم عن أعمالكم — وقد بلغت — فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمن عليها . وان كل ربا موضوع ، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، قضى الله أنه لا ربا ، وإن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله . وان كل دم فى الجاهلية موضوع وإن أول دمائكم أضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، فهو أول من أبدأ به من دماء الجاهلية

أيها الناس : ان النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما

ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله ، وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم : ثلاثة متواليات وواحد فرد (ذو القعدة وذو الحجة ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان)

أما بعد أيها الناس : فان لكم على نسائكم حقا ، ولهن عليكم حقا : لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة ، فان فعلن فان الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع ،وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فان انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيرا فانهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله

أيها الناس : ان الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، ولا تجوز لوارث وصيته ، ولا تجوز وصية فى أكثر من الثلث ،والولد للفراش وللعاهر الحجر ، من ادعى الى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لايقبل منه صرف ولا عدل ، والسلام عليكم ورحمة الله

مرضه عليه الصلاة والسلام ووفاته

خرج رسول الله فى الثامن عشر من صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة الى البقيع نصف الليل فاستغفر لأهله ثم رجع فاشتكى وأصابته حمى فجلس على المنبر مرة وكان فيما قال (إن عبدا خيره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا وبين ما عنده فاختار ماعنده) فبكى أبو بكر وقال : يارسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا ، فقال ﷺ : ان أمن الناس على فى صحبته وماله أبو بكر فلو كنت

متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر ولكن اخوة الاسلام لايبقى فى المسجد خوخة إلا سدت إلا خوخة أبى بكر ، ثم اشتد عليه المرض فاستأذن نساءه أن يمرض عند عائشة وأمر أبا بكر أن يصلى بالناس فكان يصلى بهم . وبينما المسلمون فى صلاة الفجر من يوم الاثنين (١٣ من شهر ربيع الأول — ٨ يونيه سنة ٦٣٢ م) إذا برسول الله قد كشف سجف حجرة عائشة فنظر اليهم وسرته هيئتهم فى صلاتهم وألفتهم بعد ما كان من تفرقتهم فتبسم يضحك فنكص أبو بكر الى الصف الذى خلفه ليؤم رسول الله الناس وظن أنه يريد الصلاة وفرح المسلمون حتى كادوا يفتتنون فى صلاتهم فأشار اليهم ان يتموا صلاتهم ودخل الحجرة وأرخى الستر ولم يأتى ضحى هذا اليوم حتى لحق بمولاه فجزع المسلمون أشد جزع وكاد يدركهم من الغلو فى نبيهم ما أدرك الأمم قبلهم حتى إن عمر وهو من العقل ماهو سل سيفه وتوعد من يقول مات رسول الله وقال : انما أرسل اليه كما أرسل الى موسى فلبث عن قومه أربعين ليلة والله انى لأرجو أن يقطع أيدى رجال وأرجلهم ، وقد وقع فى نحو هذا بعض الفرق الاسلامية الذين يقولون بالامام المنتظر . وكان أبو بكر غائبا بالسنح فى منازل بنى الحارث بن الخزرج فرجع ووجد المسلمين فى هذه الحال فجمعهم وقال لهم ألا من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى لايموت ، وتلا قوله تعالى (انك ميت وانهم ميتون) وقوله (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين) فهدأ المسلمون وزالت عنهم دهشتهم . ومكث ﷺ فى بيته الى ليلة الاربعاء حتى انتهوا من إقامة خليفة عليهم فغسل وكفن ودخل الناس عليه ارسالا متتابعين يصلون

عليه ولم يؤمهم أحد ، ثم حفر له لحد فى حجرة عائشة فدفن فيه وقد بلغ نحوا من ثلاث وستين سنة قضى منها ثلاثا وعشرين يبلغ رسالته ولم يلحق بمولاه الا بعد أن أتم له دينه وأعلن ذلك فى آخر سورة أنزلت عليه وهى سورة المائدة (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا)

أثر الاسلام فى حياة العرب

كان العرب قبل الاسلام ينقصهم كل مقومات الأمم من دين ينظم علاقتهم مع ربهم وعلاقة بعضهم مع بعض ، ومن حكومة يخضع لها أفرادهم وقبائلهم فتجمع كلمتهم وتكفل لهم أمور معاشهم ومعادهم ، فتحقق لهم بالاسلام كل هذه المقومات وأصبحوا به عند وفاة النبي أمة واحدة يدين جمهورها به وليس بينها إلا جماعات قليلة تدين باليهودية أو النصرانية ولم يبق للشرك أثر ما بينهم وقد أقام الاسلام بناءها على هذين الأساسين اللذين لم تبن عليهما أمة قبلها (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والايمان بالله وحده) وجعلها بهما خير الأمم (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون) والأساس الأول يتعلق بحياتهم السياسية والأساس الثانى يتعلق بحياتهم الدينية وكل شرائع الاسلام تنطوى تحت هذين الأساسين وتنقسم بالنظر اليهما الى قسمين : قسم العبادات الذى ينظم علاقتهم مع ربهم ، وقسم المعاملات الذى ينظم علاقة بعضهم مع بعض .

وقد شرع الاسلام فى مكة من ذلك ما ذكرناه فى تشريعها مما يتعلق

أكثره بأصول الدين وعقائده وشرع فى المدينة أكثر مما شرع فى مكة لتعلقه بالفروع التى تتشعب موضوعاتها وتختلف مناحيها من بيوع ونحوها إلى مواريث وأنكحة وحدود الى غير ذلك من أنواعها . وكان لهم من ذلك شرع كامل يكفل لهم سعادة الدنيا والآخرة ويفتح أمامهم أبواب الرقى والنهوض . وهذه هى أعظم آثاره فيهم :

(١) القضاء على الوثنية العربية وخرافاتها وتثبيت عقيدة التوحيد وعلومها الصحيحة التى استنارت بها الاذهان واستضاءت العقول وهدتها الى علوم الدنيا ومعارفها

(٢) التسوية بين الأفراد فى الدين والحقوق والأنساب فأصبحوا سواسية كأسنان المشط لا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالعمل الصالح وأصبح العدل نافذا فى العظيم قبل الحقير وفى الراعى قبل الرعية

(٣) إزالة العصبيات بين القبائل وجعل الجميع أمة واحدة فى ظل إخاء عام شامل فبطلت الحروب العربية وحلت المحبة والألفة مكان العداء والفرقة .

(٤) الطاعة لمن يتولى الأمور العامة فى حدودها المقبولة التى لا تصل الى حد الخنوع للحاكم والخلو من رقابة من الامة عليه وقضى بذلك على الفوضى التى كان كل عربى فيها ملك نفسه ، ولا يرى سلطة عليه لغيره .

(٥) مراقبة الله تعالى فى جميع الأمور والعمل بما أمر به وترك ما نهى عنه وقيام كل أفراد الامة بما طالبهم به من الامر بالمعروف والنهى عن المنكر .

(٦) ارتفاع القوى المعنوية فى أفراد الامة واعتزازها بالدين الذى نهض بها هذا النهوض واستهانتها فى سبيله بكل ما تملك من نفس ومال وأهل ؛ وهذا الأثر هو الذى أتاح لها ماوصلت اليه من الفتوحات الواسعة فى عصر الخلفاء الراشدين وتغلبت به على أمم لم يكن لها ما لها من قوة السلطان وكثرة الرجال وعظمة الآلات الحربية والوسائل الصناعية والزراعية والمالية .

عصر الخلفاء الراشدين

(١) الخلافة : يجب اذا أردنا أن نبين معنى الخلافة أن نضم اليها فى ذلك أيضاً (الامامة والملك) لنبين الفرق بين الالفاظ الثلاثة ونحدد معانيها التى لم تحدد الى الآن تمام التحديد . فالخلافة عقد بايجاب وقبول بين الامة ومن تختاره لولاية أمرها فى دينها ودنياها ، فهى من نوع عقد الوكالة ولا تقوم إلا بالمشورة والمعول عليه فى ذلك مشورة أهل الحل والعقد من البلد التى يقوم فيها الخليفه أو من أهل كل بلد على الخلاف فى ذلك ولعل إدخال كل بلد فى اختيار الخليفة أقرب من غيره الى تحقيق معنى المشورة .

والامامة رياسة عامة فى أمر الدين والدنيا نيابة عن النبى ﷺ ، وهى أعم من الخلافة لانها قد تقوم مع الملك الآتى ويرادف لفظ الامام لفظ أمير المؤمنين والامامة فى اللغة القدوة فلا يقصد منها فى الشرع الا نصب شخص يقتدى به المسلمون وتجتمع اليه كلمتهم خليفة كان أو ملكا

والملك حكم عام يورث ولا يتوقف على بيعة من أهل الحل والعقد فى

الامة ، فالملك يكون إماما وأميرا للمؤمنين ولا يكون خليفة والذى يجب على الامة أن تقوم به من ذلك الامامة التى تجتمع اليها كلمتها وتفصل فى أمور دينها ودنياها وإذا تحققت فيها الامامة ولو فى ملك قائم بها خرجت من إثمها فالملك جائز فى الاسلام كالخلافة وقد مدح الملك العادل فى القرآن الكريم ونوه فيه بشأن كثير من الملوك العادلين

(٢) أركان الحكم فى الاسلام : لم يعن الاسلام بتعيين شكل الحكم للمسلمين وقيامه على أساس الخلافة أو الملك لأن هذا مما يختلف باختلاف الزمان والمكان فتركه ليختاروا منه فى كل زمن مايلائم حالهم وانما عنى ببيان الاركان التى يجب أن يقوم عليها الحكم فيه وهى ثلاثة أركان:أولها العدل من جانب الحاكم (ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل) وثانيها الطاعة من جانب المحكومين (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم).وثالثها الشورى بين الحاكين والمحكومين (وشاورهم فى الأمر) (وأمرهم شورى بينهم) . ولا تطلب الشورى كما يطلب العدل وتطلب الطاعة وانما وضعت معهما ليتم بها أمرها فاذا تحققا بدونها صح الحكم ولم تتوقف صحته عليها مادامت الأمة راضية به مطمئنة اليه فالشورى من حقها ولها أن تتسامح فيها

(٣) اختيارهم شكل الخلافة : انقسم المسلمون بعد وفاة رسول الله ﷺ فى شكل حكمهم على ثلاثة أقسام : أولها أن يكون حكمهم للأنصار من أهل المدينة لأنهم الذين نصروا الرسول ولم يظهر هذا الأمر إلا بهم وقد نسوا أن ذلك له أجره عند الله وان الانسان لا يصح أن يبتغى بعمله لربه أمرا من أمور دنياه وانما يطلبها بعمله لها ويطلب ربه بعمله له ولهذا قال لهم ابو بكر فى رده

عليهم (فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار اخواننا فى الدين وشركاؤنا فى الفيء وأنصارنا على العدو آويتم وواسيتم فجزاكم الله خيرا) . وثانيها أن يكون فى قريش يختار له واحد من بينهم لأنهم قوم النبي ولأن العرب لا تدين إلا لهم وهذا هو ركن الطاعة الذى لابد منه فى صحة الحكم وانما كانت العرب لاتدين إلا لقريش لما كان لها من الشأن بينهم فى الجاهلية والاسلام ولما كان من قوة عصبيتهم بمن يلف اليهم من العرب المستعربة التى كانت فى جزيرة العرب على ذلك العهد هى الغالبة وأما الانصار فكانوا من القحطانيين الذين لم يكن لهم من الشأن فى ذلك العهد مثل العدنانيين وكان الأوس منهم ينافسون الخزرج كما كان الخزرج ينافسون الأوس والاسلام إذا حارب هذه العصبيات فهو لايمنع من مراعاتها فى مثل ذلك إذا كان هناك ضرر فى عدم مراعاتها بألا تتحقق الطاعة التى لابد فى الحكم منها وكان العرب حديثو عهد بالجاهلية وكانت العصبية لايزال لها شأنها بينهم ولا شك أن مراعاة هذه العصبية مثل مراعاة جانب الأكثرية فى زماننا . وقد رأى ابن خلدون من أجل ذلك أن الحكم يصح فى غير قريش إذا فقدت هذه العصبية ورأى الجمهور أن الأئمة يجب أن يكونوا من قريش لحديث رووه (الأئمة من قريش) ولكنه روى مع ذلك أيضا (اسمعوا وأطيعوا وان تأمر عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة) وما دام هذا هو شكل الخلافة البعيد عن شوائب الوراثة فالواجب أن يكون فى قريش ما كانت المصلحة فى ذلك فاذا انتقلت المصلحة الى قوم غيرهم انتقل معها اليهم ولو استأثرنا به قريشا وحدها لكان ذلك من الوراثة التى لاتقوم عليها الخلافة . وثالثها أن يكون بالوراثة عن النبي ﷺ وكان أقرب الناس اليه وقت موته بنته فاطمة وعمه العباس وابن عمه على بن أبى طالب ومن اليهم

وقد رضوا كلهم بعلى لسبقه عليهم بالاسلام وزواجه بفاطمة بنت رسول الله وهذا هو شكل الملك الذى يقوم على الوراثة دون الخلافة

وقد انتصر الذين ذهبوا الى أن يكون الحكم فى قريش بشكل الخلافة على غيرهم فرجع الانصار عن رأيهم بعد أن اقترحوا على المهاجرين أن يكون منهم أمير ومنهم أمير فلم يقبلوا منهم ثم نازع على وأنصاره فلما وجدوا جمهور الناس منصرفاً عنهم وافقوهم على رأيهم ، وكانت قريش فى اختيارها شكل الخلافة على شكل الملك تذهب فى ذلك مع ما ألفته فى حكمها قبل الاسلام من عدم خضوعها لأمرة واحدة منها يتولى أفرادها أمورها بشكل ملوك فيها وما كانت ترى فى ذلك أن الحكم بشكل الملك غير جائز فى الاسلام لأنه لا يوجد فيه دليل على عدم جوازه وإذا كان بعض الصحابة أنكر من بنى أمية قلبهم الخلافة الى الملك فانما كان ذلك لما يخافه من أن ينقلب الى ملك ظالم مثل ملك كسرى أو قيصر وقد رضوا كلهم عن ملك عمر بن عبد العزيز لعدله بل كادوا يلحقونه بالخلفاء الراشدين مع بعد زمنه عنهم ولم يكن رحمه الله إلا ملكا عادلا ولم يتم أمره بمثل ما تم به أمرهم حتى يكون فيه مثلهم

(٤) اختيارهم أبا بكر : لما توفى النبي ﷺ اجتمع الأنصار عند سعد ابن عبادة من بنى ساعدة وهم من الخزرج وكانت دار سعد مما يلى سوق المدينة وعندها سقيفة (١) لبنى ساعدة فاجتمعوا فيها وتشاوروا فى اختيار سعد للقيام بأمر المسلمين ولم يكن الأوس مثل الخزرج فى ميلهم اليه فبلغ اجتماعهم المهاجرين فمضوا اليهم وفيهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة فاراد عمر أن يتكلم بكلام هيأه

(١) ظلة كانوا يجتمعون بها

فى نفسه ليقوله فى هذا الموقف فقال له أبو بكر (على رسلك) ثم تكلم فذكر فضل المهاجرين وأن العرب لاتدين إلا لقريش قومهم ثم أرضى الانصار ووعدهم بأن كل أمر فى حكم المسلمين لايتم الا بمشورتهم فرضى كثير منهم بذلك وقال الأوس بعضهم لبعض : والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معها فيها نصيبا أبدا ، فأشار عليهم أبو بكر أن يبايعوا عمر أو أبا عبيدة ، فقالوا : والله لا نتولى هذا الأمر عليك فانك أفضل المهاجرين وثانى اثنين إذ هما فى الغار وخليفة رسول الله على الصلاة والصلاة أفضل دين المسلمين ، ثم قاموا فبايعوه ولم يتخلف عن بيعته من الأنصار إلا سعد بن عبادة فلم يبايع أحدا حتى مات ولم يتخلف من المهاجرين إلا على ونفر معه ولم يزل على ممتنعا حتى ماتت زوجه فاطمة ورأى انصراف الناس عنه فذهب إلى أبى بكر فبايعه لستة أشهر من خلافته وما كان لأحد من المسلمين أن يخالف بعد هذا فيما كان بينهما خصوصا فى هذا العصر الذى تحترم فيه إرادة الشعوب وقد أراد المسلمون لأمرهم أبا بكر وهم أصحاب هذا الأمر فليس لأحد أن يعترض فى ذلك عليهم وماحظ أبى بكر أو على أو غيرهما من أمر المسلمين حتى نختلف فيه وتفرق به أمرهم ؟

وقد مكث أبو بكر فى الخلافة سنتين وأربعة أشهر ثم عهد من بعده لعمر بن الخطاب بعد أن استشار فيه فرأى رغبة الناس متوجهة إليه فعهد له نيابة عنهم وتمت بذلك بيعته بالاختيار اللازم لتحقيق معنى الخلافة ثم مات عمر بعد أن مكث عشر سنين وستة أشهر وعهد من بعده لستة من المهاجرين

(على وعثمان والزبير وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف) فخلع عبد الرحمن نفسه على أن يكون حكما بينهم وأخذ يستشير الناس ويتعرف رغباتهم فوجد أكثرهم مع عثمان ولم يصل الراغبون فى على ماوصل الراغبون فيه فولاه الأمر بعد عمر وتمت بذلك بيعته بالاختيار اللازم لتحقيق معنى الخلافة ويقال إن عبد الرحمن مع هذا أراد أن يبايع عليا على أن يعمل بكتاب الله وسنة رسوله وسنة الخليفتين من بعده فقال أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمى وطاقتى فدعا عثمان فبايعه على ذلك فقبل : والناس لايدرون إلى الآن سنة الخليفتين التى أراد عبد الرحمن من على أن يبايعه عليها فلم يجبه فيها إجابة صريحة مع أنهما لم يكونا يعملان الا بالكتاب والسنة ولكننا نوقن أن عبد الرحمن لم يكن يريد من سنتهما إلا أن يترك على ما كان يراه من أنهم أحق بهذا الأمر من غيرهم فلا يورثه بعده لأبنائه كما لم يورثه أبو بكر وعمر لأبنائهما فعرف على ذلك ولم يجب فيه بشيء يؤخذ عليه ومضى الناس لايفهمون من ذلك ما فهمه هو لوقته رضى الله عنه .

وقد مكث عثمان فى الخلافة اثنتى عشرة سنة واختار المسلمون بعده عليا رضى الله عنه واجتمع على خلافته جمهور المسلمين ما عدا معاوية وأهل الشام وعائشة وطلحة والزبير وكانا قد بايعاه فى المدينة ثم عادا فحارباه مع عائشة وذكرا أنهما بايعاه بحمل الناس لها على بيعته وقد مكث على فى الخلافة شهرين وأربع سنين تمت بها الخلافة الاسلامية ثلاثين سنة تولى الخلافة فيها هؤلاء الاربعة (أبو بكر وعمر وعثمان وعلى).

المامة بسيرة أبى بكر

(١) نسبه : هو أبو بكر بن أبى قحافة من بنى تيم بن مرة وهم بطن من قريش وكان مولده لسنتين من عام الفيل الذى ولد فيه النبى صلى الله عليه وسلم .

(٢) صفاته : كان أبو بكر فى جاهليته واسلامه مشهورا بين قريش بالاخلاق الفاضلة والصفات الحميدة وكان ذا يسار لايبخل به على أحد بل يحمل الكل ويكسب المعدوم ويصل الرحم ويقرى الضيف ويعين على نوائب الحق كما كان على مثل ذلك النبى صلى الله عليه وسلم وكان يعلم من أنساب قريش وغيرها ما عد به من علماء الأنساب فى العرب وكان أظهر صفات أبى بكر رقته وصدق عزيمته وبهذين الصفتين تأثرت سياسته فى خلافته فأخذ الناس باللين والحزم ولم يستعمل معهم شيئا من الشدة حتى ترك سعد بن عبادة بدون أن يبايعه ولم يلجئه إلى مبايعته وترك عليا ستة أشهر حتى بايعه من نفسه وهذه هى أعلى درجات السياسة .

(٣) أعماله : كان أول ما بدأ به إنفاذ جيش أسامة بن زيد الى الشام وكان رسول الله هيأه للسفر قبيل موته وقد كلمه عمر فى أن يغيره برجل أسن منه يقود جيشه لأن بعض الناس يتكلم فى امرته لصغر سنه فغضب أبو بكر وقال لعمر : استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى أن أنزعه ! وكان رسول الله قد بعث هذا الجيش للاقتصاص من قتلة زيد بن حارثة ومن قتل معه فى مؤتة فعين لذلك ابنه أسامة ليقتص له وفى أخذه وغيره من

الشبان بذلك تدريبهم وتهيئتهم للقيام مقام من هو أكبر منهم عند فقده ؛ وكان عمر ضمن جيش أسامة فاستأذنه أبو بكر أن يبقيه معه ليستعين به في أموره فأذن له ثم سار حتى شن الغارة على بلاد قضاعة وأخافهم وغنم منهم .

وكان كثير من العرب قد ارتد عن الاسلام بعد وفاة النبي ﷺ وكثير منهم امتنع عن دفع الزكاة لأنهم رأوا أنهم كانوا مأمورين بدفعها له دون غيره (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) فاضطربت الجزيرة العربية ثانيا وادعى النبوة فيها بعض كهنتها فتبعهم خلق كثير من العرب وممن ادعى ذلك طليحة بن خويلد في بني أسد وطيء ، وسجاح بنت الحارث التميمية في تميم وتغلب ؛ ومسيلمة الكذاب في بني حنيفة باليمامة ، والأسود العنسي في اليمن ، فاضطرب المسلمون بالمدينة واختلفوا في قتال مانعي الزكاة فوقف فيهم أبو بكر بحزمه ولم يهب قتال العرب ورأى أن يقاتل من منع الزكاة كما يقاتل من ارتد عن الاسلام ولا يؤخذ على أبي بكر قتاله الفريقين لأنهم من العصاة الذين يباح قتالهم منعا للفوضى وحفظا لنظام الدولة ، فوجه خالد بن الوليد إلى طلحة بن خويلد فاذا فرغ منه قصد مالك بن نويرة وكان من مانعي الزكاة ، ووجه عكرمة بن أبي جهل إلى مسيلمة ، ووجه المهاجرين أبي أمية إلى الأسود العنسي ، ووجه غيرهم من القواد إلى جهات أخرى ، فهزم خالد جيوش طليحة حتى فر منه وقد أسلم بعد ذلك وحارب مع المسلمين ثم توجه خالد بعد ذلك بأمر أبي بكر إلى مسيلمة وكان عكرمة لم يوفق في قتاله فالتقى بخالد وقد استفحل أمره وانضمت سجاح إليه فاشتبك معه في معركة

اليمامة التي قتل فيها كثير من المسلمين وكادوا ينكشفون يومها لولا بسالة خالد وأصحابه من ذوى الحمية والغيرة، وقد قتل مسيلمة فى تلك المعركة وتفرقت جموعه وهكذا ظفر كل القواد الذين أرسلهم أبو بكر إلى أولئك العصاة وعاد العرب إلى وحدتهم التى كادوا يقضون عليها بأيديهم

فلما تم لأبى بكر إعادة تلك الوحدة إلى العرب توجهت نفسه إلى فتح بلاد الفرس والروم ففتحت من بلاد الفرس فى عهده الحيرة وهى عاصمة العراق وكذا الأنبار وعين التمر ودومة الجندل وغيرها حتى بلغت جملة فتوحاته حوض نهر الفرات من شمالى الأبلة إلى الفراض وهى تخوم الشام والعراق والجزيرة فى شرقى الفرات ، وفتحت من بلاد الروم عدة بلاد من الشام وقد وصل المسلمون فيها إلى وادى اليرموك وكان لهم فيه مع الروم وقعة مشهورة وفى أثنائها كانت وفاة أبى بكر فى مساء ٢١ من جمادى الآخرة ١٣هـ سنة ٦٣٤ م

المامة بسيرة عمر

(١) نسبه : هو عمر بن الخطاب بن نفيل من بنى عدى بن كعب وهم بطن من قريش وكان مولده بعد النبى صلى الله عليه وسلم بثلاث عشرة سنة .

(٢) صفاته : كان مما اشتهر به عمر من الصفات الحميدة حسن الرأى وكان كثيرا مايشير على النبى فينزل القرآن موافقا لما أشار وكان أبو بكر يرجع إليه فى أموره فكان له بمنزلة الوزير والقاضى وإن لم يتسم باسمهما وكان إلى هذا جريئا فى الحق لا يرى فيه هوادة وفيه شىء من الشدة لم يكن فى أبى بكر وقد استشار

أبو بكر فيه عبد الرحمن بن عوف حين أراد استخلافه فأثنى عليه ثم ذكر شدته فقال أبو بكر : ذلك لانه يرانى رقيقا ولو أفضى اليه الأمر لترك كثيرا مما هو عليه ، وقد صحت فيه تلك الفراسة وكانت سيرته فى المسلمين لا تكاد تفترق عن سيرة أبى بكر وإذا كان فيها قليل من الشدة فقد كان دائما فى جانب الحق وفى سبيل المصلحة العامة

(٣) أعماله : لعمر أعمال كثيرة إصلاحية وحربية أطال الله لها فى عهد خلافته حتى تم بها تنظيم الدولة الاسلامية وصارت فى عهده أقوى دولة فى الأرض فأما أعماله الاصلاحية فمنها تنظيم القضاء الاسلامى بالفصل بين سلطة القضاة وسلطة الولاة فعين لكل مصر قاضيا مستقلا عن واليه وكانت سلطة القضاء قبله فى أيدى الأمراء فكانوا هم القضاة وهم الولاة وللفصل بين السلطتين قيمته فى عصرنا الحاضر وهذا مما يرفع من شأن عمر رضى الله عنه وقد كان كتابه إلى أبى موسى الأشعرى فى القضاء عمدة قضاة المسلمين والأساس الذى بنى عليه الأئمة ما وضعوا فى القضاء من فروع وأحكام .

ومنها انشاء الدواوين لضبط أمور الدولة عند اتساعها كأعطيات الجنود وغيرها وكان يكتب فيها بالعربية والفارسية والرومية والقبطية إلى أن حولت بعد ذلك كلها إلى العربية فى عهد بنى أمية

وأما أعماله الحربية فقد وفق فيها توفيقا عظيما حتى سقطت فى عهده مملكة الفرس وصار اليهم من أرضهم مايحده من الغرب نهر الفرات ومن الشرق نهرا

جيحون والسند ومن الجنوب البحر الهندي ومن الشمال بلاد أرمينية ، وفتح من بلاد الروم الشام ومصر

وقد انقضى عهد عمر والمسلمون فى وفاق بفضل سياسته الحازمة وجمعه فيها بين اللين والشدة وكان يستعمل اللين الى أقصى حدوده مع أفراد رعيته فكان رءوفا بهم شفيقا عليهم مهتما بمصالحهم وأما شدته التى كانت من أظهر صفاته قبل الخلافة فقد انتزعها الله منه ولم يبق منها فيه إلا قليل كان يخص به عماله خوفا على الرعيه منهم فكان يتهمهم ويسمع الشكاية فيهم وكان محمد بن مسلمة الأنصارى له كرقيب عام عليهم يقتص آثارهم وينظر فى الشكاوى التى توجه إليهم وكان يشاطر بعضهم ما فى أيديهم حينما يرى عليهم سعة لم تكن لهم قبل أن يتولوا عمله ويضم الى بيت المال ما يأخذه منهم ، وقد أخذ عليه ذلك بعض أئمة المعتزلة وزعم أن فيه استحلال أموال الناس بالشبهه وفات عليه أن عمر ما كان يستحل ذلك لنفسه وانما كان يأخذه للمسلمين فلا بد أنه كان يتحرز فيه ويجتهد حتى لا يكون هناك تهمة عليه ولا يكتسب اثما لاحظ له فيه

ثم كان ما أراده الله فى عمر على يد أبى لؤلؤة مولى المغيرة بن شعبة وكان من سبايا الفرس الذين استولى عليهم المسلمون فى فتح بلادهم وكثر فى المدينة عددهم وكان أكبرهم فيها الهرمزان وكان أحد قوادهم وعظمائهم فكانوا يختلفون إليه ويجتمعون عنده وقد حضر أبو لؤلؤة يوما إلى عمر فقال له ياأمير المؤمنين أعدنى على المغيرة بن شعبة فان على خراجا كثيرا ؛ فقال وكم خراجك ؟ قال درهمان ، فسأله عن صناعته ؛ فقال نجار نقاش حداد ، فقال

فما أرى خراجك بكثير على ماتصنع من الاعمال قد بلغنى أنك تقول لو أردت أن أعمل رحاتطحن بالريح فعلت ،فقال نعم ؛ فقال عمر فاعمل لى رحا ؛ فقال: إن عشت لاعملن لك رحا يتحدث بها من فى المشرق والمغرب ، فقال عمر بعد أن انصرف لقد توعدنى العبد آنفا

وإذا كان عمر قد أدرك بفراسته هذا من أبى لؤلؤة ومنعه دينه عنه لأن الاسلام لا يبيح أخذ الناس بمثل ذلك فقد أدركه أيضاً كعب الأحبار العالم الاسرائيلى الذى كان قد أسلم فى خلافة عمر وعظم مقامه عند المسلمين فحذر عمر من أبى لؤلؤة وجاءه فيما يقال من الغد فقال : يا أمير المؤمنين اعهد فانك ميت فى ثلاثة أيام ، فقال : وما يدريك ؟ قال أجده فى كتاب الله التوراة ، وقد يكون فى هذا الخبر شىء من الغلو ولم يكن من كعب إلا أن أدرك من كلام أبى لؤلؤة ما أدركه عمر منه وقد يكون كعب فعل فى نص من التوراة ما يفعل فى بعض نصوص القرآن من تحميله بطرق حسابية أوغيرها ما لا يحتمله من الحوادث التاريخية أو السياسية

فلم تمض ثلاثة أيام حتى صحت فراسة عمر وكعب فى أبى لؤلؤة فخرج عمر إلى صلاة الصبح وكبر بالناس فقصده هذا الآثم بخنجر فى يده فضربه ست ضربات إحداهن تحت سرته فلما وجد عمر حر السلاح سقط ثم سأل عمن ضربه فقالوا أبو لؤلؤة فحمد الله أن لم يقتله رجل سجد لله سجدة ، ثم شاع فى الناس أن أبا لؤلؤة لم يفعل ذلك وحده وإنما هى مؤامرة من فرس المدينة بتدبير الهرمزان انتقاما لمملكتهم التى أسقطها عمر رضى الله عنه وشهد عبد الرحمن بن أبى بكر أنه مر على أبى لؤلؤة قبل طعن عمر بيوم ومعه جفينة

والهرمزان وهم نجى فلما رهقهم ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه فى وسطه ، فجاءوا بالخنجر الذى ضرب به عمر فوجدوه بهذه الصفة فأمسك عبيد الله بن عمر حتى مات أبوه ثم اشتمل على سيفه فأتى الهرمزان فقتله ثم مضى حتى أتى جفينة فعلاه بالسيف وكان نصرانياً من الحيرة يعلم الكتابة بالمدينة فأخذ صهيب الرومى عبيد الله فسجنه وكان هو القائم مقام الخليفة الى أن تولى عثمان الخلافة فاختلفوا فى أمره ولم يجدوا أدلة كافية لاثبات تلك المؤامرة فجعلها عثمان دية احتملها فى ماله ولم يروا أن يقتل عمر بالأمس ثم يقتل ابنه اليوم، ومن يرى هذا الاحتياط للعدل من المسلمين فى هذه الحادثة يعجب لكثير من علماء عصرنا إذ يتهمون كعب الاحبار أيضاً فى قتل عمر لا لشىء سوى تحذيره له من أبى لؤلؤة فقالوا إنه لابد كان يعلم تلك المؤامرة وقد علمت تأويل تحذيره له . وقد توفى عمر بعد أن دعى له الطبيب فلم يجد له حيلة فيه ليلة الأربعاء لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ٢٣ هـ . سنة ٦٤٤ م

إلمامة بسيرة عثمان

(١) نسبه : هو عثمان بن عفان بن أبى العاص من بنى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وقد ولد فى السنة الخامسة من ميلاد النبى صلى الله عليه وسلم

(٢) صفاته : كان من أشهر صفات عثمان الجود والسماحة والحياء

واللين وقد بلغ من حيائه أن النبي ﷺ قال فى حقه : (ألا أستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة) وقد تأثرت سياسته فى خلافته بهذا الخلق المحبوب فأحبه الناس وتساهل معهم فيها فأكثروا من اقتناء الأموال وبدا عليهم من ترف الغنى آثار كثيرة وبنوا فى المدينة قصورا عديدة حتى اتسع عمرانها وأصبحت تليق بمركزها من تلك المملكة الواسعة ولم يخالف عثمان فى هذا سنة الخليفتين التى بايع عبد الرحمن عليها لأن المباحات لا يصح أن يتقيد الناس بعضهم ببعض فيها فاذا تشدد عمر فى بعضها عليهم فلا بأس على عثمان إذا تساهل فيها لهم ولا حق لمن يأخذ عليه من المعتزلة تغييره الخلافة من زى النسك الى زينة الملك وقد أحل الله لنا هذه الزينة ولم يحرمها علينا (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون . قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون)

فالخلافة الاسلامية يجوز فيها كل ما يجوز فى الملك من أنواع الزينة المباحة ولا يجب أن يكون زيها زى النسك الذى كان فى عهد أبى بكر وعمر والفرق بين الخلافة والملك يرجع الى الاصطلاح الذى ذكرناه ولا يفترقان فى شيء سواه

(٣) أعماله :واصل عثمان فى الفتوح ما بدأ به أبو بكر وعمر فأتم فتح ما بقى من بلاد الفرس وقتل فى عهده يزدجرد آخر ملوكهم وأوغل المسلمون بعد ذلك فى بلاد الترك حتى وصلوا الى بلنجر وهي أكبر مدن الخزر خلف

باب الأبواب وفتح أيضاً فى عهده من بلاد الروم افريقية وكان لمعاوية بن أبى سفيان عامله على الشام غزوات كثيرة فى البلاد الرومية وصل فيها إلى عمورية وقاليقلا وتفليس ثم كتب الى عثمان يستأذنه فى غزو جزيرة قبرس وكان عمر يمنعه من ذلك خوفا على المسلمين من البحر فأذن له عثمان فى ذلك فأعد لها أسطولا فتحها به وقد أمر عليه عبد الله بن قيس الحارثى فغزا فى البحر كثيرا به غزوات مظفرة

ومن أهم أعمال عثمان جمعه القرآن فى مصحف واحد مرتب السور مكتوبا باللغة التى نزل بها وكانت كل قبيلة من العرب تقرؤه بلغتها فيختلفون فيه ويتنازعون فى قراءته فأدركهم بذلك العمل الجليل وقد كادوا يختلفون فى القرآن اختلاف اليهود فى التوراة والنصارى فى الأنجيل وألف له جماعة من علماء الصحابة وقرائهم مثل زيد بن ثابت الأنصارى وغيره فجمعوه على ما شرع لهم وكتبوا منه مصاحف وزعوها على الأمصار الاسلامية فعمل المسلمون بها واتفقوا عليها حتى صار المصحف ينسب اليه فيقال المصحف العثمانى اعترافا بهذا الفضل له .

وقد طالت خلافة عثمان على الناس وهدأت الفتوح بعض الهدوء فى آخرها فالتفتوا إلى أمورهم الداخلية وأخذ رعاعهم يتطلعون إلى قريش فيرون أن خليفتهم ومعظم ولاتهم منها خصوصا قوم عثمان من بنى أمية فلعبت الدنيا التى أباحها لهم عثمان بعقولهم ونفسوا على قريش عموما وبنى أمية خصوصا استئثارها بذلك كله فابتدؤا يثورون على ولاتهم ويستغلون لين عثمان وعدم أخذه لهم بشىء من الشدة فى خلافته فكان كلما ثاروا على وال من ولاته

وطلبوا عزله أجابهم إلى طلبهم خوفا على المسلمين من الفتنة حتى ثاروا عليه فى آخر أمره يطلبون عزله وأخذت الدسائس الأجنبية تجد لها مدخلا إلى نفوسهم وكان الذى يدس لهم رجل من اليهود الذين تجد لهم فى كل ثورة إصبعا يسمى عبد الله بن سبأ بعد أن أظهر الاسلام ليخفى عليهم أمره وقد أتاهم من ناحية بنى أمية وازدياد نفوذهم فى خلافة عثمان مع ما كان من تأخرهم فى الاسلام ومناوأتهم دعوته وصار يقول لهم عجبا لكم أيها المسلمون يكون فيكم أهل بيت نبيكم ثم يقصون عن أمركم إلى غير ذلك مما لعب به بعقول الناس وفتنهم فى دينهم وصار يتنقل لأجل ذلك من مصر إلى مصر حتى ألف فى كل مصر جماعة كبيرة ناقمة على عثمان ولم ينج من دسائسه إلا أهل الشام لمكان معاوية ويقظته فيهم ، فلما رأى عثمان ذلك كتب إلى عماله بالأمصار أن يوافوه جميعا بالموسم فوافوه وأخذ يسألهم عن هذه الشكايات ، فأجابوه بأنها أمور مدبرة لأغراض سيئة وأشاروا عليه بأخذ تلك الجماعات بالشدة وعرض عليه معاوية أن يأخذه معه إلى الشام فأبى وقال لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشىء وإن كان فيه قطع خيط عنقى ، ثم رجع أولئك العمال إلى أمصارهم ورأت تلك الجماعات الثائرة أن تبادر بأمرها قبل أن يفسد عليها فكاتب بعضهم بعضا أن يتوافوا بالمدينة فخرج أهل مصر وأميرهم الغافقى بن حريب العكى ومعهم ابن سبأ ، وخرج أهل الكوفة وأميرهم عمرو بن الأصم ، وخرج أهل البصرة وأميرهم حرقوص بن زهير السعدى ، وكانت أهواؤهم متفقة جميعاً فى أمر عثمان ولكن أهل البصرة كان هواهم فى طلحة بن عبيد الله ، وأهل الكوفة كانوا يريدون الزبير ، وأهل مصر كان هواهم مع على ؛ فلما

قربوا من المدينة بعث أهل كل مصر إلى من يريدونه من الثلاثة فردوهم ردا شديدا فخرجوا من المدينة وأظهروا لأهلها أنهم راجعون إلى أمصارهم فلما وصلوا إلى جماعاتهم خارج المدينة اتفقوا على أن يبغتوا أهل المدينة واخترعوا على عثمان كتابا زعموا أنه أمر فيه بقتل أهل مصر عند رجوعهم اليها فلم يفجأ أهل المدينة إلا والتكبير فى نواحيها منهم فأحاطوا بدار عثمان ونادرا فى الناس من كف يده فهو آمن فلزم الناس بيوتهم ولم يكونوا مستعدين لهذه الفتنة وكانت الجنود موزعة فى الجهاد ولم يكن بالمدينة جنود تحميها من هذه الغارة وأمثالها لأنها لم تكن محتملة ثم طلبوا من عثمان أن يخلع نفسه فأبى عليهم ذلك بعد أن أجابهم إلى كل ما طلبوه منه ولم يرض بما أشار عليه عماله من سفك دمائهم واستعمال الشدة معهم وقد وصل أمرهم إلى مكان الكرامة من نفسه وهو عثمان صهر رسول الله وصاحب الأيادى البيضاء فى الاسلام منذ نشأته وحين كان أولئك الثائرون منغمسين فى جاهليتهم فأباح لهم دمه ولم يبح لهم كرامته فاستمروا على حصاره ومنعوا الماء عنه فكان لا يصل اليه شىء إلا خفية وكان يطل عليهم من حين لآخر ويعظهم فلا تؤثر مواعظه فيهم ثم بلغهم أن جنودا من الأمصار تحركت لنصرته فأحرقوا أبواب داره وتسوروها بعضهم من دار مجاورة لها فأمر عثمان من عنده ألا يقابلوهم بأذى ودخل عليه جماعة منهم فيهم محمد بن أبى بكر فضربه الغافقى بحديدة كانت معه ثم أهوى له بعضهم فضرب عنقه وكانت مدة حصاره اثنين وعشرين يوما وكان قتله لثمانى عشرة خلت من ذى الحجة سنة ٣٥ هـ سنة ٦٥٦ م

الماسة بسيرة على

(١) نسبه : هو على بن أبى طالب بن عبدالمطلب جد النبى ﷺ وكان مولده قبل الهجرة باحدى وعشرين سنة

(٢) صفاته : اجتمع لعلى ثلاث صفات جليلة بلغ فيها الغاية حتى افتتن بعض الناس به فيها (الشجاعة والفقه والفصاحة) فكان لهذه الصفات فيه مع قرابته من رسول الله ﷺ ذلك الأثر البالغ فى نفوس الناس وتلك المنزلة العالية فى قلوبهم هذا الى حب الصراحة وكراهة المواربة فى السياسة والتعفف عن أموال الناس والتدقيق فى إنفاقها فى وجوهها المشروعة وكان فيه أيضاً شدة عمر وحزم أبى بكر وزهدها وتقشفهما فأراد أن يأخذ الناس بذلك بعد ما كان من لين عثمان معهم وبعد أن تعلقت بالدنيا أنفسهم ولم يكن كل أصحابه معه فى هذه النزعة بل كان بعضهم ممن أنكر على عثمان تساهله مع الناس فى أمر الدنيا هو الذى يوافقه فيها وكان بعضهم قد اختاره لقرابته من بيت النبوة ولم يكن فى أمر الدنيا مثله فكان أصحابه فى ذلك مختلفى الأهواء متفرقى النزعات لم يلبثوا أن اختلفوا عليه وخرج عليه كثير ممن خرج على عثمان قبله وكان يحسد قريشاً على هذه الدنيا ويرى أنها لا يصح لها أن تستأثر بأمور المسلمين دون غيرها

(٣) أعماله : لم يحدث فى خلافة على فتوحات تذكر وإنما انقضت كلها فى حروب داخلية فوقفت الفتوحات الاسلامية عند الحدود التى وصلت اليها فى خلافة عثمان ووقف المجاهدون فيها وأعينهم الى أعدائهم فى يقظة والى

اختلاف قومهم فى حسرة ولولا هذا لضاعت تلك الفتوحات الواسعة فى تلك الفتن المستطيرة

وقد بدأ على بتغيير ولاة عثمان ورأى فى تغييرهم علاج هذه الفتن التى حدثت فى عهده فغيرهم بأناس على نزعته فى الدين والدنيا ومشربه ليكفوا الناس عن هذه الدنيا التى لعبت بهم ويكونوا لهم قدوة فى الاقتصاد فى أمرها وعدم الحرص عليها فأرسل عثمان بن حنيف الى البصرة وعمارة بن شهاب الى الكوفة وعبيد الله بن عباس الى اليمن وقيس بن سعد بن عبادة الى مصر وسهل بن حنيف الى الشام بدل معاوية بن أبى سفيان

واذا كان على قد رأى فى ذلك مصلحة الرعية فان مصلحته السياسية كانت فى مداراة عمال عثمان خصوصا معاوية بن أبى سفيان فان بيعته لم تكن اجماعية كبيعة الخلفاء الثلاثة قبله وقد تخلف عنها بعض أصحاب النبى ﷺ مثل حسان ابن ثابت وكعب بن مالك وأبى سعيد الخدرى ومحمد بن مسلمة والنعمان بن بشير وقدامة بن مظعون وعبد الله بن سلام وغيرهم من الأنصار والمهاجرين وقد فر كثير منهم من المدينة الى الشام ولحق بمعاوية فيها وكان رأى بعض أنصار على مدارة هؤلاء العمال فلم يسمع لهم ومضى على ما جبل عليه من الصراحة وبغض المداجاة والاعتداد بنفسه وشجاعته .

فسار سهل بن حنيف الى الشام حتى أتى تبوك فعلم بقيامها مع معاوية وأنها لم ترض بيعة على فرجع الى المدينة ، وسار قيس بن سعد حتى أتى مصر فانضم اليه أهلها ماعدا جماعة قليلة اعتزلت بخربتا (١) ، وسار عثمان بن

---

(١) قرية من قري البحيرة

حنيف الى البصرة فانضم اليه أهلها واعتزله جماعة منهم ؛ وسار عمارة بن شهاب الى الكوفة فاقيه طليحة بن خويلد الأسدى وكان قد خرج يدعو الى الطلب بدم عثمان فرده عنها ، وسار عبيد الله الى اليمن فانضم اليه أهلها ووجد يعلى بن منية عاملها قد جمع كل شىء من جبايتها وخرج به الى مكة .

فلما رأى على خروج معاوية عليه أعد أمره لحربه ودخل عليه زياد بن حنظلة التميمى يتعرف للناس رأيه فى معاوية فقال له : يازياد تيسر ، فقال لأى شىء ؟ فقال تغزو الشام ، فقال زياد : الأناة والرفق أمهل .

ومن لايصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

فتمثل على .

متى تجمع القلب الذكى وصارما وأنفا حميا تجتنبك المظالم

ثم بلغه خروج طلحة والزبير وعائشة عليه وكانت عائشة قد خرجت إلى الحج وعثمان محصور لتبتعد عن الفتنة القائمة بالمدينة فبلغها قتله بمكة فخرجت تطالب بدمه وخرج اليها طلحة والزبير من المدينة وانضم اليهم عثمان بن الحضرمى عامل عثمان على مكة ؛ وعبد الله بن عامر وكان عامله على البصرة ويعلى بن منية وكان عامله على اليمن وقد اجتمعت كلمتهم على أن يأتوا البصرة ويعلنوا المطالبة بدم عثمان والقصاص من قتلته فخرجوا إليها وغلبوا عثمان ابن حنيف عليها

فرأى على أن يبدأ بقتال عائشة قبل معاوية لأن أمرها أهم من أمره فبدأ بقتالها حتى انتهى منها فانصرف إلى الكوفة فأقام بها لحرب معاوية وكانت أهم وقائعه وقعة الجمل مع عائشة بالبصرة ؛ ووقعة صفين (١) مع معاوية

(١) موضع قرب الرقة بشاطىء الفرات .

وقعة الجمل : رأى على أن يخرج بنفسه لحرب عائشة وطلحة والزبير لما يعلم من مكانتهم فى نفوس الناس فخرج إليهم من المدينة وحاول أن يدركهم قبل أن يصلوا البصرة فلما وصل الربذة بلغهم أنهم سبقوه إليها فبعث الى الكوفة يدعو أهلها لنصرته وكان لا يزال فيها أبو موسى الاشعرى عامل عثمان عليها فنهى الناس عن الاشتراك فى هذه الفتنة فلم يسمعوا له وذهبوا إلى نصرة على مع ابنه الحسن وكان قد أرسله إليهم ، ثم اختار على أن يرسل إلى القوم رسولا قبل أن يبدأ بحربهم فاختار لهم القعقاع بن عمرو التميمى وكان من رجال العرب المعدودين وقد ذاع اسمه فى الفتوحات الاسلامية وهو مع ذلك من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فسار حتى أتى عائشة فأخبرها ومن معها بأن ما يدعون إليه من الطلب بدم عثمان لا يكون مع الفرقة وأن الاجتماع أقرب لدرك ثأره فاقتنعوا بما أخبرهم به وقالوا له إن جاء على بمثل ماقلت صلح الأمر ، فرجع إلى على وأخبره بما قاله لهم فأعجبه ذلك ثم أمر بالرحيل ومنع أن يرتحل معه من أعان على عثمان أو اشترك فى دمه فهنالك اجتمع رؤساء تلك الفئة وفيهم ابن سبأ فقال بعضهم لبعض إن اجتمع الناس غدا واصطلحوا فليس الصلح إلا علينا ، فأشار عليهم ابن سبأ بأن يبدءوا أهل البصرة بالقتال عند التقاء على بهم ولا يمكنوه من النظر معهم فلما وصلوا البصرة قاموا فى الغلس ووضعوا السلاح فى عسكر أهل البصرة. فثار الناس وضاع بهذا التدبير الآثم ذلك الأمل القوى فى الصلح وخرجت عائشة فى هودجها بين أهل البصرة يلوذون بجملها حتى لاتصاب بشر فقتل حوله عدد كثير منهم فأمر على أصحابه أن يعقروه فعقروه وسقط الهودج فتفرق أهل البصرة وانتهت تلك الموقعة بعد أن قتل فيها عشرة آلاف من الفريقين

فيهم طلحة والزبير وغيرهما من رجالات المسلمين ، ثم جهز على عائشة إلى المدينة فخرجت من البصرة غرة رجب سنة ٣٦ هـ .

وقعة صفين : بعد أن فرغ على من عائشة وجماعتها اتجه الى معاوية فدعاه إلى أن يدخل فى طاعته فاتهمه بقتل عثمان وايوائه قتلته وطلب منه أن يدفعهم إليه ثم يعتزل أمر الناس ليكون شورى بينهم يولونه من يقع عليه اختيارهم فسار كل منهما إلى حرب صاحبه حتى اجتمعا بسهل صفين فى ذى الحجة سنة ٣٦ هـ فكانت فرقة من جيش على تخرج إلى فرقة من جيش معاوية فتقتتل الفرقتان إلى أن انقضى ذو الحجة بدون أن يشتبك فيه الجيشان اقتصادا فى دماء المسلمين فلما أهل المحرم توادع الفريقان وجرت بينهما رسل الصلح فلم يوفقوا الى الصلح بينهما فعادا إلى القتال بعد المحرم فتناوش الجيشان ثمانية أيام من صفر ثم كان الزحف العام فى تاسعه فاشتد القتال وانهزمت ميمنة أهل العراق فبعث لهم على الاشتر النخعى فهيج الناس وأخذ لا يعمد لكتيبة من أهل الشام إلا كشفها فحمى أهل الشام وثبت معاوية بعد أن حدثته نفسه بالهزيمة وقد استمر القتال بين الفريقين طول الليل إلى صبح اليوم العاشر وكاد النصر يتم لجيش على لولا أن ظهرت المصاحف مرفوعة على رماح أهل الشام وقائل يقول : هذا كتاب الله بيننا وبينكم من لثغور الشام بعد أهل الشام ؟ من لثغور العراق بعد أهل العراق ؟ فهنالك ظهر أثر اختلاف الأهواء فى أصحاب على وقال كثير منهم نجيب إلى كتاب الله فأخبرهم على بأن هذه خديعة فلم يستمعوا له وقال القراء من أصحابه أجب إلى كتاب الله اذا دعيت اليه وإلا ندفعك الى القوم أو نفعل بك كما فعلنا بابن عفان، فرأى على أن يترك الحرب خوفا على أصحابه من الخلاف والفتنة وأجاب أهل الشام إلى ما دعوا اليه من التحكيم فاختاروا عنهم عمرو بن العاص وكان

أقوى عضد لمعاوية واختار أصحاب على عنهم أباموسى الأشعري ولم يكن على يريده لأنه كان يخذل الناس عنه ولكنهم أبو إلا إياه واضطروه إلى موافقتهم وكان موعد اجتماع الحكمين بدومة الجندل فى شهر رمضان سنة ٣٧ هـ

وقد رجع أصحاب معاوية متفقين فى هذا التحكيم لما كسبوا به من النجاة من الهزيمة التى كادت تلحقهم ولوثوقهم من الحكم الذي أنابوه عنهم أما أصحاب على فرجعوا الى الكوفة مختلفين فيه لما فوت عليهم من النصر ولعدم وثوقهم بحكمهم ولأن فيهم كثيرا ممن خرجوا على عثمان فخشوا على أنفسهم من هذا التحكيم، فلما دخل على الكوفة لم يدخلوا معه وساروا حتى أتوا حروراء فنزل بها اثناعشر الفا منهم وأميرهم فى القتال شبث بن ربعى التميمى وفى الصلاة عبد الله بن الكواء اليشكرى وأعلنوا إنكار التحكيم واستعدوا لحرب على ومن رضى من شيعته به لانه حكم الرجال فى أمر لا حكم فيه إلاالله وقد أمضى حكمه فى معاوية وأصحابه أن يقتلوا أو يرجعوا مثل حكم جميع البغاة، فخرج إليهم على فناظرهم فى ذلك وناظروه فكان مما قالوه: فخبرنا أتراه عدلا تحكيم الرجال فى الدماء؟ فقال: إنا لسنا حكمنا الرجال إنما حكمنا القرآن وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق إنما يتكلم به الرجال ثم قال لهم ادخلوا فلنمكث ستة أشهر حتى يجبى المال ويسمن الكراع ثم نخرج الى عدونا فدخلوا على ذلك وأمنوا على أنفسهم من اجتماع الكلمة التى فرقوها وكانت مصلحتهم فى بقائها مفرقة، ولو أنهم كانوا مخلصين فى عيبهم هذا التحكيم لعابوه من ناحيته السياسية وعملوا على اصلاحه فيها وكان لهم فى تحكيم عمر قبله فى الخلافة حين طعنه أبو لؤلؤة قدوة حسنة فقد احتاط لتحكيمه كل الاحتياط واختار له ستة رجال ثم أوجب عليهم إذا لم يتفقوا أن يتبعوا رأى

أكثرهم فان انقسموا ثلاثة وثلاثة رجح ابنه عبد الله بينهم بدون أن يكون له حظ فى خلافتهم،أما تحكيم على ومعاوية فقد اختاروا له اثنين فقط ولم يحتاطوا له بشىء فى حال اختلافهما وكان أحدهما من أنصار معاوية ويرى أن الحق معه فلم يكن من المصلحة إدخاله فى هذا التحكيم ولو أنه احتيط له بالاكثار من عدد رجاله وباختيارهم من غير أنصار الفريقين لكانت له نتيجته المحمودة فى جمع كلمة المسلمين

وقد اجتمع الحكمان فى موعدهما وعمرو يرى أنه نائب فى التحكيم عن معاوية وأن الحق معه فلا يصح أن يخونه ، وأبو موسى يرى أن هذه فتنة لاتداوى إلا بخلع على ومعاوية ، فحاول عمرو أن يضم أبا موسى الى رأيه فى معاوية فأبى وأشار بخلع على ومعاوية معا فأظهر له عمرو موافقته على هذا الرأى ليمضى فيه وقد كسب منه خلعه لعلى وهو لاينوى إلاموافقته على خلعه له دون خلعه لمعاوية ولم ير من حسن السياسة أن يضيع على نفسه هذه الفرصة باصراره أمامه على رأيه فى معاوية فيستمرا فى خلافهما ولا يصلا من هذا التحكيم الناقص إلى نتيجة ، فقام أبو موسى فاعلن فى شهود التحكيم خلعه لعلى ومعاوية ،وقام عمرو بعده فقال : إن هذا خلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فانه ولى عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه فتنابذ هو وأبو موسى واختلفا ولم يحصل المسلمون على شىء من تحكيمهما وعاد الأمر إلى مثل ما كان عليه بين على ومعاوية،وقد روى المسعودى أنهما كانا قد كتبا صحيفة بما اتفقا عليه بعد أن استدرج عمرو أبا موسى إلى خلع على ثم عرض على عمرو عبد الله بن عمر فأبى وعرض عليه عمرو أسماء غير ابن عمر فأباها فأخذ عمرو الصحيفة وطواها بعد أن ختماها جميعا ثم ذهبا إلى موضع التحكيم على هذا

فلما عاد الأمر بين على ومعاوية إلى مثل ما كان عليه قبل التحكيم رأى الخوارج أن يتخلصوا من ولاية قريش عليهم بقتل على ومعاوية وعمرو ومعاوهم لم يخرجوا على عثمان إلا من أجل حقدهم على قريش استئثارها بولايتهم ولم ينضموا إلى على إلا لخوفهم من معاوية الذى كان يطالب بدمهم ولأن علياً أيضا كان من الزهد فى الدنيا على رأى بعضهم فلما فسد بالتحكيم ما بينه وبينهم انقلبوا عليه وصارهو ومعاوية وعمرو سواء عندهم، فاجتمع منهم عبد الرحمن بن ملجم والبرك بن عبد الله وعمرو بن بكر واتفقوا على قتل الثلاثة واتعدوا ليوم من شهر رمضان سنة ٤٠ هـ فسار البرك فى ذلك اليوم إلى معاوية فشد عليه بالسيف فوقع فى أليته ولم يصب منه مقتلا ، وسار عمرو بن بكر إلى عمرو بن العاص بمصروكان قد استولى عليها لمعاوية فصلى بدله فى الليلة التى قصده فيها خارجة بن حذافة صاحب شرطته لأنه كان شاكياً فشد عليه الخارجى فقتله ونجا عمرو ، وقصد عبد الرحمن علياً فى تلك الليلة حتى خرج يريد صلاة الصبح فضربه بالسيف فى قرنه وهو ينادى (الحكم لله لا لك ولا لأصحابك) فشد عليه الناس حتى أخذوه فلما توفى على قتلوه به وكان ذلك فى شهر رمضان سنة سنة ٤٠ هـ سنة ٦٦٢ م

الفتوح الكبرى

(١) أسبابها : كانت البلاد التى فتحها المسلمون تدخل فى ملك دولتى الروم والفرس وكانت دولة الروم تدين بالنصرانية وقد عرفنا كيف اشتبك المسلمون مع النصارى وأن النصارى هم الذين بدءوا بالاعتداء على المسلمين وكانت الحرب قائمة بينهم من عهد النبي ﷺ فوصلها الخلفاء بعده وأتموا ما بدأ به ، وأما الفرس فان النبي كان قد دعا كسرى ملكهم الى الاسلام بكتاب أرسله اليه فلما وصله الكتاب مزقه استكبارا وأرسل الى عامله باليمن أن يتوجه لحربه فبدأ

المسلمين بالعدوان أيضا وكان حربهم للفرس فى عهد الخلفاء الراشدين بسبب هذا العدوان الذى بدءوا به . ثم ان تلك الفتوح مع هذا كانت سياسية أكثر منها دينية فلم يكن يقصد منها الدعوة الى الاسلام وحمل الناس عليه بالقوة وقد كان المسلمون يكتفون منهم فيها بقبول الجزية ويبقونهم على أديانهم ولو كانت تلك الفتوح لحمل الناس على الاسلام ما قبلوا منهم غيره وإنما نظر الخلفاء فوجدوا أنهم قد أصبح لهم بعد الاسلام دولة يحيط بها دولتا الفرس والروم وكان لكل من هاتين الدولتين مطامع فى بلاد العرب وكانوا يملكون منها اليمن والعراق والشام فنظرتا بعين العداء إلى هذه الدولة العربية الجديدة ولو لم يبادر الخلفاء الى هذه الفتوح فى بلادهما ويأخذوهما بهذه المفاجأة العجيبة لما أمكنهم بعد ذلك أن يقفوا أمامهما لأن قوتهما كانت بحيث لا تذكر بازائها قوة هذه الدولة الناشئة فى تلك الأمة الأمية الفقيرة وبلادها الصحراوية المجدبة وانما هو نصر الله وحسن السياسة بتلك المفاجأة .

(٢) فتح العراق وبلاد الفرس : قدم المثنى بن حارثة الشيبانى على أبى بكر ليؤمره على قومه فيقاتل بهم من يليه من أهل فارس فأمره عليهم ولما عاد اليهم أخذ يغزو فى حدود العراق ثم وجه أبو بكر خالد بن الوليد وعياض ابن غنم بعد وقعة اليمامة إلى المثنى وكتب اليه أن يصير فى إمرة خالد فسارا إلى العراق بعد أن أمرهما أبو بكر بأن يبدأ خالد من الجنوب ويسير حتى يلقى عياضا وبأن يأتى عياض من الشمال ويسير حتى يلقى خالدا فبدأ خالد كما أمره أبو بكر وجرت وقائع بينه وبين الفرس انتهت باستيلائه على الحيرة ثم الأنبار (١) ثم عين التمر

(١) مدينة على الفرات غربى بغداد بينهما عشرة فراسخ

وهناك جاءه رسول من عياض يستنجده فكتب اليه خالد : من خالد إلى عياض ، إياك أريد :

لبث قليلا تأتك الحلائب   يحملن أساداً عليها القاشب

كتائب يتبعها كتائب

ثم سار اليه وكان بدومة الجندل يحارب بها جموعا من كلب وغسان وتنوخ وغيرهم من نصارى العرب فساعده عليهم حتى هزمهم ثم رجع إلى ناحيته فحارب الفرس في عدة وقائع آخرها وقعة الفراض وهي على تخوم الشام والعراق والجزيرة فاجتمع عليه الفرس والروم ونصارى العرب وكان ذلك في نصف ذي القعدة سنة ١٢ هـ فانتصر فيها عليهم ورجع بعدها إلى الحيرة فأتاه كتاب أبي بكر يأمره بالتوجه منها إلى الشام فتوجه اليها

وقد قام بعده في العراق أبو عبيد الثقفي على عهد عمر فجرت بينه وبين الفرس عدة وقائع أهمها وقعة يوم قس الناطق أو يوم الجسر في شعبان سنة ١٣ هـ وكانت قرب بابل شرقي الفرات فارسل اليه الفرس إما أن تعبر الينا وإما أن نعبر اليك فعبر اليهم وقامت بين الفريقين حرب شديدة قتل فيها أبو عبيد فقطع بعض المسلمين الجسر ليستميتوا في الدفاع فدفعهم الفرس الى النهر وكادوا يلقونهم فيه لولا أن وقف لهم المثنى وغيره من ذوي الحمية حتى عقد الجسر وتمكن المسلمون من العبور

ثم أرسل عمر الى العراق سعد بن أبي وقاص فجرت بينه وبين الفرس وقعة القادسية سنة ١٤ هـ وهي من المواقع الفاصلة في التاريخ وكان قائد الفرس رستم من أعظم قوادهم وكان جيش المسلمين نحو عشرين ومائة الف وجيش الفرس مثله أو أكثر فنزل المسلمون غربي نهر العتيق وجعلوا خندق سابور خلفهم

ونزل الفرس شرقى النهر ثم ردموه وعبروه إلى المسلمين وتقاتل الجيشان أربعة أيام (يوم أرماث ويوم أغواث ويوم عماس ويوم القادسية وتسمى ليلته ليلة الهرير) وكانت الحرب فيها أشد حرب جرت بين الفرس والعرب وكان كل من الشعبين يقدر لها نتائجها فى مستقبله وقد أتت المسلمين فى اليوم الثانى طلائع نجدة الشام وفيها القعقاع بن عمرو وهو من أبطال المسلمين المعدودين فكان له أكبر أثر فى هذه الوقعة العظيمة فلما أصبح يوم القادسية حمل بالمسلمين على الفرس فلم يأت الظهر حتى تقهقر جناحاهم فحمل المسلمون على قلبهم وفيه قائدهم فولوا منهزمين والمسلمون فى أثرهم حتى قضوا يوما وليلة فى تتبعهم ؛ وبهذه الوقعة تم فتح العراق وأخذ المسلمون يتسابقون فى بلاد الفرس حتى قضوا على مملكتهم وقتلوا يزدجرد آخر ملوكهم

(٣) فتح الشام : أرسل أبو بكر الى الشام أربعة جيوش أولها مع يزيد ابن أبى سفيان وقد ولاه دمشق ، ثم اتبعه شرحبيل بن حسنة وولاه الاردن ثم أمدهما بأبى عبيدة وولاه حمص ، ثم أرسل عمرو بن العاص من قضاعة الى الشام وولاه فلسطين ، فجرت بينهم وبين الروم وقائع صغيرة كانوا ينتصرون فيها على الروم إلى أن كثرت جموعهم بالشام واشتبكوا مع المسلمين فى وقعة اليرموك (١) وكانت مثل وقعة القادسية من المواقع الفاصلة فنزل الروم على الوادى واتخذوه خندقا وجعلوا وراءهم هوة الواقوصة وكانوا نحو أربعين ومائتى ألف وأشار عمرو على اخوانه من القواد أن يجتمعوا فكتبوا الى أبى بكر فرضى برأى عمرو وجاءوا فنزلوا بازاء الروم فى ستة وثلاثين ألفا وجاءهم خالد بن الوليد من العراق فى نحو عشرة آلاف فوجدهم متساندين كل قائد على جنده ليست لهم قيادة واحدة فأشار عليهم

(١) واد يصب فى نهر الأردن جنوبى بحيرة طبرية

بتوحيد قيادتهم على أن يتناوبوها بينهم ، أن يبدأ هو فيتولاها فرضوا برأيه فعبي الجيش وقسمه ٣٨ فرقة وجعل فى القلب ١٨ فرقة وأقام فيه أبا عبيدة وجعل الميمنة ١٠ فرق والميسرة كذلك وأقام فيهما باقى القواد ثم التقى الجيشان فتقدم خالد فى القلب حتى فصل بين خيل الروم ورجالهم فعزم الفرسان على الفرار ففتح المسلمون لهم الطريق فانطلقوا ثم حملوا على رجالهم فهزموهم حتى ألقوا كثيرا منهم فى هوة الواقوصة ولم ينج الا قليل منهم ، وأخذ المسلمون يتسابقون فى مدن الشام يفتحونها مدينة بعد مدينة حتى أتموا فتحها كلها

ثم أرسل اليهم الروم جيشا عظيما فأخلى له المسلمون المدن الشمالية وتجمعوا قرب اليرموك سنة ١٥ هـ فانتصروا على الروم هناك فى موقعة عظيمة يسميها بعض المؤرخين موقعة اليرموك ويسمى الموقعة السابقة موقعة الواقوصة واسترد المسلمون بعدها البلاد التى أخلوها وتوجهوا الى فلسطين ففتحوا بيت المقدس وغيرها .

(٤) فتح مصر : اتصل فتح مصر بفتح الشام وكان عمرو بن العاص والى فلسطين أقرب قواد الشام اليها فحسن لعمر بن الخطاب فتحها فسيره اليها فى جيش عدده أربعة آلاف وقد سار اليها عمرو فى هذا العدد القليل لأن طريق الروم اليها كان قد انقطع بفتح الشام وكان أهل مصر يخالفون الروم فى النصرانية فالروم ملكانية والمصريون يعقوبية وكان الخلاف بين العقيدتين فى ذلك الوقت بالغا أشده فأمن عمرو جانب المصريين واكتفى من عمر بذلك الجيش وقصد العريش ففتحها فى عيد الأضحى سنة ١٨ هـ ثم سار الى الفرما (١) ففتحها وقصد بعدها بلبيس فاشتبك مع الروم فيها وجرت بينهم حرب شديدة انتصر فيها عليهم وأخذ بلبيس منهم ثم سار الى عين شمس فوجد

---

(١) مدينة قريبة من البحر الأبيض شرقى بور سعيد .

الروم قد تجمعوا فيها فاستنجد عمر فأمده بأربعة آلاف أخرى فلما وصلوا إليه اشتبك مع الروم فى موقعة عين شمس فكانت الموقعة الفاصلة بينه وبينهم وقد تغلب فيها عليهم ومزق جمعهم ففروا منه الى حصن بابليون بالقرب من عين شمس وكانت تحيط به أسوار منيعة والنيل فى إبان فيضانه يحيط بها من جميع الجهات فحاصرهم المسلمون فيه سبعة أشهر ثم خرج المقوقس أمير مصر فصالحهم على الجزية وأن يخرج أهل الحصن من الروم فى ثلاثة أيام لايحملون معهم إلا أقواتهم وكان ذلك سنة ٢٠ ﻫ

أثر الفتوح فى حياة العرب

كان لهذه الفتوح آثار كثيرة فى حياة العرب إذ اختلطوا فيها بالشعوب التى فتحوا بلادها فأفادوها دينهم واستفادوا منها أمورا كثيرة تتعلق بشؤون دنياهم لما كان لهذه الشعوب من السبق فيها عليهم والاسلام لايمنع المسلمين من الاستفادة من غيرهم فى أمور دنياهم ، وهذه هى أهم الأمور التى ظهر فيها أثر تلك الفتوح .

(١) تعبئة الجيوش . كانت العرب فى جاهليتها تتبع فى حروبها طريقة الكر والفر بأن يكر المحارب ثم يفر ويعود فيكر وهكذا بدون ترتيب فى جيوشها أو نظام فى حروبها فلما حارب المسلمون فى هذه الفتوح رأوا أمامهم أمما منظمة لاتصلح فى حروبها طريقة الجاهلية من الكر والفر فربطوا مسير الجنود بعضهم ببعض حتى يكون الصف متماسكا لا يتقدم واحد أو يتأخر عنه ثم جعلوا للجيش مقدمة تكون فى الامام لتبدأ المناوشات وتتعرف الطريق وقلبا يكون فى الوسط وفيه أمير الجند ، وجناحين أو مجنبتين يمنى ويسرى ثم ساقة ، وقد قسموه الى فرق وجعلوا لكل فرقة أميرا يأتمر بأمر قائد

الجيش وكانوا يجعلون على الفرسان خاصة أميرا اذ كان للفرسان الشأن العظيم في الاحتفاظ بخطوط رجعتهم حتى لا يؤتوا من خلفهم

(٢) الميل الى الترف : وقد مال العرب إلى وسائل الترف فى معيشتهم تقليدا لأهل البلاد المفتوحة خصوصا فى عهد عثمان رضى الله عنه وإن لم يجاوزوا فى ذلك حدود الاقتصاد التى أمرهم بها دينهم فاقتنوا الأموال وبنوا القصور وأطابوا مآكلهم وجملوا ملابسهم حتى كانت نساؤهم تحضر المساجد بشكل رأت عائشة رضى الله عنها أنه مثير للفتنة فمنعتهن من حضورها وكن يحضرنها على عهد النبي ﷺ

(٣) الميل إلى الهجرة : كانت القبائل العربية فى جاهليتها قانعة بجزيرتها راضية بقحولتها وخشونتها فلما فتحت أمامها تلك البلاد الخصبة مالت نفسها إلى الهجرة إليها وأن تستبدل بحياتها فى باديتها حياة أخرى تشتغل فيها بتعمير الأرض بدل رعى الماشية فهاجرت من الجزائر قبائل عديدة الى تلك البلاد المفتوحة وشاركت أهلها فى تعمير أرضها

(٤) انشاء المدن : وهذا أيضا مما تجدد ميلهم اليه بعد تلك الفتوح وكان العرب فى جاهليتهم لا يهتمون بانشاء مدن يعيشون فيها عيشة استقرار لأن حال جزيرتهم لا يلائم مثل هذه العيشة وانما كانت بيوتهم من الشعر يقيمونها اذا حلوا ويقوضونها اذا ارتحلوا ومن المدن التى شيدوها بعد هذه الفتوح الكوفة والبصرة بالعراق، والفسطاط بمصر وغير ذلك من المدن

(٥) اتساع المعارف : احتك العرب فى هذه الفتوح بغيرهم من الشعوب واطلعوا على حروبهم وعاداتهم وأخلاقهم وأساليب معيشتهم وتنقلوا فى بلادهم فرأوا أشياء لم يشاهدوها وأحوال الأمم يألفوها فأثر ذلك فى نفوسهم وزاد فى معارفهم وجعلهم يظهرون أمام هذه الامم بالمظهر الذى يليق بهم بعد أن أصبحت

أزمتها بأيديهم وتركوا مظهر البداوة الذى كانوا يظهرون به وهم فى عزلة عن العالم فى جزيرتهم وقد زار عمر الشام فقابله معاوية ومن معه بزى يخالف ما كانوا عليه فى بداوتهم فانكر ذلك منهم فأخبروه بأنهم اذا ظهروا بخلاف ذلك يحتقرهم أهل الشام من الروم وغيرهم فقبله منهم

الفتن السياسية

لم تكن الفتن التى حدثت فى آخر عهد الخلفاء وترتب عليها قتل عثمان وعلى وغيرهما فتنا دينية وانما كانت فتنا سياسية لايؤخذ على من اشترك فيها شىء فى أصل دينه والسياسة وان كانت من الدين إلا أنها ليست من صميمه والخوارج من متنطعة الاعراب الذين اشتركوا فى هذه الفتن هم الذين جعلوها فتنا دينية وأخذوا يكفرون فيها كبار أصحاب رسول الله من عثمان وعلى وطلحة والزبير ومعاوية وعائشة وغيرهم ممن نقم أولئك الخوارج عليهم وحكموا بكفرهم واستباحوا دماءهم وشاركهم فى ذلك كثير من أئمة المعتزلة الذين أتوا بعدهم حتى كان واصل بن عطاء يقول فى على وطلحة والزبير انهم لو شهدوا عنده على شىء لم يجوز قبول شهادتهم بأقة بقل مع أن هذه الفتن لم تكن على اختلاف فى شىء يتعلق بأصل من أصول الدين التى يتعلق الايمان والكفر بها وإنما كان اختلافهم على الحكم والامارة وذلك من السياسة فالخلاف فيه مما يحتمل أمره والدماء التى تسفك فيه تسفك برضا أصحابها وليس شأنها شأن الدماء التى تراق فى مأمن أهلها ولذلك لما قتل عمار بن ياسر فى جيش على احتجت به شيعته على معاوية بما رووا عن النبى ﷺ (ويح عمار تقتله الفئة الباغية) فقال معاوية انما قتله من أخرجه

وقد تقاتل هؤلاء الاصحاب فلم يطعن أحدهم على الآخر فى دينه ولم يحمله العداوة السياسية على أن يغمطه فضله الدينى وهـذا على حينما رأى طلحة مقتولا بعد وقعة الجمل جعل يمسح التراب عن وجهه ويقول : عزيز على أبا محمد أن أراك مجدلا تحت نجوم السماء ثم قال الى الله أشكو عجرى وبجرى ليتنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة ، وجعل يبكى هو وأصحابه عليه وسمع رجلا ينشد :

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه ‏ ‏ ‏ ‏ اذا ماهو استغنى ويبعده الفقر

فقال : ذاك أبو محمد طلحة بن عبيد الله

وكان من أصحاب رسول الله أيضا من اعتزل هذه الفتن وكره سفك دماء المسلمين فيها مثل سعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر وغيرهما ولـكنهم لم يطعنوا فى دين من اشترك فيها من الفريقين وعرفوا أن هذا أمر يتعلق بأمور السياسة ولا دخل له فى أمور العقائد فلهم أن يذهبوا فيها هذا المذهب إذ لم يترجح عندهم أحد الفريقين على الآخر ولغيرهم أن يذهبوا فيهـا على خلاف مذهبهم إذا ترجح ذلك عندهم

فهذا كان شأن تلك الفتن ولا بد من ملاحظته عند الحـكم على من اشترك فيها من أصحاب رسول الله وغيرهم كما لابد من ملاحظة أمور أخرى معه :

(١) أن هذه الفتن والحروب لم تـكن كما يرى بعض المؤلفين لنصرة شخص على شخص حتى لايعذر فيها أهلها لأنهم لم يكونوا يريدون منها تقرير مبدأ دينى أو رفع حيف حل بالأمة وانما كان الحامل عليها المصلحة الخاصة والتعصب لفرد على آخر ، فحاشى أولئك الأصحاب العظماء أن يسفكوا فى مصالحهم الخاصة كل تلك الدماء ، وانما كان الحامل لهم على ذلك مصلحة الأمة فى شكل الحـكم

الذى تحكم به فقد رأوا بنى أمية يزداد نفوذهم فى خلافة عثمان وهم عصبة قوية إذا تمكنوا من أمر المسلمين يصعب تخليصه من أيديهم فيقلبون خلافتهم الشورية الى ملك وراثى يستأثرون به على المسلمين ويسيرون فيهم سيرة كسرى أو قيصر فأنكر بعضهم ذلك على عثمان وكان ممن أنكره عليه على والزبير وطلحة وعائشة ولكن ضرر ذلك لم يكن محققا عندهم وإنما هو أمر يحمل عليه الظن دون اليقين فوقفوا من عثمان موقف الناصح ولم يصل أمرهم إلى حد الخروج عليه وكان رضى الله عنه لايرى فى ذلك رأيهم ولا يخاف على أمر المسلمين من قومه بنى أمية خوفهم فلما خرج عليه أولئك الآثمون أنكروا عليهم خروجهم عليه وقاموا يطالبون بدمه حين قتلوه ، ثم تولى على فانتقل خوفهم من بنى أمية على الخلافة الاسلامية إلى بنى هاشم قوم على وكان بنوهاشم وشيعتهم يرون أن يكون حكم المسلمين وراثة فى على وأبنائه فامتنع بعضهم من مبايعته ورأى أن شيعته فرضته على المسلمين فرضا وأنه سوف يستأثر بالأمر من بعده لأولاده يتوارثونه طبقة بعد طبقة وإذا كان هو بحيث لايخشى منه على المسلمين فقد يكون من ذريته من يخشى منه عليهم وقد رأوا من بين الذين خرجوا على عثمان كثيرا من شيعة على الذين يرون أنه أحق بذلك الأمر هو وأبناؤه فخرجوا عليه يطالبونه بدم عثمان منهم ليقضوا على تلك الفئة التى قتلته لتغير شكل الحكم فيهم بطريق القهر بعد أن كان يقوم فيهم بطريق الشورى فكانت المطالبة بدم عثمان عندهم وسيلة لاغاية ولو كانت هى المقصودة وحدها عندهم لسهل أمرها بينهم ، وكان على يرى أن جمهور المسلمين قد رضوا خلافته وأن هؤلاء الذين يطالبونه بدم عثمان لو كانوا يقصدونه وحده ولايخفون شيئا وراءه من عدم الرضا بخلافته لبايعوه كما بايعه غيرهم ثم نظروا بعد ذلك فى قتلة عثمان ليمكنهم الوصول فى هدوء اليهم ولأن أمرهم لم

يكن من السهولة بحيث يمكن بلوغ شيء فى تلك الفرقة منهم وقد كان يهم بشيء معهم ثم يرى الفتنة تكاد تحل بأنصاره فيتركهم ويرى أن هؤلاء الذين يطالبونه بدم عثمان لا يريدون إلا أن تحل بأنصاره هذه الفتنة ليسهل أمره عليهم ثم إنه رآهم حينما قتل عبيد الله بن عمر الهرمزان ورأى هو قتله به لم يروا أن يقتل عمر وابنه فى يومين ولا شك أن أمر قتلة عثمان كان أشد تعقدا من أمر عبيد الله ولأمر ما جدد على النظر فى أمر عبيد الله لأول خلافته ففر منه إلى معاوية ليريهم كيف يتساهلون فى قتله ويشددون فى قتل غيره لأمر يتعلق به نفسه

(٢) أن أمور السياسة تتحمل انتصار بعض الخصوم على بعض فيها بحسن الرأى والحيلة وما إليهما من وسائل السياسة وإذا وصل الأمر فيها إلى حد الانتصار للرأى بالحرب فالانتصار له بشيء من الخداع والحيلة أخف ضررا من الانتصار له بالسيف وعلى هذا يحمل كل ما حصل من الأصحاب من ضروب الخداع فى هذه الفتن كالذى حصل من عمرو فى التحكيم وغيره .

(٣) أن الأمم الرشيدة لا تفعل مع عظمائها ما يفعل الخوارج ومن ينحو نحوهم مع عظماء أصحاب رسول الله وهم الذين قام الدين على رماحهم وفتحت البلاد بسيوفهم ولولاهم لكان أولئك الخوارج فى ضلالة الجاهلية فلا يصح أن ينسى كل هذا لهم وألا يضيع فيه كل ما يمكن أن يعد عليهم وأى جواد لا يكبو وأى صارم لا ينبو فهم عظماء الاسلام مهما كان شأنهم وهم سلفنا الصالح على ما كان من تخاصمهم وتحاربهم ولا يليق بمن ليس له مثل فضلهم وسابقتهم أن يحط بهم إلى حد أن يحكم بكفرهم أو فسقهم وإلا كان هذا الدين الذى حملوه إلينا كفرا أو فسقا من أوله الى آخره .

(٤) أن اللوم فى الفتن على من كان سببا فيها لا على من اشترك فيها بعد

وقوعها يريد معالجتها ومنع الفوضى التى تترتب عليها إن تركت بدون معالجة وربما يكون مقامه فيها من أجل هذا خيرا من مقام من اعتزلها ، وإثم هذه الفتن لا يقع إلا على أولئك الخوارج الذين أثاروها وبدءوها بقتل عثمان فى مأمنه وختموها بقتل على رضى الله عنه .

مقتل عثمان

كان الخارجون على عثمان فريقا من الغالين فى زهد الدنيا أو المتعصبين على قريش لاستئثارها بأمور المسلمين دونهم أو المتعصبين لآل بيت النبوة من السبئية ومن إليهم فأخذوا على عثمان أنه أباح لنفسه وللناس من الدنيا ما لم يبحه أبو بكر وعمر فقلب شكل الخلافة من زى النسك إلى زينة الملك وأخذوا عليه أنه آثر بعض أقربائه بولايات المسلمين وأعطى مروان بن الحكم خمس غنائم أفريقية وغير ذلك من أمور اختلقوا بعضها ونظروا نظرة غلو إلى بعضها فثاروا عليه طالبين عزله ولم يكونوا من أهل الحل والعقد الذين بيدهم نصب الخلفاء وعزلهم ولم ير عثمان أنه ارتكب شيئا يوجب عزله بل رأى أنه لو سمع لهم لاضطرب أمر المسلمين وتفرقت كلمتهم ومع هذا فقد عالجهم بالحسنى وأرضاهم وأجاب كثيرا من مطالبهم ولم يرض أن يرفع سيف فى وجوههم ، فكان قتلهم له ظلما وعدوانا وسببا فى تلك الفتنة التى تقع تبعتها عليهم ولم يكن ما أخذوه عليه يساوى قطرة من دمه أو تلك الدماء التى أريقت من أجله .

الحرب بين على و معاوية

كان على يأخذ على عثمان بعض ما أخذ عليه فى خلافته ولكن ذلك لم يجاوز حد اعتزاله أمره لأن ما يأخذه عليه لم يكن فى محرم ارتكبه وإنما كان فى أمور اختلف فيها اجتهادهما وكان أصحاب رسول الله يختلفون فى أمور كثيرة فإذا حصل بينهم جفاء هجر أحدهما صاحبه هجرا جميلا فلما داهم أولئك الخوارج عثمان بالمدينة حاول على ردهم عنه فكروا له مكرا سيئا ليصرفوه عنهم وقالوا له أنت الذى كتبت إلينا فأنكر أنه كتب إليهم ورأى أن يعتزل هذه الفتنة التى يكذب فيها عليه ثم إنه لم يكن يملك غير النصح الذى لم يسمعوه منه فخرج من المدينة وترك ابنيه الحسن والحسين مع بعض من أبناء المهاجرين والأنصار وأوصاهم بالدفاع عن عثمان ، فلا يمكن مع هـذا أن ينسب اليه تقصير فى حقه وإنما هو الذى قصر فى حق نفسه وكان ينبغى له حينما طلب منه معاوية أن ينتقل معه إلى الشام فأبى أن يضع جندا فى المدينة يحميها ويحميه من هذه الغارة التى كانت محتملة ولكنه رضى أن يبذل دمه وألا يفديه بدم مسلم يراق فى سبيله فله فى ذلك أجره عنـد الله وليس على غير قتلته ذنب فى دمه لأنهم لم يكونوا يملـكون شيئا لدفع هـذه الغارة وكان هو يأبى أن يقاتل المغيرون عليه .

وقد ذهب أهل المدينة وفيهم هؤلاء الخوارج بعد قتل عثمان إلى على يبايعونه بالخلافة فقبل بيعتهم ليضع حدا لهذه الفوضى ورأى أن يؤجل النظر فى قتل عثمان حتى تهدأ الحال وتزول الفتنة وتعالج أسبابها قبل أن يقتص من أصحابها وهم من قبائل مختلفة وقد تؤدى المبادرة فى أمرهم إلى زيادة الفتنة بدل تخفيفها لاسيما أن شهود الحادثة من آل عثمان كانوا قد بادروا بالسفر إلى معاوية بالشام حينما رأوا أولئك الخوارج يذهبون إلى على فيبايعونه بالخلافة

وكانت حوادث هذه الفتنة يأخذ بعضها برقاب بعض حتى إنها لم تدع مجالا للتدبر والنظر فى هدوء إلى الأمور فان آل عثمان حينما رأوا أولئك الخوارج ينضمون إلى على لم يشكوا فى أن قتل عثمان كان بتدبير منه فاتهموه به وقالوا إنه هو الذى سلط أولئك الخوارج عليه ليكون أمر المسلمين له ولأولاده من بعده فذهبوا إلى معاوية فى حالة مثيرة ومعهم قميص عثمان الذى قتل فيه ملوثا بدمه وأخبروه بأمر على معه على ما فهموه واستنبطوه من ظاهر ما شاهدوه حتى أيقن بأن علياً له يد فى قتل عثمان وأن الذى حمله على ذلك طلب الأمر لنفسه من غير طريق الشورى الذى سن له فاستباح لنفسه الخروج عليه وطالبه بدم عثمان وأن يعتزل الأمر ليختار المسلمون له من يرضونه ، وهكذا كان كل من الفريقين يقوم عنده من الأدلة القوية ما يرى به الحق فى جانبه ويعذر فيه عند كل منصف والفتن إذا أقبلت تشابهت وعمى أمرها على الخلق

مقتل على

أنكر الخوارج من على رضاه بالتحكيم ، وقالوا إنه حكم الرجال فى أمر البغاة وعدل فيهم عن حكم الله (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) وقد تنطعوا فى ذلك أو تغالوا فيه من أجل مصلحتهم فى تفريق الكلمة فجعلوه كفرا وقالوا لعلى فى حروراء إن التحكيم كان منا كفرا وقد تبنا الى الله فتب كما تبنا نبايعك وإلا فنحن مخالفون ، فبايعهم وأرضاهم وان لم يشهد على نفسه بالكفر مثلهم وكان رأيه فى هذا التحكيم أنه خديعة سياسية ولكنه غلب على قبولها فاحتال عليهم بذلك ليمنع ضررا معجلا والى أن يجتمع الحكمان يقضى الله أمرا كان مفعولا واستعمل فى هذه المرة من حسن السياسة ما نجح به معهم ولو أنه لجأ إلى هذا

فى كل أموره ولم يكن يعده خداعا لايليق به لنجحه فيها كلها ولم يفزع عليه معاوية ، فلما أرسل أبا موسى إلى مكان التحكيم أنكروا هذا عليه فجمعهم فى المسجد ليخطبهم فوثبوا من نواحى المسجد يقولون (لاحكم الا لله) فقال لهم (كلمة حق أريد بها باطل) فخرجوا الى منزل عبدالله بن وهب الراسبي فبايعوه بالولاية وخرجوا وحدانا مستخفين حتى اجتمعوا بجسر النهروان فتركهم حتى انقضى أمر الحكمين بما انقضى به ثم كتب اليهم يدعوهم الى المجىء لحرب الشام فكتبوا اليه : أما بعد فانك لم تغضب لربك وإنما غضبت لنفسك فان شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك وإلا فقد نابذناك على سواء إن الله لايهدى كيد الخائنين ، فأيس منهم ولم يخرج اليهم الا حينما بلغه أنهم اعترضوا الناس وقتلوا منهم فكانت بينه وبينهم موقعة انتهت بقتل عبد الله ابن وهب وتفريق جمعهم .

وهذا هو الخلاف الذى حصل بين على والخوارج فى هذا التحكيم ولم يكن لهم حق فى الانكار عليه من ناحية الدين لأن معاوية إذا سلمنا لهم أنه كان من البغاة فقد أمرنا الله بقتال الفئة الباغية حتى تفىء إلى أمر الله ولاشك أن معاوية قد فاء إلى أمر الله وطلب برفع المصاحف فى موقعة صفين أن يرجع إلى حكمها فيما بينه وبين على وقد أمر الله عند ذلك بالكف عن القتال والرضا بالصلح (فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل) وقد كان على يري أن رفع المصاحف خديعة ولكن الله أمر بالجنوح إلى السلم فى مثل هذا وتكفل باحباط الخديعة وقد كان عليهم أن يحتاطوا لهذا التحكيم حتى لايقع من الحكمين ما وقع منهما فيه بدل أن يختلفوا فى شأنه هذا الخلاف الذى لا طائل تحته .

فلم يكن الرضا بهذا التحكيم كفرا ولا معصية وإنما كان الواجب هو الرضا به حقنا للدماء وجمعا للكلمة ولم يكن قتل الخوارج عليا به إلا ظلما وعدوانا مثل قتلهم عثمان قبله وإذا كان على قد قتل بعضا منهم فانما فعل ذلك

بعد أن قتلوا الناس وتعرضوا لهم فقتلهم لبغيهم عليه وللقصاص منهم ، وقد قتلوه باسم الدين كما قتلوا عثمان باسمه والسياسة وحدها هى التى حملتهم على قتلهما وقد بدءوا ينظرون إلى على نظرهم الى عثمان حينما ولى عبد الله بن عباس على البصرة فنظر بعضهم الى بعض وقالوا : قثم بن العباس على الحجاز وعبيد الله بن العباس على اليمن وعبد الله بن عباس على البصرة ففيم قتلنا ابن عفان ؟ ثم أخذت سآمتهم منه تزداد كل يوم الى أن اخترعوا له مسألة التحكيم يغالطون بها وينكرون عليه باسم الدين فيها ليخدعوا الناس به عن غرضهم السياسى فكانوا بذلك أول المتاجرين باسم الدين المبتدعين هذه السنة السيئة فى الاسلام .

نظرة فى حال الدولة العربية

زمن الخلفاء الراشدين

اتسعت أمور الدولة فى عهد الخلفاء الراشدين وجد فيها أحوال لم تكن فى عهد النبي ﷺ فلم يقف الخلفاء جامدين أمامها بل أحدثوا لها من النظم ما يلائمها وزادوا فى أوضاع الدولة ما يفى بحاجتها ويليق بعظمتها بعد اتساعها مستنبطين ذلك من أصول دينهم أو آخذين فيه بالنافع مما عند غيرهم لأن الاسلام لم يجعل عليهم حرجا فى تقليد غيرهم فى الصالح من أمور دنياهم ، وهذه هى أهم الأوضاع والنظم التى كانت متبعة فى هذه الدولة :

(١) فى الحكم : لم يكن للخلفاء فى هذه الدولة شىء من شارات الملك وأبهته حتى فى عهد عثمان الذى ظهر على المسلمين فيه شىء من شارات السلطان الواسع الذى صار لهم فكان الخليفة يسير فى طريقه وفى بيته كواحد من رعيته لا حاجب له ولا حارس يكلم الصغير والكبير ويسمع لكل من يقصده وكان

قدوته فى حكم الناس كتاب الله وسنة رسوله يستوى رأيه فيهما مع رأى غيره فكان فى الاستنباط منهما كأحد المجتهدين من أمته فاذا اتفق معهم فى الفتوى عمل بما اتفقوا عليه وصار إجماعا لا يمكنه أن يخرج عنه وإن اختلفوا فيها عمل بالأصلح من آرائهم فكان أمرهم فى الحكم شورى بينهم ولم يكن لحكومة الخلفاء أية سلطة استبدادية فيهم بل كان الخليفة مقيدا فى حكمه بقوة الدين وقوة الرأى العام وقد وقف عمر فى الناس فقال لهم : من رأى منكم فى اعوجاجا فليقومه ، فقالوا له : لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا .

(٢) فى القضاء : كان خليفة المسلمين واليهم وقاضيهم إلى أن اتسعت الفتوح وكثرت مشاغل الخلفاء ففوضوا القضاء إلى أهله ووضع لهم عمر منهاجا يسيرون عليه وقد أطلق عليهم اسم القضاة من عهده وكان الخليفة هو الذى يعينهم فلم يكن لولاة الأمصار سلطة عليهم بل كانت سلطتهم مستقلة عنهم يستوى فيها الشريف والوضيع والحكام والسوقة وكان يرزقون من بيت المال مايسد حاجتهم .

(٣) فى جباية الخراج : كان للجباية غالبا عمال يقومون بها غير عمال الأمصار وقوادهم وكانوا ينفقون ما يجبون فى أرزاق الجند ومصالح البلاد ثم يرسل مايبقى بعد ذلك إلى دار الخلافة لينفق فى وجوهه وكانت هناك جبايات ثابتة من الخراج والعشر والجزية والصدقات ، وجبايات غير ثابتة من العشور والغنائم ، والخراج هو ما كان يوضع على الأراضى التى امتلكها المسلمون عنوة وتركوها فى أيدى أهلها يؤخذ منهم كأنه أجرة للأرض التى تركت لهم ، أما الأراضى التى أسلم أهلها عليها أو أخذت عنوة وأهلها لا تقبل منهم الجزية كعبدة الأوثان ففيها عشر ما يخرج منها ومثلها الأراضى التى أخذت عنوة ولم تترك لأهلها بل قسمت بين الغانمين ، والعشور هي نظام (الجمارك) المعروف

الآن وقد فرضت على التجارة المنقولة فى عهد عمر حينما بلغه أن تجاراً من المسلمين يذهبون بتجارتهم إلى بلاد الحرب فيؤخذ منهم عشر تجارتهم ففرض على تجارتهم العشر فى نظير ذلك وفرض على أهل الذمة نصف العشر وفرض على المسلمين ربع العشر ولم يكن فيما دون المائتين شيء

(٤) فى النقد : استحدث نظام النقد الاسلامى فى عهد عمر وكانت الدراهم الفارسية التى تعاملوا بها قبله مختلفة الوزن بعضها على وزن المثقال عشرون قيراطا وبعضها وزنه اثناعشر قيراطاً وبعضها وزنه عشرة قراريط فضرب عمر درهمه على ثلث مجموعها وهو أربعة عشر قيراطا وكان ذلك سنة ١٨ هـ . وجعله على نقش الدرهم الفارسى وكتب فى بعضها (الحمد لله) وفى بعضها (محمد رسول الله) وفى بعضها (لا إله إلا الله وحده) وفى بعضها (عمر) وضرب عثمان فى خلافته دراهم ونقشها (الله أكبر)

(٥) فى الصلاة . كانت إقامة الصلاة من أعمال الخليفة يقيمها بنفسه فى مصره ويقيمها عماله فى أمصارهم وكان فى كل مصر مسجد جامع واحد تؤدى الجمعة فيه وحده .

(٦) فى الحج : وكان الخليفة يهتم باقامة الحج كل سنة فيليه بنفسه أو يعين له واليا يحج بالناس ويحفظ النظام بينهم فيه

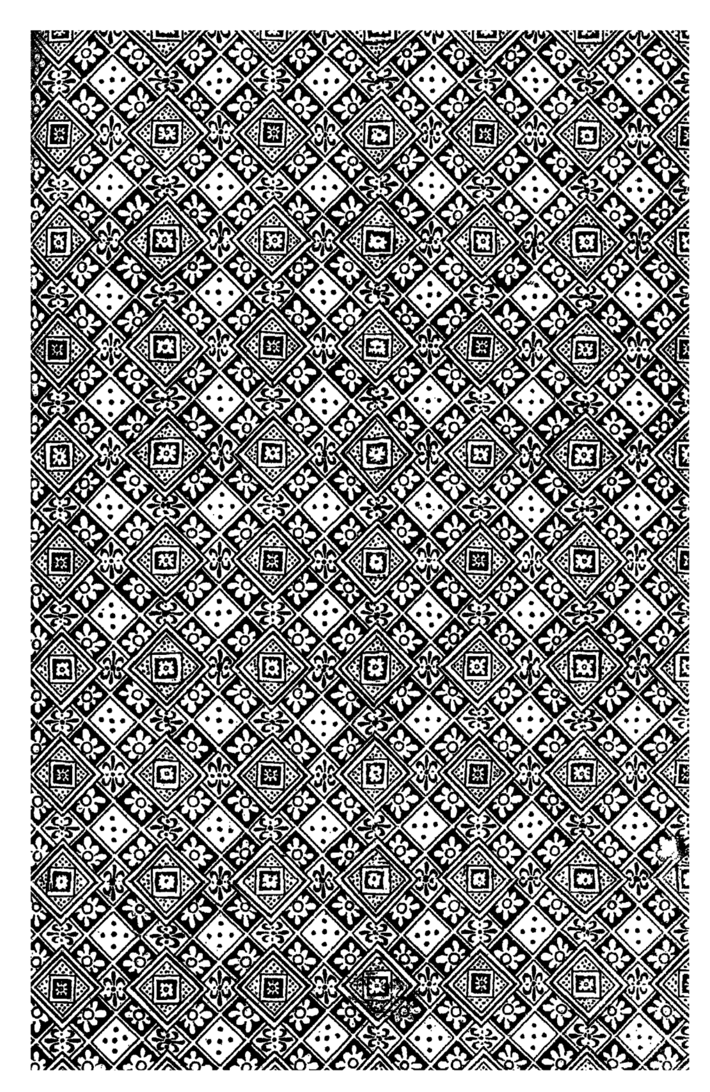
(٧) فى التعليم : انتقلت الأمة العربية على عهد الخلفاء انتقالا كبيرا فى باب التعليم وزال عنها شعار الأمية الذى كانت تعرف به وقد جلب إلى المدينة كتاب من الحيرة وغيرها فنشروا الكتابة بين أهلها وكان أكثر النشء الذى ظهر فى عهد الخلفاء يعرف القراءة والكتابة ويلم بما يجب عليه من العلوم لدينه ودولته ودنياه وآخرته .

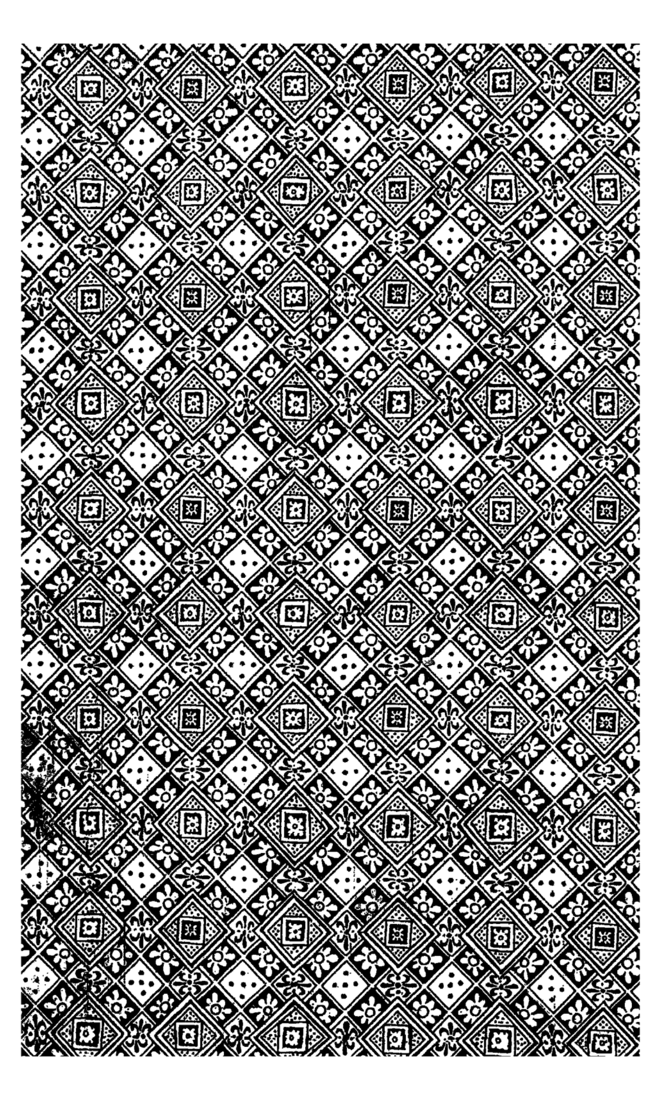
وقد انتهينا من ذلك عصر يوم الأحد (١٨ من ذى القعدة سنة ١٣٥٢هـ ٤ من مارس سنة ١٩٣٤ م) وصلى الله على محمد وآله ورضى عن خلفائه وأصحابه .

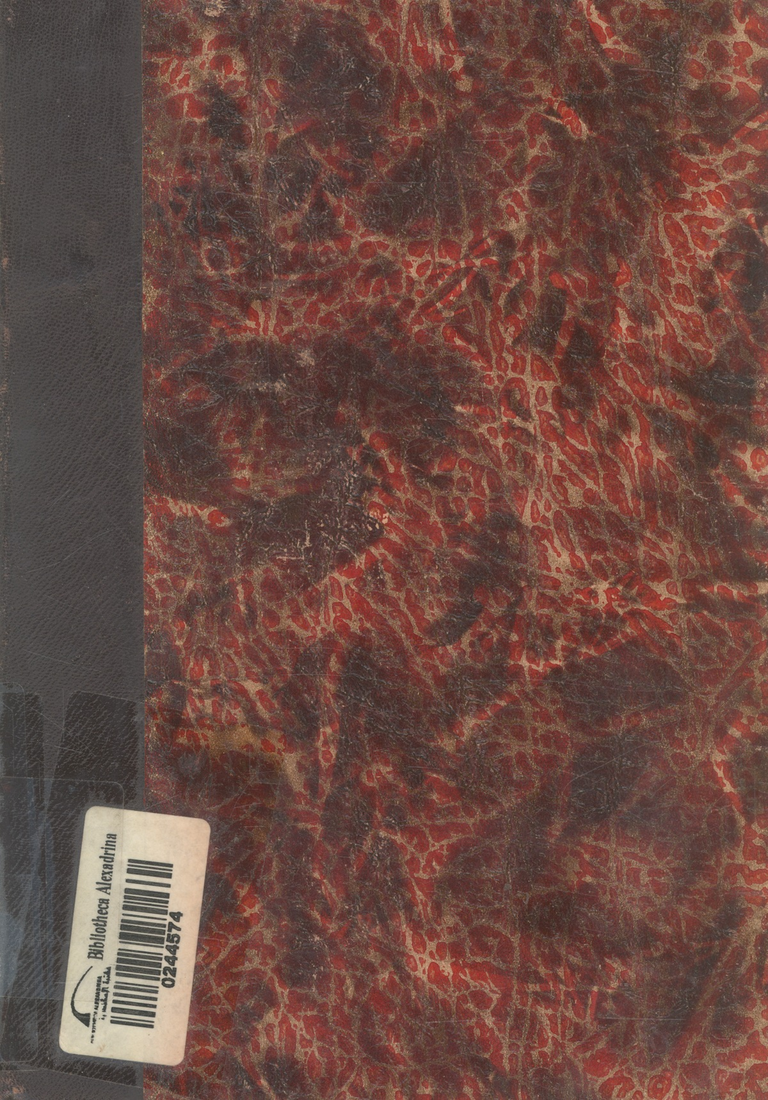
فهرست الكتاب

الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤	١٨	بوغار	بوغاز	٧٧	١٧	(٨)	(٧)
٩	١٠	الرجح	الراجح	٧٨	٦	(٩)	(٨)
١١	١	واجتماعها	واجتماعهما	٨٠	١٨	يعصونه	يعصوه
١٢	١٦	لا يجرى	ولا يجرى	١٠٢	١٦،١٩	جوبرة	جويرية
١٤	١١	لدبور	الدبور	١٠٣	١٧	يأكاك	يأكلك
١٧	١	«١»	«٢»	١١٨	١٥	كسر	كسرى
٢١	١٥	بن	ابن	١١٩	٨	ويرغبون	ويرغبوا
٢٢	١٧	يرن	يزن	١٣٤	١٦	قيقناع	قينقاع
٣٩،٤٠	٢٢،١٦	سمعهلى	سمهعلى	١٣٩	٣	أشحع	أشجع
٤٣	١٢	(١)	(٢)	١٤١	٧،١٠	معهم . إلى	معه . إلا
٤٦	١١	أخوه هاشم	عمه عبد مناف	١٤٩	١	مسوح	ومسوح
٤٦	١٢	أبيه . أخوه	أخيه ابن أخيه	١٥١	١٢	ألة	أيلة
٥١	٢٠	لأميين	الأميين	١٦٤	١٥	طلحة	طليحة
٥٥	٨	اثنان وأربعون	نحو أربعين	١٧٧	٣	بلغهم	بلغه
٦٧	١٧	رجالا . فشجه	رجلا . فشجه	١٨٣	١٢	الناطق	الناطف
٦٨	٥	فقاله	فقال له	١٨٥	٢	با عبيدة	أباعبيدة
٧٤	١٧	(٧)	(٦)				






Bibliotheca Alexandrina
02444574